مجلة
إسلامية
شهرية
جامعة

البيان
AL BAYAN

السنة الثامنة والعشرون . العدد ٣٠٩ . جمادى الأولى ١٤٣٤ هـ . مارس - أبريل ٢٠١٣ م

الحراك العراقي وصراع الهوية

السنن الإلهية والمستقبل

غزة.. وحصار الوهن

قانون الجذب..
من «السِّر» إلى «السِّحر»

موازنة الخطيب

البركة والتبرك

مجلة البيان وجميع إصداراتها المتنوعة متوفرة
بمتجر آبل الإلكتروني لأجهزة آيباد وآيفون.
(فقط عليك تحميل تطبيق البيان)

لجمهورنا الكريم، عدد المجلة لشهر جمادى الأولى ١٤٣٤هـ

على المتجر

www.albayan.co.uk

مستشفى أبها الخاص

أحدث أجهزة القسطرة الحديثة
من شركة Siemens الألمانية
جعلت الأمر أبسط مما كان

وحدة
قسطرة القلب والشرايين

www.aph.med.sa

حيث تجرى قسطرة القلب
التشخيصية والعلاجية وبإشراف
أكفأ استشاريي القلب والقسطرة بالمنطقة

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام السيد علي

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk

اشتراكات البيان Whatsapp & SMS
٠٠٩٦٦٥٥٤١٩٢٤١٣

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وإيرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف الموحد: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

الموزعون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩
هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع:
هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١١ - ٤٥٥٧٨١٢ - فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٢٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ - فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

الافتتاحية

٤ السنن الإلهية والمستقبل
التحرير

السياسة الشرعية

٨ تأصيل رؤية سلفية للمشاركة السياسية
محمد بن شاكر الشريف

مِلَلٌ ونِحَل

١٢ قانون الجذب.. من «السِّر» إلى «السِّحر»
فيصل بن علي الكاملي

قضايا دعوية

١٦ موازنة الخطيب
د. إبراهيم بن محمد الحقيل
٢٢ التشغيب العلمي
مشاري الشثري

قضايا تربوية

٢٦ سبل تيسير العسير
محمد فريد فرج فراج

نص شعري

٢٩ أنت ربي — محمد فريد الرياحي

ملف العدد

٣٠ كلمةٌ في التبَرُّك
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
٣٢ كي نكونَ مُبارَكين!
محمد بن عبد الله المقدي
٤٢ البَرَكَةُ في حياة المسلم
د. عطية عدلان
٤٦ التبَرُّك المنحرف.. بَواعثه ومظاهره
أكرم مبارك عصبان
٥٢ مستندات التبَرُّك الممنوع والجواب عنها
محمد فريد
٥٦ التبَرُّكُ في ميزان الشريعة
أدار الندوة: عبدالرحمن أبو عوف

المسلمون والعالم

٦٤ الحراك العراقي وصراع الهوية
د. عبد الرحمن سلوم الرواشدي

٦٨ ماذا لو فقدنا الثورة المصرية؟!
د. طارق الزمر

٧١ ثورة سورية والبحث عن ممثل سياسي
هيثم بن محمد الكناني

٧٤ الأبعاد الإقليمية لأزمة مالي
محمد سليمان الزواوي

٧٨ أطفال فلسطين.. هدف للاعتقال والتعذيب
منجي بن مصباح تونس

٨٠ مرصد الأحداث — عمرو عبد البديع

عين على العدو

٨٤ الصهاينة يشجعون الوطن البديل
د. عدنان أبو عامر

خاطرة أدبية

٨٦ حنين نصف عقد
هشام بنشاوي

قراءة

٨٨ استمداد علم التفسير.. المقدمة الثانية من التحرير والتنوير أنموذجاً
إدريس بحوت

الورقة الأخيرة

٩٢ غزة.. وحصار الوهن
أحمد بن عبد الرحمن الصويان

[كلمة صغيرة]

النشاط الفقهي وترك الجمود

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد النبي سيد ولد آدم أجمعين، أما بعد:

نظراً للتغيّر السريع الذي تتغيّر به الحياة في المجتمعات، تواجهنا في تعاملنا مع الأحداث اليومية قضايا شائكة تحتاج إلى تعامل سريع وصحيح كي ندرك الأمور قبل أن تستفحل ويصعب علاجها أو يستحيل.

كثير من الإسلاميين يواجه القضايا المتجددة بأقوال لأهل العلم قالوها في أزمنة غابرة ظاهرها يتوافق مع تلك الأقوال، ولا ينتبه لفرق مؤثر في الأمر الجديد يمنع من دخوله تحت المأثور، وهذا التصرف مما قد يضيق واسعاً أو يسبب حرجاً في التزام ما لا يلزم.

وكثير ممن يدعي فرقاً مؤثراً بين الجديد والقول المأثور ليخرج عليه ولا يلتزم به ما يؤدي لترك الصواب ومخالفة ما دل عليه الدليل، وسبب هذا ضعف التأهيل الأصولي والفقهي، أو في تقدم من ليس أهلاً للتقدم، وهذا الخلل علاجه أولاً في التربية العلمية الصحيحة لمن يعدون كي يكونوا قادة العلم والمعرفة في الأمة، وثانياً فيما يقوم به العلماء الأثبات من جهود تجديدية فيما ينوب الأمة مما يستجد مما لم يتقدم أو يحر به عمل سابق، ولعل ما يعقد من ندوات ومؤتمرات تناقش هذه القضايا الجديدة من قبل العلماء والمتخصصين؛ يمثل وسيلة فاعلة في هذا الصدد.

مع التغيّر الحادث المتسارع في أوضاع المجتمعات وما يصاحب ذلك من فكر أو ثقافة، هناك كثير من القضايا استجدت في الاقتصاد؛ كالتضخم والنقود الورقية والتأمين، وأخذت القضايا المستقرة تهتز وتضطرب بفعل ذلك التغيّر، وذلك مثل حكم قتل المرتد عن الإسلام، وتطبيق الحدود على مقترفي أسبابها، وتقسيم الدور إلى دار إسلام ودار حرب، وتولي المرأة الولايات ومنها القضاء، ومفهوم الجهاد والعلاقة بين المسلمين والكفار؛ وهذه تحتاج إلى دراسة ومعالجة جديدة لا تقتصر على المدون قديماً، بل تدرس ما استجد منها وتجيب عن الشبهات التي تساق في تلك القضايا. وبعض المؤسسات العلمية والمجامع الفقهية والباحثين من العلماء والدارسين في الأقسام الشرعية في الجامعات، يقومون بجهود مشكورة في هذا الميدان، لكن الحاجة ما زالت ملحة إلى مزيد من الاجتهاد العلمي الذي يستجيب لدراسة تلك المستجدات والنوازل المتتابعة دراسةً تحقق المطلوب.

السنن الإلهية والمستقبل

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فليس بغريب شغف الناس بالمستقبل وعلومه، بل هو مطلب لا يخالف فيه عاقل، وتزداد أهميته للأمم التي تنشد تغيير مواقعها المتأخرة، والتقدم نحو الموضع الطبيعي الذي أراده الله لها. وقد خالط علمَ المستقبل شيء من الخرافات والكهانات والتخرصات التي أخرجته عن الإطار العلمي وطوحت به بعيداً عن الحدود المقبولة. وإذا تجاوزنا هذه الآفات فإن علم استشراف المستقبل من العلوم التي ينبغي الالتفات لها ونفور عدد من المسلمين إليها تعلماً وتعليماً وإفادة؛ حتى لا يكون المستقبل صدمة لأمتنا!

ولأن علوم المستقبل غربية المنشأ وبعيدة عن الهدي الرباني، فقد اكتفى منظّروها بظاهر من الحياة الدنيا، وقصروا علمهم على المعطيات السياسية والاقتصادية والتقنية والسكانية والاجتماعية والصحية، وهذه المعطيات مفيدة وتعطي نتائج باهرة، إلا أنها تظل مبتوتة الصلة بقدر الله وآياته وسننه، وهي سنن ظاهرة للعيان في الكون والأفراد والأمم، وقد جاء الوحي الشريف ببعض قواعدها نصاً صريحاً لا يكاد يخالف فيه أحد معتبر من أهل العلم بالله وكتابه وسنة نبيه ﷺ.

ونحن لا نلوم الغـــرب الكافر على ابتعاده عن شيء ربما لم يعرفه ولم يحط به علماً، لكننا ننعى علـــى بعض أبناء أمتنا الذين أعماهم الســـير في ركاب كل منتج غربي عن نشدان دلالاته الشرعية الواضحة من غير تعسف ولا ليٍّ لأعناق النصوص، ويزيـــد العتب على من ينتســـبون للدعوة أو الفكر الإســـلامي، فهذا المجال روضـــة خصبة لهم حين يجمعـــون بـــين علم الوحـــي الشـــريف ويفيدون ممـــا توصل له العقل البشـــري في مجاله وحدود إمكاناته.

وإن غياب فقه هذه الســـنن يؤول بالمشـــتغلين بهـــذا العلم علـــى وجه الخصوص إلـــى الفوضى الفكرية أحياناً، وربما يشطح بصاحبه في غياهب مـــن الرأي الآفـــن، أو القول الفاســـد، وربما إلى اليأس من اســـتقامة الأمر أو زوال الغمـــة أو تبدل الأحوال.. ومن ثم فإن تدارس هذه الســـنن واســـتنباطها من مظانها في الوحي المقدس وما فتح الله به على الســـلف الصالح – رضوان الله عليهم، ومعرفة المنهج الصحيح في تطبيقاتها؛ تعين العالم والمفكر المســـلم على الاتزان في مواقفه والرشـــاد في أحكامه المستقبلية.

ونحن مأمورون شـــرعاً بذلك، ولا منـــاص لنا من الإجابة طاعة لله ثم ابتغاء العبرة وحســـن النظر، ففي التنزيل الحكيم يقول ربنا جل وعلا: ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [آل عمـــران: ١٣٧]، ويخبرنا القرآن الكريم في ســـياق حديثه عمّن مضى من أجيال وأقوام أن هـــلاك الأمم الماضية كان بســـبب الانحراف عن منهج الله وتكذيب رســـله والصدِّ عن أمره والتقصير في جنب الله، ولم يكـــن هذا الهلاك أبداً بســـبب الضمور الحضـــاري والقصور العمراني والمســـتوى العسكري، فسنة الله في الأمم التي تحيد عمـــا هديت له واضحة بيِّنة في تاريخنا، فقد حكم المســـلمون العالـــم ولم يكونوا الأكثر عـــدداً ولا الأقوى عتـــاداً أو الأرفع فـــي الحضارة المادية، بيد أنهم تميزوا بالســـير وفق منهج الله يتلمّسون مرضاته في خاصة أمرهم وعامته، وحين نكصوا عن صراط الله قبعوا في ذيل الأمم ولم تنفعهم أموالهم ولا غيرها.

وســـنن الله في الكون والأمم وجنس الإنسان تسير على ما أراد الله لها من نظام وتدبير، وقد جاء النص القرآني صريحاً بأنها لا تتبدل ولا تتحول، ولا تجامل أحداً ولا تحابي قوماً، ولا تتأثـــر بالأماني وإنما بالنوايا الصالحـــة والأعمال المتقنة، قال تعالى: ﴿ **فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُـــنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُـــنَّتِ اللّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُـــنَّتِ اللّهِ تَحْوِيلاً** ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال ســـبحانه: ﴿ **سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَـــلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٧]، وكم في القرآن والســـنة من إشـــارة إلى حكم أو نتيجة ربطت بأعمال وأحوال بغض النظر عن فاعلها.

ومع تســـارع وتيرة الأحداث، وتوالـــي المتغيرات، وحدوث المفاجآت أحياناً؛ يتطلع جل المســـلمين دوماً لكلمة من علمائهم وأولي الرأي والحكمة فيهم، وهـــذا الارتباط الوثيق بين عامة الناس وعلماء الشـــريعة قمين بأن يكون ســـبيلاً لجمع الكلمة، وصـــدق التوجيه، فضلاً عن رد الناس إلى كتاب ربهم عز وجل وســـنة نبيهم ﷺ، ففي محكمات الوحي من القواعد والســـنن الماضية ما يجلي الصورة، ويطمئن القلب، ويقود للعمل الصحيح بطريقة صحيحة في الوقت المناسب.

إنه لمن المناسب جداً إعادة قراءة تاريخنا المدون وفق السنن الإلهية، ليقـــف الناس على حقائق ثابتـــة تعينهم على التفكير وترشدهم في التحليل، فبأي شيء غُلبت دولة النبوة والخلافة الراشـــدة مع قلة ذات يدها وعددها وشـــظف عيش رجالاتها

حكاماً ومحكومين؟ وأي شيء جلب السخط على دولة بني أمية أكثر من الظلم في الجانب المالي على وجه الخصوص الذي أذاب كثيراً من حسناتها؟ وكيف يحاط الخليفة العباسي الأخير بمكر كبّار ولا يشعر به ولا يلتفت للناصحين؟! بل وتدار الخمر في مجلسه وتتراقص القيان على صوت المعازف في ذات الوقت الذي تتساقط في مجلس (الخليفة) سهام المغول دون أن تهتز له شعرة، ليس من باب رباطة الجأش، وإنما لغفلته عن سنة ماضية إلى طريقها ماضية!

وفي مقابل التاريخ وأحداثه العظام تبرز حاجة ملحة لفهم الواقع وتفسيره، وهي مسألة اضطربت فيها الأفهام وظهرت بسببها المتناقضات، وتبلبلت أذهانٌ ما كان لها أن تعاني هذا التشتت لو أنها فقهت سنن ربها. وحريٌّ بعلمائنا وأساتيذ المستقبل أن ينشروا للناس السنن الإلهية الخاصة بالأفراد وتلك التي أرادها الله للأمة المسلمة أو للأمة الكافرة، حتى لا ينبهر واحد بتفوق الكفار الحضاري، ولا ينهزم ثانٍ مما يراه من خور وتردٍّ بالمسلمين، وحتى لا يحتج ثالث بكارثة طبيعية حلت بأرض مسلمة، ولا يتبجح رابع بأمر من قضاء الله وقدره أعجبه في أمة كافرة، وإنما هو إملاء أو استدراج أو تعجيل!

ومما يشار إليه في سياق الحديث عن سنن الله في الآفاق والأنفس والأمم، أننا نغفل عن تضمين دراسة هذه السنن في مناهجنا التربوية والتعليمية، فضلاً عن استيعابها واتخاذها ركيزة في التحليل والفهم وتدريب الناشئة والطلاب عليها، وما أجملها في السمع والعقل حين تكون لغة المفاهيم صحيحة وموحدة في أمة أو جيل، وأي أثر سيحدثه هذا الجيل القرآني الذي يتعلم القرآن ويعلمه ويعمل به ويتدبره ويتحرك بمقتضى فهمه ومعرفة ما فيه من سنن وعوائد لا تتخلف، فالتفكير السنني يضبط الأفكار ويحميها من الوهن ومن الأوهام، ويرسي أشرعتها المتلاطمة على أرض صلبة آمنة لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

والإفادة من السنن الإلهية الواردة في القرآن أو الثابتة في السنة الشريفة، تعين الباحثين في الدراسات الإنسانية بمختلف فروعها، فليت أن أقسام الدراسات الإنسانية وكلياتها في جامعات المسلمين تعتني بمضامين هذه السنن وفقهها وتطبيقاتها إن في مناهجها الدراسية أو في رسائلها العلمية المسجلة لنيل الدرجات العالية، وكم سيكون في هذا الأمر من تجلية لهذه السنن وآثارها التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وفي ذلك رافد علمي وعملي متميز لأمتنا.

ولا يكاد ينصرم عام إلا وتصدر عن المراكز البحثية الغربية دراسات وكتب ومقالات تستشرف المستقبل أو ترسمه وفقاً لمعطيات موجودة أو متوقعة، ويكون لهذه المنتجات الفكرية أثر بيّن في توجيه السياسات الغربية في دول كبرى، وإذا انقادت السياسة لها فغيرها منقاد من باب أولى.

ونصيب أمتنا من هذه الدراسات لم يتزحزح عن موقع المفعول به؛ لأنها صدرت عن حضارة مغايرة وعن أناس بتوجهاتٍ بعضها معادية، ولا سبيل للخلاص من هذا الموقع المهين والانتقال لشرف الفاعل إلا من خلال القيام بدراسات علمية مستقبلية تعتمد على ما فقهناه ووعيناه من سنن الله في الكون والفرد والمجتمع والدول، بحيث تصدر عن مراكز بحثية إسلامية مرموقة، وتجد لها آذاناً صاغية من ساسة المسلمين ورموز العمل الدعوي والسياسي المنطلق من ثوابت شرعية. وإذا وفَّقنا الله لفعل ذلك سنجد أن علاج مشكلاتنا ليس أمراً عسيراً أو مستحيلاً، وستلوح لنا في الأفق المنظور ساحات جديدة ودروب للحركة والعطاء كانت غائبة عن ملاحظتنا، وستضمر أخطاءنا التي وقعنا فيها فيما مضى أو أصابت سابقينا.

وأخيراً: فإن دراسة هذه السنن وفقهها وحُسن تطبيقها على الواقع والمستقبل، يقطع دابر اليأس ويحول دون الهلع ويحمي سادة الناس وقادتهم من التخبط والانتقال السريع من حال إلى آخر، كما أن الإعداد لمقتضيات هذه السنن التي لا مناص من حدوثها أمر متعين حتى لا نقع في حرج ضيق الوقت أو تغير الحال، وقد يتعذر إصلاح وضع قائم تمادى في غيه وضلالاته، وسنن الله لا تجامل أحداً؛ ولذا فمن الكياسة التعليم والتحذير ثم الإعداد والاستعداد حتى لا تدهم أمتَنا خطوب من أثر الهوان والذلة ومظاهرة المشركين على المسلمين والتولي عن أمر الله وشرعه وأحكامه، ولات ساعة مندم، فقد حذرنا الله في كتابه من أن الاستبدال عاقبة التولي عن أمره وعقوبة النكوص عن هديه.

صدر حديثاً

سلسلة رحلة الأهرام

ملحمة روائية جمع فيها المؤلف عناصر
التشويق والإثارة والحقيقة العلمية

التوزيع والنشر

مؤسسة دار رسالة البيان للنشر والتوزيع

الرياض: - هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨
تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس:
٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات:
٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ -
٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
مكة وجدة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠
المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩
منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

روايـة
Rewayah

دار رواية للنشر
لندن
104 Queensway
London W2 2RR
UK
E-Mail: info@rewayah.net
www. rewayah.net

تأصيل رؤية سلفية للمشاركة السياسية

محمد بن شاكر الشريف
alsharif@albayan.co.uk
@mshalsharif

إذا كانت السياسة تعني في المفهوم العام تدبير أمر الشعوب بما هو أصلح لها في كل شؤونها ونظمها، فتلك كانت مهمة المرسلين إلى أقوامهم؛ قال الله تعالى في دعوة نبيه صالح لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال موسى - عليه السلام - عندما استخلف أخاه هارون - عليه السلام - في قومه: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وقال الله تعالى في حق عباده الصالحين: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]. . فتبين أن الإصلاح الحقيقي الذي تحتاج إليه مجتمعات الناس، هو التمسك بدين الله تعالى وبما شرعه لهم والقيام بالأوامر واجتناب النواهي، وهذا لا يقوم به المسلم الراجي رحمة ربه في خاصة نفسه فقط، بل يقوم به في خاصة نفسه وأهله وكل من يلزمه القيام على شأنه، وأيضاً فيما يؤسس له من النظام السياسي الذي من خلاله يتم التدبير العام للمجتمع في جميع شأنه، وأحق من يقوم بذلك ويدعو إليه ويلتزم به من يقتفي أثر الصحابة والتابعين وتابعيهم؛ حتى تكون ممارسة السياسة محكومة بالنصوص الشرعية وفق الفهم المستقيم لها الذي فهمه سلف الأمة المبارك، لا بما هو في الفكر الديمقراطي. ومن ثم فإننا نضع هنا بعض التصورات لممارسة السياسة انطلاقاً من أحكام الشريعة التي يكون في امتثالها تحقيق الصلاح في الدنيا والفوز والفلاح في الآخرة، حتى إن لم تكن لنا الآن القدرة على فرض رؤيتنا الشرعية لممارسة السياسة، فإننا نضع الرؤية لتمثل الشيء الذي نطمح إلى تحقيقه ونعد ما نقوم به في ظروفنا المخالفة للوضع السياسي الشرعي بغية الوصول لما نريد من باب ما يطلق عليه الأحكام الانتقالية؛ لأن التحول من وضع فاسد لوضع صالح كامل الصلاح لا يمكن حدوثه

أو تحقيقه دفعة واحدة في غالب الأحوال، وإنما عبر الانتقال إلى الهدف بخطوات مدروسة ثابتة فيها نوع من التدرج أو التريث، ولعل فيما حدث من انتقال من أوضاع فاسدة إلى وضع شرعي صحيح في أول البعثة النبوية ما يكون شاهداً لهذا المسلك، فمثلاً الانتقال من إباحة الخمر التي كانت سائدة في المجتمع أول البعثة إلى تحريمها تحريماً باتّاً، لم يتم بنقلة واحدة، وإنما عبر خطوات بلغت في مداها الزمني قرابة الخمسة عشر عاماً، وكذلك الربا أيضاً انتقل من الإباحة إلى التحريم البات في عديد من السنوات؛ فهذه الأمور الفاسدة كانت متحكمة في المجتمع وكان الانتقال عنها دفعة واحدة يمكن أن يحدث هزة في المجتمع لا تحمد عقباها كما قالت السيدة عائشة «إنما نزل أول ما نزل منه (أي القرآن) سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل

الحلال والحرام، ولو نزل أول شـــيء: لا تشـــربوا الخمر، لقالـــوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نـــزل: لا تزنوا، لقالوا: لا نـــدع الزنا أبداً»[1]، قال ابن حجر - رحمه الله: «أشـــارت إلى الحكمـــة الإلهية في ترتيب التنزيـــل وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد والتبشـــير للمؤمن والمطيع بالجنـــة وللكافر والعاصي بالنار، فلمـــا اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت ولو نزل أول شـــيء لا تشـــربوا الخمر لقالوا لا ندعهـــا، وذلك لما طبعت عليه النفـــوس من النفرة عن ترك المألوف»[2]. وقد يقول القائل إن الشريعة اكتملت وإن الأحكام استقرت وإن نسخ الأحكام لا يكون إلا بشـــريعة من الله تعالى كما قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِـهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَـا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، فبيَّن أنه هو الذي ينسخ الأحكام لا أحد غيره؛ وهذا كلام صحيح لا اعتراض عليه، لكن ما نتكلم عنه ليس من باب الحديث عن نســـخ الأحكام أو العودة إلى التشريع في بداية زمن البعثة قبل اكتمال الشريعة واستحكام الأحكام، وإنما هو من باب القـــدرة والتمكن، ومثل هذه الحالات إنما تظهر في أزمنة غُربة الإســـلام وابتعاد الناس عن الفهم الصحيح لأحكام الشـــرع وضعف الالتزام بها، ولقد تكلم في ذلك كأحسن وأدق ما يكون الكلام شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالـــى - فقال: «إذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما فقدم أوكدهما لم يكن الآخر في هذه الحال واجباً ولم يكن تاركه لأجـــل فعل الأوكد تارك واجب فـــي الحقيقة. وكذلك إذا اجتمـــع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما لم يكن فعل الأدنى في هـــذه الحال محرماً في الحقيقة، وإن سمي ذلك ترك واجب وسمي هذا فعلاً محرماً باعتبار الإطلاق لم يضـــر. ويقال في مثل هذا ترك الواجب لعذر وفعل المحـــرم للمصلحة الراجحة أو للضرورة؛ أو لدفع ما هو أحرم... وهذا باب التعارض باب واســـع جداً، لا سيما فـــي الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة، فإن هذه المســـائل تكثر فيهـــا، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المســـائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة، فإنه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم... فينبغي للعالم أن يتدبر أنواع هذه المسائل، وقد يكون الواجب في بعضهـــا - كما بينته فيما تقدم - العفو عند الأمر والنهي في بعض الأشياء لا التحليل والإسقاط، مثل أن يكون في أمره بطاعة فعلاً لمعصية أكبر منها فيترك الأمر بها دفعاً لوقوع تلك المعصية، مثل أن ترفع مذنباً إلى ذي سلطان ظالم فيعتدي عليه في العقوبة ما يكون أعظم ضرراً من ذنبه، ومثل أن يكون في نهيه عن بعض المنكرات تركاً لمعروف هو أعظم منفعة من ترك المنكرات فيســـكت عن النهي خوفاً من أن يستلزم ترك ما أمر الله به ورسوله مما هو عنده أعظم من مجرد تـــرك ذلك المنكر. فالعالم تـــارة يأمر وتارة ينهى وتارة يبيح وتارة يســـكت عن الأمر أو النهـــي أو الإباحة، كالأمر بالصلاح الخالص أو الراجح أو النهي عن الفســـاد الخالص أو الراجح، وعند التعارض يرجح الراجح - كما تقدم - بحسب الإمكان، فأما إذا كان المأمـــور والمنهي لا يتقيد بالممكن: إمـــا لجهله وإما لظلمه ولا يمكن إزالـــة جهله وظلمه، فربمـــا كان الأصلح الكف والإمساك عن أمره ونهيه كما قيل: إن من المسائل مسائل جوابها السكوت كما سكت الشارع في أول الأمر عن الأمر بأشياء والنهي عن أشياء حتى علا الإسلام وظهر. فالعالم في البيان والبلاغ كذلك قد يؤخر البيان والبلاغ لأشـــياء إلى وقت التمكن كما أخر الله ســـبحانه إنزال آيات وبيان أحكام إلى وقت تمكن رســـول الله ﷺ تسليماً إلى بيانها.. يبـــيَّن حقيقة الحال في هذا أن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُـــولاً﴾ [الإسراء: ١٥]، والحجة على العباد إنما تقوم بشيئين:

١ - بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله.

٢ - والقدرة على العمل به.

فأما العاجز عـــن العلم كالمجنون أو العاجز عن العمل فلا أمر عليه ولا نهـــي، وإذا انقطع العلم ببعض الدين أو حصل العجز عن بعضه: كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله، كمن انقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه كالجنون مثلاً، وهذه أوقات الفترات، فإذا حصل من يقوم بالديـــن من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما كان بيانه لما جاء به الرســـول شيئاً فشيئاً بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئاً فشـــيئاً، ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به ولم تأت الشـــريعة جملة كما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع. فكذلك المجدد لدينه والمحيي لســـنته لا يبالغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما

(١) أخرجه البخاري رقم ٤٩٩٣.
(٢) فتح الباري ٩/ ٤٠.

أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها. وكذلك التائب من الذنوب؛ والمتعلم والمسترشد لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجباً عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجباً لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداء، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان كما عفا الرسول عما عفا عنه إلى وقت بيانه، ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات؛ لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط. فتدبر هذا الأصل فإنه نافع. ومن هنا يتبين سقوط كثير من هذه الأشياء وإن كانت واجبة أو محرمة في الأصل لعدم إمكان البلاغ الذي تقوم به حجة الله في الوجوب أو التحريم، فإن العجز مسقط للأمر والنهي وإن كان واجباً في الأصل والله أعلم. ومما يدخل في هذه الأمور الاجتهادية علماً وعملاً أن ما قاله العالم أو الأمير أو فعله باجتهاد أو تقليد فإذا لم ير العالم الآخر والأمير الآخر مثل رأي الأول فإنه لا يأمر به أو لا يأمر إلا بما يراه مصلحة ولا ينهى عنه، إذ ليس له أن ينهى غيره عن اتباع اجتهاده ولا أن يوجب عليه اتباعه، فهذه الأمور في حقه من الأعمال المعفوة لا يأمر بها ولا ينهى عنها، بل هي بين الإباحة والعفو. وهذا باب واسع جداً فتدبره»[1].

من هذا النقل المطول يبيِّن ابن تيمية إمكانية ترك الواجب لعذر وفعل المحرم إما للمصلحة الراجحة وإما للضرورة وإما لدفع ما هو أشد تحريماً، ومن ثم فإنا نقول إنه في الفترة التي ننتقل فيها من الفساد إلى الصلاح الكامل لا يمكن الانتقال دفعة واحدة أو القفز قفزة هائلة نعبر بها من وضع إلى وضع مخالف له تماماً، ومن ثم فإنه قد يكون هناك اضطرار لترك بعض الواجب أو الوقوع في محرم، وهذا في الحقيقة لا يعد وقوعاً في الحرام أو تركاً للواجب، فإنه وإن كان حراماً من حيث الأصل والإطلاق فإنه لا يعد كذلك من حيث عدم القدرة على الامتثال، إما علماً وإما قدرة وتمكناً، وإذا كان هذا التصرف مما يمكن أن نجد له مسوغاً في الشرع حسبما تقدم تقريره، لكان جوازه مرهوناً بأمرين:

١ - أن تكون المخالفة في حدود الشريعة ولا تتجاوزها إلى العقيدة.

٢ - أن يكون هناك ظن راجح بحصول ما لأجله جرت المخالفة.

ومن ثم فإن الخطوات في الانتقال من الوضع الفاسد إلى الوضع الصالح ينبغي أن يحتاط فيها حيطة شديدة حتى لا تقع فيما هو مخالف للتوحيد أو فيما ليس فيه تحقيق للمصالح المبتغاة.

الإشكالية التي تعترض طريق الإسلاميين في العمل السياسي أن الأنظمة التي توافق على العمل السياسي للإسلاميين أنظمة لا تتبنى الخيار الإسلامي، ومن ثم فإن كثيراً من الأنظمة والقوانين التي تنظم ذلك لم تراع الأحكام الشرعية المتعلقة بقضايا السياسة، وعليه فإن ممارسة الإسلاميين للسياسة لن تخلو من الوقوع فيما تقدم توضيحه من المحذورات، ورغم ذلك فلا بد لنا من اتباع سنة التدافع، فإنه من غير القيام بمدافعة الباطل ودفعه لن نتمكن من الوصول لتأييد الحق وإحلاله محل الباطل، ومن هنا فإن علينا أن نعلن ابتداء رفضنا لأي شكل من أشكال المخالفة للشريعة، وأننا ما قمنا ولا شاركنا في الممارسة السياسية المعاصرة إلا لكي نعمل على تطبيق شرع ربنا وسيادته على ما عداه من الأنظمة والقوانين، وأن مشاركتنا لا تعني بحال قبولنا أو موافقتنا على ما يخالف الشريعة من النظم والقوانين.

فمن الأشياء المرفوضة غير المقبولة ابتداء وانتهاء وعلى الدوام مقولة السيادة للشعب؛ لأنها تعني أن يكون الشعب صاحب المرجعية العليا في سن الأنظمة والقوانين، أي أن الحاكمية للشعب، وفي هذا مخالفة للتوحيد الذي هو أصل الدين الذي أرسل الله به المرسلين كافة، وهو أن تكون الكلمة العليا في كل شيء لشرع الله كما قال تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ومشاركة من يشارك من الإسلاميين لا تعني الموافقة على النص المتقدم؛ لأن الموافقة إنما تثبت بالإقرار بصريح اللفظ وهذا ما لم يكن ولن يكون إن شاء الله تعالى، ومثل هذه المادة يجب أن تحذف من أي دستور في أي بلد إسلامي، وإذا كان هناك من يحاول أن يعطي تفسيراً لهذه الكلمة يغاير به ما قدمته؛ فإن هذا ينفعه في أنه لم يرد منها قبول الشرك، لكن

(١) مجموع الفتاوى ٢٠/٥٧-٦١.

الصواب أن يعبر عن المعنى الصحيح بلفظ صحيح ليس فيه دلالة على الباطل ولا يكون حمّالاً لأوجه من التأويل، كما ينبغي أن يكون من أول ما ينبغي على الإسلاميين فعله بعد وصولهم للحكم؛ هو تنقية الدستور والقوانين من مثل هذه المواد، وإذا كان هناك تخوف من البعض من أن يطغى عليهم الإسلاميون، فلنبحث عن صياغة أخرى تضمن أمرين:

١ – موافقة أحكام الشريعة وعدم معارضتها.

٢ – طمأنة الآخرين بعدم طغيان الإسلاميين عليهم.

كل ذلك بنصوص واضحة تفيد المضمون وليس بوعود أو أمنيات.

ومن الأمور التي ينبغي إلغاؤها والإتيان ببديل صالح لها، المادة القانونية التي تمنع من إقامة الحزب على أساس الدين، فهذا نص في غاية الفساد، وهو فرض أيديولوجية على شعب بأكمله من قبل واضع المادة القانونية دون أدنى مسوغ، فينبغي إلغاؤه ووضع نص بديل له ينص فيه على حظر إقامة أي حزب على أسس أو قواعد أو أحكام تتعارض مع الشريعة الإسلامية، وكون المادة في صياغتها الحالية الفاسدة لم تحل بين إقامة أحزاب ذات مرجعية إسلامية، فإن هذا لا يكفي في تركها كما هي وعدم إلغائها.

وإذا انتقلنا من القوانين إلى الآليات، فأعظم هذه الآليات المتبعة آلية الانتخاب، والانتخاب معناه الاختيار والانتقاءُ، ومنه النُّخَبةُ، وهم الجماعة تُخْتارُ من الرجال، فتُنْتَزَعُ منهم.

واختيار من يصلح لأمر ما من بين متعددين أمر لا غبار فيه، بل ولاية أمر الناس في الشرع قائمة على الاختيار، والمشكلة التي تواجه الإسلاميين في هذا المجال هي جعل الأنظمة القائمة الاختيار حقاً لجميع مواطني الدولة، فيشارك في الاختيار المسلم والكافر والبر والفاجر والعالم والجاهل، بينما الأمر في الشرع ليس كذلك، وهذا الأمر لم يقرره الإسلاميون ولم يرضوا به، بل هو مفروض، ومن ثم فإن التعامل معه لا يعني الموافقة عليه أو الرضا أو الإقرار، بل المدون في كتبهم ومقالاتهم وأحاديثهم ما هو معلوم في كتب السياسة الشرعية فيمن له حق الاختيار، لكن ليس الحل الصواب في مثل هذه الحالة الانسحاب؛ لأن الانسحاب لن يغير شيئاً، وإنما يكون فيه تدعيم لمن يعارضون الشريعة، فإن الدعوة إلى انسحاب الصالحين من ذلك تعني تفريغ المجال أمام المعارضين للشريعة وأمام العوام، وحينئذ لن يختاروا في غالب أمرهم إلا من كان على شاكلتهم، والرأي الشرعي أن من يقوم باختيار ولي الأمر هم أهل الحل والعقد، وقد يكون تحقيق هذا دفعة واحدة متعذراً أو كالمتعذر في ظل الضعف الذي يلف بلاد المسلمين، وقد يكون مما يجوز العمل به الانتقال إلى ذلك عبر أكثر من خطوة، كأن يكون الاختيار يتم على مرحلتين:

١ – يتاح لكل المواطنين المشاركة في الاختيار لكن الاختيار لا يكون لشخص واحد وإنما لخمسة أشخاص مثلاً.

٢ – المرحلة الثانية: تقوم لجنة مشكلة ممن ينطبق عليهم وصف أهل الحل والعقد باختيار واحد من هؤلاء الخمسة مع بيان مسوغات اختياره وتفضيله على من عداه.

وعندما تستقر الأوضاع ويألف الناس مثل ذلك ويقوم الإعلام الإسلامي بدوره في الدعاية بقوة إلى الطريق الشرعي في الاختيار مع مساعدة المشايخ والدعاة في الدروس والمحاضرات؛ يكون الاختيار التالي عن طريق أهل الحل والعقد عندما يكون اتضح للناس معنى هذا المصطلح وصفات أهله.

وأما المجلس النيابي فإن إشكاله يتمثل في أمرين:

١ – الأعضاء الذين يتكوّن منهم، ومنهم كما ذكرنا المسلم والكافر والبر والفاجر والعالم والجاهل.

٢ – صلاحيات هذا المجلس التي تكون أحياناً بمنزلة أهل الحل والعقد، وأحياناً بمنزلة أهل الاجتهاد.

والأصل في ذلك أن لا يشارِك فيه ترشحاً وانتخاباً إلا المسلم الصالح الذي تمكنه قدراته من القيام بذلك العمل، وقد يكون في الفترة الانتقالية من الوضع المسمى ديمقراطية إلى الوضع الشرعي أن يقوم المسلمون باختيار المسلمين وأهل الملل الأخرى باختيار أهل ملّتهم بعدد من الأعضاء مناظر للتعداد السكاني لكل فئة، وبذلك نتخلص من مشاركة الذميين في اختيار المسلمين، وأن يكون لهم دور في ترجيح مرشح مسلم على آخر، ولا تكون لمقترحات أعضاء المجلس جميعاً وآرائهم صفة الإلزام إلا بعد مرورها على لجنة شرعية تنظر فيها وتقر منها ما يوافق الحق وترد ما خالفه، وبذلك نتخلص من دخول من ليس أهلاً من الناحية الشرعية في الإلزام بالقرارات أو القوانين.

وهذا مجرد اجتهاد في هذا الباب يمكن لأحد من الناس أن يأتي بأفضل منه وأجود، ومن ثم فينبغي الأخذ بالأفضل الأجود.

قانون الجذب..
من «السِّر» إلى «السِّحر»

فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

إذا ما تجوَّلت يوماً في مكتبة عربية فلفت ناظريك كثرة الكتب التي تتحدث عن «قانون الجذب»، فلا تظنن أنك في جناح الفيزياء أو الفلك، بل أنت أمام كتب تحوي عقائد وثنية قديمة في لباس علمي قشيب.

يُعدُّ «قانون الجذب» Law of Attraction من أخطر المبادئ الوثنية التي تروج لها البرمجة اللغوية العصبية في مراحلها المتقدمة، وهي تسمية ليست بالحديثة كما قد يُتوهم، بل هي حاضرة في كتابات الباطنيين الغربيين منذ مائة عام على الأقل. من بين هؤلاء البريطانيةُ «آني بيزنت» Annie Besant (١٨٤٧-١٩٣٣م) مؤسِّسة «الكلية الهندوسية المركزية»، وراعية الفرع البريطاني للتنظيم الماسوني Le Droit Humain في مستهل القرن العشرين.

في كتاب «محاضراتٌ شعبية في الثيوصوفية[١]» أفردت هذه الباطنيةُ فصلاً للحديث عن «الكارما» أو ما أسمته «قانون الفعل وردة الفعل». والكارما كما يُعرِّفها «قاموس الفلسفة والدين» المعتبر هي «بِنْيةُ حياةِ المرءِ باعتبارها نتاجاً لما قدم من عملٍ في وجوداته الأولى. وبناء عليه فإن هذه النظرة تتطلب إعادة التجسد أو تناسخ الأرواح كمكمِّلٍ لها»[٢].

أما التناسخ أو إعادة التجسد Reincarnation فهو عقيدة وثنية شرقية معروفة تذهب إلى أن الأرواح عندما تفارق الجسد بالموت تعود فتتقمَّص ثوباً آخر خيّراً أو شريراً بحسب ما استحقت في حياتها الأولى؛ ولذا فإن أتباع هذه العقيدة

(*) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان – يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

(١) «ثيوصوفية» كلمة من أصل يوناني وتعني «الحكمة الإلهية».

(2) William Reese, Dictionary of Philosophy and Religion (New Jersey: Humanities Press, 1996), p. 377.

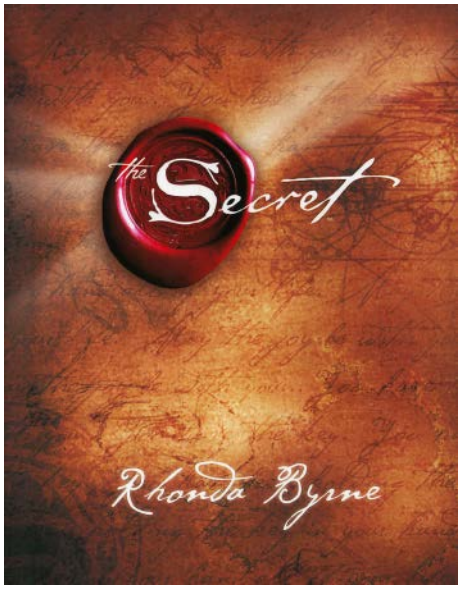

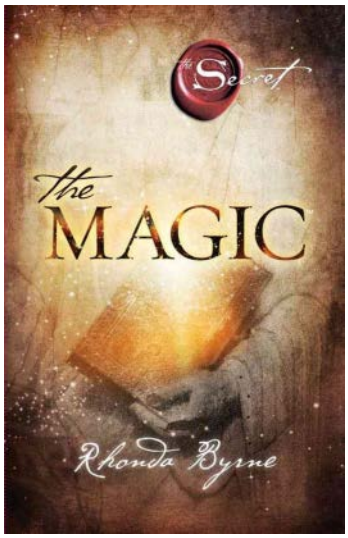

ينكرون الجزاء الأخروي. وهذه عقيدة رائجة بين الباطنيين على اختلاف مشاربهم حتى من ينتسب منهم إلى الإسلام – وهو منهم براء – كالنصيرية والدروز.

وقانون الكارما – كما تزعم «بيزنت» – هو حقيقة العلاقة بين الغيب والشهادة. وهذه العلاقة المستترة بين ما نراه وما لا نراه، أو بين الطبيعي والميتافيزيقي؛ تتبع سنة مطردة تتجاذب فيها المتماثلات[1]. فالكون مؤلف من ذبذبات vibrations، وتفكير الإنسان عبارة عن صور أو مُثُل تحوي ذبذبات هي الأخرى، فإذا استطاع المرء أن يُحكِم هذه المعادلة بين ذبذبات أفكاره وذبذبات الكون من حوله، صار شريكاً في تدبيره[2].

وقد صرحت «بيزنت» بتسمية «قانون الجذب» الذي نحن بصدده عندما وصفت قانون الجاذبية الأرضية بأنه «حالةٌ خاصةٌ من قانون الجذب» الكلي الذي لا يمكن الخلاص منه إلا بملاطفته[3]. وهي تتحدث عن قانون الجذب باعتباره جزءاً من عقيدة الكارما. ثم تتساءلُ عما إذا كان بالإمكان تطبيق هذا «القانون اليقيني» (الكارما) إلى عالَمَي العقل والأخلاق. وتجيب عن تساؤلها قائلة: «إن هذا ما تقوله الأديان القديمة؛ وبعض الأديان الحديثة تقولُ الشيء ذاته، لكن ليس بنفس الدرجة من الاستيعاب والوضوح».

ثم تضيف عبارة هي مربط الفرس في هذا المعتقد الشرقي:

«إن كان هذا ممكناً [تعني تطبيق قانون الكارما في عالَمَي العقل والأخلاق] فإن الإنسان بالفعل سيدٌ لقَدَره (master of his destiny)، فإن بإمكانه حينها أن يعمل في ذينك العالَمَين اللذين يشكلان المستقبل فيجعل من نفسه ما يريدها أن تكون»[4]، فهو بذلك شريكٌ في صناعة القدر! وهذه الحقيقة المبطَّنة هي ما يحوم حوله أصحاب قانون الجذب من المعاصرين.

من الواضح إذن أن «آني بيزَنت» تبني فلسفتها على عقائد الهنادكة في تبرير هذه الزندقة، وتعتمد على مذهب مقتبس من وحدة الوجود هو أن الحاضر صورة للغائب متعلق به، وقادر على التأثير فيه والتأثر به، وعليه؛ فإن بمقدور الإنسان الذي هو في عالم الشهادة أن يؤثِّر عن طريق التأمل والإرادة في عالم الغيب ومنه القَدَر، فالشاهد والغائب يشتركان في الجوهر، فكلاهما ذبذبات، والشيء بطبيعة الحال منجذب إلى نظيره. وهذا الأخير هو فحوى قانون الجذب، ولذا جعلت هذه المرأةُ الباطنية قانون الجذب شكلاً من أشكال الكارما كما تقدم؛ وهو كذلك بالفعل؛ فأنت من يحدد حياتك الأخرى بما تفكر فيه في حياتك الحاضرة.

ثم تقسّم «بيزنت» مكونات قانون الكارما إلى ثلاثة عناصر:

«(١) أن الفكرة هي القوة التي تبني الشخصية؛ فكما تُفكِّر تكون.

(٢) أن المحرك الذي نسميه رغبة أو إرادة يشدك إلى ما

(1) Annie Besant, Popular Lectures on Theosophy, 2nd Edition (India: The Theosophist Office, 1912), p. 100.
(2) Annie Besant, Karma (The Theosophical Publishing House, 1895, [3rd Ed, 1905]), p. 11.
(3) Popular Lectures on Theosophy, p. 104.
(4) Popular Lectures on Theosophy, p. 106.

ترغب، فتصيرُ مُلزَماً بالذهاب إلى حيث يكون المرغوب، وحيث تُشبع تلك الرغبة.

(٣) أن أثر سلوكك على الآخرين والتسببَ في سعادتهم أو شقائهم، يجلب لك في المقابل سعادةً أو شقاءً»[١].

ومن قرأ كتاب السر The Secret للباطنية «روندا بيرن» Rhonda Byrne، أدرك أنه اجترار للوثنية التي صرحت بها «آني بيزنت» قبل مائة عام، وأن العنصرين الأولين اللذين ذكرَتهما «بيزنت» أعلاه هما خلاصة كتاب السر وكتب قانون الجذب.

تقول «روندا بيرن» في كتابها «السر» الذي هو قانون الجذب:

«من خلال هذا القانون الأشد فاعلية تتحول أفكارك إلى وقائع ملموسة! قل هذا لنفسك ودعه يتسرب ويتغلغل في وعيك وإدراكك. أفكارك تتحول إلى وقائع ملموسة». بل إنها تنقل عن أحد الباطنيين قوله: «كل الأشياء التي تحيط بك الآن في حياتك، بما في ذلك الأمور التي تشتكي منها؛ أنت المسؤول عن اجتذابها، وأنا أعلم أنه للوهلة الأولى سيبدو لك هذا شيئاً تكره سماعه، وسوف تقول على الفور: «إنني لم أجذب حادث السيارة. لم أجتذب هذا العميل الذي قضيت معه وقتاً عصيباً، وبالطبع لم أجتذب الديون»، وأنا هنا لأقول لك بكل وضوح وثقة: بلى، لقد جذبت كل هذه الأشياء إليك»[٢].

باختصار: «إن السر يعني أننا الخالقون لكوننا، وأن كل أمنية نبتغي خلقها ستتجلى في حياتنا»[٣].

أما صلاح الراشد – وهو من أكبر المروجين لهذه الممارسة في العالم العربي – فيقول في كتابه «قانون الجذب»: «كن رقيقاً لطيفاً في مداعبة القدر، تودد له، إن القدر يتفاعل مع العقل على المستوى العالي»[٤]. ويقول أيضاً: «فكِّر في شخص بأستراليا أو بالأرجنتين الآن، فإن طاقتك تصل له، طبعاً هذا الموضوع خطير لأن التفكير السلبي هذا ينقل أثراً سلبياً كذلك، فمثلاً مريض يفكر فيك قد ينقل لك التعب والضعف...»[٥].

وهو يصرح بما ذكرته «بيزنت» في كتاباتها من وجود ذبذبات مشتركة بين الفكرة والواقع أو بين السبب والمسبب؛ فالإنسان – وفقاً لكتابه «قانون الجذب» – يرسل ذبذبات عالية أو منخفضة وفق مشاعره تؤثر فيما يُقدَّر له، فلو «أن شخصاً حافظ على ذبذبات عالية دائماً، فإن ذلك الشخص سوف لن تأتيه إلا أحداث إيجابية أو أحداث تقود إلى نتائج إيجابية أكبر»[٦]!

ومع كل هذه الترهات يقول لك: «من المهم أن تقتنع بفلسفة وأدلة قانون الجذب وجديته، وإلا سوف لن يعمل معك وفق ما تريد»[٧].

بل بلغت به الجرأة أن يقول في خاتمة كتابه: «طبعاً لو لم تشتر هذا الإصدار وحصلت عليه بطريقة غير شرعية أو من الإنترنت أو من النسخ المسروقة أو ما شابه، فقانون الجذب لا يعمل معك»!

لكن الأغرب من هذا كله قوله: «إن المهتمين بالتطوير والجذب هم ثمانية بالألف أي ٠,٨ ٪ أنت أكيد منهم، ومن هؤلاء الثمانية بالألف واحدٌ أدرك عمق هذه المعاني وأنا أريد أن أصل إليه، فلو كنت تعتقد أنك هو ذلك الشخص وأنك أصلاً لا تحتاج إلى شيء، فاكتب لي لعلنا نستطيع أن نشركك في أحد مشاريعنا. المهم ألا يكون لك هدف سياسي أو دعوي أو تنصيري أو تغيير في البشرية أو إصلاح الدنيا أو ما شابه، فأنت لست مهتماً في ذلك ولا يشدني ذلك، هناك مؤسسات يعملون وبإخلاص في ذلك»[٨].

فقانون الجذب في الحقيقة ليس للجميع، فإنه لا يدرك كُنهه إلا واحد بالألف؛ وهذا الواحد الذي يسعى الراشد إلى الوصول إليه يجب ألا يكون من الدعاة أو المصلحين أو من يسعى إلى التغيير، فهذه الأمور ينبغي ألا تشغله، فهو من الخصوص. فبم ينبغي أن ينشغل إذن؟ أقول: أن يكون عضواً في دائرة ضيقة جداً لمروجي ضلالات الباطنية في العالم العربي. وليس هذا موضع الرد على ضلالات الرجل، وإنما الحديث عن الفكرة التي يسعى لنشرها في أوساط الشباب المسلم. فانظر كيف يلبس أمثال هؤلاء على الناس إيمانهم بالقدر!

إن حقيقة قانون الجذب لا تختلف عن الكارما الهندوسية كما صرحت بذلك «آني بيزنت» قبل قرن من الزمان؛ وبما أن

(1) Popular Lectures on Theosophy, p. 107.

(٢) السر، ص ٢٧ – ٢٨.

(٣) أنصح بالرجوع إلى كتاب «خرافة السر» لعبد الله العجيري، ففيه رد مفصل على كتاب السر.

(٤) صلاح الراشد، قانون الجذب (شركة فرانشايز الراشد، ٢٠٠٩)، ص ٩٧.

(٥) قانون الجذب، ص ٣١.

(٦) قانون الجذب، ص ١٠٣.

(٧) قانون الجذب، ص ٣٢.

(٨) قانون الجذب، ص ٣١.

تلك الملة الوثنية لا تؤمن باليوم الآخر، فإنها تجعل عذاب النفس ونعيمهـــا أمرين حاصلين في الدنيـــا مترتبين على صلاح المرء أو فســـاده؛ وهذا المعنى هو ما يقوم عليه قانون الجذب من أن الإنسان يتصرف في قدره فيحصد ما يزرع في دنياه من سعادة أو شقاء؛ بل هو ما يقوم عليه معتقد تناسخ الأرواح.

لكن «روندا بيرن» في كتابها الأخير «السِّحر» The Magic – الذي هو في جملته إعادة صياغة لكتابها «الســـر» –، تميط اللثام عن حقيقة معتقدها الباطني الوثني الذي يحاول الراشد وغيره أن يؤســـلموه. فهي تتحدث في هذا الكتاب عن الشـــكر (أو الامتنـــان) gratitude باعتباره تابعاً للقانون الكلي الكوني «قانون الجذب»، مستدلة بقول الله عز وجل: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَـكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ [إبراهيم: ٧]. وتؤكد ثانية ما ذكرَتْه في كتاب الســـر مـــن أن قانون الجذب «يتحكم فـــي طاقة الكون الذي نعيش فيه، مـــن تكوين الذرة إلى حركة الكواكب... فبســـبب قانون الجذب تتماســـك خلايا الكائنات الحية، وجواهرُ كل الماديات»[1]. وعليه؛ فلو كنت ممتناً لحصول نعمة ما، فإن هذه النعمة تدوم؛ ليس لأن الله وعد بذلك، بل لأن الأمر سنة طبيعية كونية لا تتخلف.. هي سنة «قانون الجذب».

لكن كيف يكون «الشكر» على طريقة هذه الكاتبة الباطنية؟ إنها تطرح في كتاب «السِّحر» برنامجاً طويلاً يستمر ٢٦ يوماً. ولا يمكن اســـتعراضه كاملاً في هذه العجالة، لكنني سأكتفي بالحديث عن بعض ممارساته. ففي اليوم الأول: حاول أن تتذكر وأن تُعـــدِّد النعم التي تَنعمُ بِها في يومك. وفي اليوم الثاني وهو المهم هنا: قلِّبْ في حديقتك عن حجر – تُســـميه هي «الحجر السِّحري» The Magic Rock – ثم ضَعه في مكان ظاهر في حجرتـــك حيث تراه قبل أن تخلد إلى النوم. «وقبل أن تنام ضع حَجرك الســـحري في راحة كفك وشُدَّ عليه أناملَك، وتذكر ما حصـــل من الخير في يومك، وتخير أفضل ما أنت ممتن لأجله ممـــا حدث لك، ثم قل الكلمة الســـحرية: شـــكراً لك! ثم أعد الحجر السحري إلى مكانه عند سريرك»[2].

فهذا الحجر – أو الصنم – الذي ينبغي أن تضعه في مكان ظاهر في حجرتك، هو ما تتجه إليه بالشـــكر على ما أنعم الله به عليك من سابغ النعم في يومك! فكيف يا تُرى سيؤسلِم شيوخ قانون الجذب هذه الممارسة؛ هل سيعودون بنا إلى الحديث عن جواز التوســـل بـ «الصالحين»، ومـــن خالفهم فهو من الوهابية الغلاة؟

لكن «بيرن» لا تترك لأنصارها من العرب ســـبيلاً لأسلمة وثنيتها، فهي تقول في معرض بيانها لممارســـات اليوم الثامن: «بإمكانك أيضاً أن تحاول شـــيئاً أصنعه أنا فيســـاعدني على استشعار الامتنان بشكل أكبر؛ فعندما أقول الكلمات السحرية [شـــكراً لك!] أُحرِّك أناملي فوق طعامي أو شرابي كما لو كنت أنثر غباراً ســـحرياً، وأتخيل أن الغبار الســـحري يطهر كل ما يمسه فوراً»[3]. أي كما يصنع الســـحرة والمشعوذون. فهل هذا عند شيوخ قانون الجذب من قبيل الرُّقَى الشرعية؟!

هـذا القانـون الوثنـي غيضٌ مـن فيض مـن عقائد وفـدت مؤخراً علـى بلاد المسـلمين فتهافتـوا عليها دون رَويَّـة. ولـو قيـل لأحدهم: هـذِّبْ عقائـد الهنادكـة وخُذ منهـا النافـع، لتغيـر وجهـه واسـتعاذ بالله من الشِّـرك وأهله. لكنها لما ارتحلَت غرباً فجاءت باسم استراتيجيات التفكيـر وتطويـر الـذات تقبَّلَهـا بعقله وقلبـه وأضحى ينافـح عنهـا. ولا أدري مـا الذي بقي مما لـم يفِد علينا من عقائد المشرق بعد أن مورس قانون الجذب، واعتُقدت عقيـدة الكارما، ولُبس سـوار الطاقة، بـل أصبح البعض يسـير علـى الجمـر!! فهـل بقـي أن نـرى هـؤلاء يومـاً يغتسـلون في نهر الغانج طلباً لتطهير أرواحهم، أم أنهم سيشـيرون علينـا بالاكتفاء بمـاء زمزم؟ نعـوذ بالله من الحور بعد الكور.

(1) Rhonda Byrne, The Magic (Atria Books, 2012), p. 6.
(2) The Magic, p. 38.
(3) The Magic, p. 91.

موازنة الخطيب

د. إبراهيم بن محمد الحقيل

تطلق الموازنة على المعادلة، والميزان هو العدل، والمراد أن يوازن الخطيب في أموره المتعلقة بالخطبة بحيث لا يطغى في جانب على آخر؛ فإن طرفي الشيء مذمومان، والخيار الوسط، وهو الميزان، وهو المراد بهذه المقالة؛ لأن الخطيب قدوة للناس، ويتحدث إليهم، ويستمعون إليه، والأصل أنهم ينتفعون بخطابه إليهم، ويطبقون ما يقوله لهم، وفقدان الخطيب للموازنة في خطبته يأتي أثره على المستمعين له فيضرهم وهو يريد نفعهم.

والمتلقون للخطبة على نوعين: نوع يدرك نزوع الخطيب إلى طرف دون آخر فيما حقه الموازنة فينصرف عنه ولا ينتفع بخطبته؛ ونوع لا يدرك ذلك فيتضرر من تلقيه عن الخطيب ما قال. وما يقع من التفلت من الدين أو الغلو فيه، أو التكفير والإرجاء، فالأسلوب الخطابي سبب من أسبابه.

ومجالات الموازنة فيما يتعلق بالخطبة كثيرة جداً أذكر ما يحضرني منها في هذه الأسطر:

الأول:

الموازنة في اختيار الموضوعات، فلا يغلِّب أبواباً على أخرى بلا مسوغ يسوغ ذلك، ولاستمرار الخطيب في الحديث عن موضوعات وإهمال أخرى أسباب لعل أهمها:

١- أن الخطيب يتقن الحديث في الموضوعات التي يتحدث فيها؛ لأنها مجال تخصصه أو له عناية بها، كالذين يتخصصون في السيرة أو في التفسير فينقلون هذا التخصص إلى خطبة الجمعة فلا يخرجون فيها عن تخصصهم.

٢- ميله إلى هذه الموضوعات، ومحبته لها، والخطبة ينبغي في اختيارها تلمس حاجات الناس؛ لأنها شرعت لنفعهم، ولا ينظر إلى ما يميل هو إليه.

٣- عـــدم قـــدرة الخطيب علـــى تجاوز الموضوعـــات التي تخصص فيها؛ لضعفه في غيرها.

ولتحقيـــق الموازنة يجـــب أن يتجرد الخطيب فـــي اختيار الخطبة، ويتلمس حاجة النـــاس، وينمي النقص الذي عنده في بعض الجوانب بالقراءة والســـؤال والبحث حتى يكون موسوعي المعارف.

الثاني :

الموازنة في طول الخطبة وقصرها، وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وســـلم قال: «إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ، وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا» أخرجه مسلم.

لكن النبي صلى الله عليه وســـلم لم يحـــدد مقداراً للقصر والطول مع قدرته على ذلك، وتوفر الداعي له، والظاهر - والله أعلم - أن تـــرك التحديد كان مقصـــوداً؛ ليكون لدى الخطيب مســـاحة للاجتهاد في ذلك؛ ولأن الموضوعات تختلف من حيث أهميتها، وقد أفردت لهذا الموضوع مقالة مستقلة منشورة بعنوان (خطبة الجمعة بين الإطالة والإقصار).

الثالث :

الموازنة في التعامل مـــع النصوص من حيث الكثرة والقلة؛ فبعض الخطب تحشى بالنصوص وليس فيها استنباط ولا تعليق علـــى النصوص، وأحياناً يملأ الخطيـــب خطبته بالآيات ويترك الأحاديـــث أو العكس، مع أنه يجد فيما ترك نصوصاً ربما تكون أدل على مراده مما حشد، وهنا ينبغي للخطيب أن يلاحظ أموراً ثلاثة:

١- تنويـــع النصوص، فيأتي بآيات وأحاديث، فالتنويع يطرد الملـــل، ويشـــد الســـامع، وإذا كان في النص قصة لها مســـاس بموضوعه قدمه على ما لا قصة فيه.

٢- أن يحســـن الانتقاء منها إن كانت كثيرة فيختار منها ما يكون أكثر دلالة على موضوعه.

٣- أن يختار مـــا يكون أكثر وضوحاً بحيـــث لا يحتاج إلى تفسير وشرح.

الرابع :

الموازنـــة في الاســـتنباط مـــن النصوص فـــلا يتكلف في الاســـتنباط؛ فالتكلف يـــؤدي إلى الخطأ وتحميـــل النص ما لا يحتمل. ولا يهمله تماماً؛ فإهمال الاستنباط يجعل الخطبة باردة علميـــاً، ومن المصلين من هو في مصـــاف العلماء أو طلبة العلم فيستفيدون من الاستنباطات الصحيحة.

وقد يجمـــع الخطيب نصوص خطبته ثم يكتشـــف أنها لا تدل على ما أراد، فلا يجد نصاً يخدمه في موضوعه، فلا يلوي معاني النصوص لتوافق مـــراده بل يغير الموضوع ولو كان مهماً؛ لأن العبرة كما هي بأهمية الموضوع فهي كذلك بصحة الاستدلال له، ويرجئ موضوعه الذي أراده إلى أن يجد نصوصاً تخدمه.

الخامس :

الموازنـــة في تخريـــج الأحاديث والآثار، فـــلا يهمل راوي الحديث ومخرجه، لا ســـيما في الأحاديث والآثار التي لا تطرق الآذان كثيراً؛ فإن من المســـتمعين من يســـتفيد من ذلك، كما أن ذكرهما يبعـــث على الثقة بالخطيـــب، والطمأنينة لما يلقيه في خطبته.

كذلك لا يحسن بالخطيب أن يجعل خطبته ميداناً للتخريج وذكر العلل ونحوها - وقد يقع ذلك ممن يحبون صنعة الحديث أو تخصصوا فيها -؛ لأن ذلك يقطع الخطبة وينقلها من موضوعها الأساس إلى الحديث أو الأثر الذي ذكره الخطيب، إلا في حالات الاستثناء، كما لو كان موضوع الخطبة في حديث اغتر الناس به وهو ضعيف، فاضطر الخطيب لبيان علته، ويحسن به أن يجمل ولا يفصل؛ لأن المستمعين إليه ليسوا طلاب حديث، فيقول مثلاً: وهذا الحديث الذي يســـتدل به بعض النـــاس حكم عليه الأئمة بكذا، ويذكر عدداً منهم دون الخوض في تفاصيل الإسناد.

وأذكر قبل أكثر من خمس عشـــرة سنة خطب خطيب بفتوى العلامة الألباني - رحمه الله تعالى - في تحريم صوم الســـبت إلا في الفريضة، فأحدث بلبلة عند الناس في عاشوراء لما وافق الســـبت، فانبرى بعض الخطباء لبيان ضعف الحديث الوارد في ذلك، وســـاق أسانيده وعلله في الخطبة، فلم ينتفع أكثر المصلين بالخطبة؛ لأنها انقلبت إلى درس في الحديث وعلله لا يفهمه إلا من تخصص في الحديث وعلومه، وكان الأولى بيان فضل صيام عاشـــوراء، وبيان ضعف حديث تحريم صوم السبت، وذكر أقوال عدد من علماء الحديث المتقدمين والمعاصرين ممن ضعفوه دون الخوض في التفصيلات الإسنادية.

السادس :

الموازنة فـــي الموعظة فيخاطب العقل والعواطف؛ وذلك في اختيـــار موضوع الخطبة وفي معالجتهـــا، فبعض الخطباء تزيد عنده العاطفة فلا يخطب إلا في الرقائق، ويهمل الأبواب الأخرى مع حاجة المصلين إليها.

وأيضاً في موضوع الرقائق يكون متوازناً فلا يوغل في الترقيق حتى يأتي بالغريب والمنكر من الأخبار والقصص، ولا يكون جافاً فيجعل خطبته وهي في الترقيق خالية مما يرقق القلوب.

ويتوازن في أسلوب العرض أيضاً فلا يتكلف الخشوع والبكاء تكلفاً ممجوجاً، ولا يكون بارداً في عرض خطبته وكأنه يقرأ جريدة.

ويكون متوازناً في جوانب الوعظ فيأتي بالشيء وما يقابله، كالترغيب والترهيب، والرجاء والخوف، والمغفرة والعذاب؛ فبعض الخطباء يكون التخويف ديدنه فلا يخطب إلا عن الموت وعذاب القبر وشدة الحساب والنار وما فيها من النكال، ويكون غيره بعكسه فلا يخطب إلا في الترغيب والجنة وما فيها من النعيم، فهذا يؤدي بالمصلين إلى الغرور، والتساهل في المعاصي، والأول يؤدي بهم إلى القنوط من رحمة الله تعالى.

السابع:

الموازنة في قبول القصص وعرضها، فلا يعرض عما فيه عبرة وعظة من القصص الثابتة الصحيحة، سواء كانت في السنة النبوية أم أخبار السلف أم كتب التاريخ أم من الواقع المعاصر أم حادثة وقعت وشهدها أو علم عنها وفيها عبرة.

وأيضاً لا يكون متساهلاً في قبول كل قصة سمعها أو قرأها؛ فإن كثيراً من منقول القصص لا يصح، وأحياناً يكون منكر المعنى، بل لو صحت القصة وكان فيها غرابة لكان من الأليق أن لا يعرضها لئلا يُكذَّب وتهدر خطبته كلها بسبب قصة فيها صحيحة لكنها غريبة قد لا يصدقها الناس لغرابتها. وإذا كثر هذا من الخطيب افتقد ثقة الناس فيما يقول، وكان حاله كحال القُصاص والإخباريين.

وفي عرضه للقصة يكون متوازناً أيضاً فلا يجزم بوقوعها وهو لم يقف عليها، فقد يأتي بعد ذلك ما يدل على عدم صحتها، فيفقد الخطيب مصداقيته، بل يقول: نقل كذا إن صح، أو سمع الناس بكذا إن صح، ثم يوردها.

الثامن:

الموازنة في تناول النوازل، وتشخيصها، وفي شحن عواطف الناس تجاهها؛ فلا يعرض عن النوازل مهما عظمت فتكون خطبته في واد والناس في واد آخر؛ فإن الناس إذا نزلت نازلة جاؤوا إلى الجمعة وهم ينتظرون من الخطيب الحديث عنها.

ولا يجعل كل حادثة ولو صغرت نازلة، فيكون دائم الحديث عن النوازل ويهمل الموضوعات الأخرى.

ويوازن في تشخيص النازلة فلا يهولها ويعطيها أكبر من حجمها، ولا يصغرها وهي كبيرة.

التاسع:

الموازنة في عرض قضايا الأمة، فلا يهملها بالكلية ويغرق في المحلية فيبتر المصلين معه عن إخوانهم في مشارق الأرض ومغاربها؛ فإن خطبة الجمعة من الميادين المهمة لترسيخ الولاء والبراء، ومن أساليب ذلك إظهار الاهتمام بمآسي المسلمين، وبيان ما يجب علينا تجاه إخواننا.

ولا يكون دأبه الحديث عن أحوال المسلمين في الشرق والغرب، ويهمل قضايا مجتمعه ومدينته وحارته ومسجده؛ فالأقربون أولى بالمعروف، وواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه.

وفي عرض مآسي المسلمين، ومكر الكفار والمنافقين، يوازن بين الفأل واليأس؛ فلا يزيد في الفأل حتى يجعل المصلين يتكلون عليه ولا يعملون شيئاً لدينهم ومجتمعهم وأمتهم، ولا ييأسهم من النصر والتمكين ويبالغ في غلبة الكفار والمنافقين ومكرهم بأمة الإسلام؛ فإن اليأس يؤدي إلى الإحباط وترك العمل، ولربما أدى إلى الانحراف وانقلاب المنهج. ومن الناس من إذا تحدث عن الغرب ومؤامراته وقدراته العسكرية والتقنية وخبراته السياسية والفكرية، أشبع السامعين باليأس من مقاومته، بل التغلب عليه، حتى ليخيل إليه أن ما يجري من أحداث سياسية واقتصادية لا يخرج عن مؤامرة محبوكة لن ينجو منها أحد، ويغفل عن سنن التدافع، ومكر الله تعالى بمن يمكر بأهل دينه من الكفار والمنافقين.

العاشر:

الموازنة في نقل مقولات المفكرين، سواء كانوا من المسلمين أم من الكفار، فقد يكون الخطيب شغوفاً بالفكر والثقافة فيحشو خطبته بما يحب، ويهمل ما هو أولى وأهم من نصوص الكتاب والسنة. فمثلاً في قضايا تحرير المرأة يوجد نصوص كثيرة لحفظ المرأة وصيانتها وتعظيم شأن العرض في الإسلام، فلا يترك ذلك لينقل أقوال المفكرين الغربيين في معاناة المجتمع الغربي من التحلل والتفسخ، وما جره تحرير المرأة من فساد وإجرام.

وأيضاً لا يترك أقوال المفكرين؛ لأن من المصلين من يكون ضعيف الإيمان لا يستسلم بالكامل للنصوص ويكون معجباً بالغربيين، فيزيل النقل عن هؤلاء المفكرين الغربيين كثيراً مما في نفسه من قناعات غير صحيحة، أو على الأقل يزعزعها ويشككه فيها. وهي أيضاً تزيد من طمأنينة المؤمن بما عنده من الحق؛ فإن تجارب الأمم الأخرى إذا وافقت ما جاءت به النصوص زاد رسوخ النصوص في قلوب المؤمنين ويقينهم بها.

الحادي عشر :

الموازنـــة في إلقاء الخطبة بحيث يلقيها بما يناســـب صوته والأجهزة التي في مسجده؛ فبعض الناس يكون جهوري الصوت، ولديه مكبرات صوت قوية، فتكون الخطبة مزعجة للســـامعين، مما يفوت استفادتهم منها. وقد يكون الخطيب ضعيف الصوت وأجهزة الصوت في مســـجده ضعيفة فلا يكاد السامع يتبين ما يقول إلا بتركيز شديد، وهذا يجهد السامع مما يجعله ينصرف عـــن الخطبة. وعلى الخطيب لمعرفة ذلك أن يســـأل مصلين قد توزعوا في أرجاء المســـجد عن ميمنته وميســـرته وفي مقدمة المســـجد ووسطه وآخره، أو يطلب من معارفه أن يصلوا في هذه الأماكن المتفرقة ويخبروه عن ســـماع الصـــوت ووضوحه وعدم الانزعاج به.

الثاني عشر :

الموازنة في عرض المسائل الفقهية، فلا يقلب خطبته دروساً في الفقه، ولا يوغل في تفصيل ما لا يفهمه الناس من مصطلحات الفقه وأصوله، ولا يهمل جوانب الفقه بحجة أن الخطبة ليســـت درســـاً فقهياً؛ فإن الناس يحتاجون إلـــى العلم بأحكام عباداتهم ومعاملاتهم، وإذا نزلت نازلة فقهية كالتأمين والأسهم ونحو ذلك انتظروا من الخطباء تناولاً لهذه النـــوازل، فيتناولها بما يفهمه الناس، ويبســـطها لهم قدر المستطاع، ويعرض عما لا يفهمه إلا أهل التخصص.

الثالث عشر :

الموازنة في لغة الخطبة وبلاغتها، فلا تكون عباراتها وجملها ســـوقية مبتذلة كأنه يتحدث إلى عوام في مجلس ســـمر. وأرى أن يبتعـــد الخطيب عن العبارات العامية، واللهجات المحلية، ولو كانت مؤثرة في الناس؛ لأن لخطبة الجمعة قدســـيتها ومكانتها فلا تبتذل إلى هـــذا الحد، ثم إنه يطلب من الخطيب أن يرتقي بالناس في اللغة والخطاب ولا يسفل بالخطبة لأجلهم.

وكذلك لا يقصد العبـــارات الغريبة وتركيب الجمل المتكلفة فيحشـــو خطبته بها؛ فإن بعـــض الخطباء لا يفهـــم عنه حتى المتخصصـــون، وكأنه جعل الخطبة ميداناً لإبراز تفوقه في اللغة والبلاغة، فيستخرج عبارات خطبته من المعاجم، والمعاجم اللغوية يرجع إليها فيما أشـــكل على الخطيب من الألفاظ، ولا يصح أن يتخذها الخطيب مرجعاً في صنع خطبته، وإلا كان من المتكلفين.

الرابع عشر :

الموازنة في شـــخصية الخطيب وتعاملـــه مع غيره، فلا هو ضعيف مستباح، ولا صارم يخاف ويهاب، وبعض الخطباء يكون شـــديداً صارماً عبوساً لا يتعامل مع أحد من المصلين إلا بحذر، ولا يتحـــدث معهم إلا بوقار متكلف، وهذا النوع ينفر الناس منه، ويظنون فيه التكبر والتعالـــي ولو كان متواضعاً، فلا يفتحون له صدورهـــم، ولا يفضون له بما في قلوبهم، بل قد لا يقبلون على خطبته فيمتثلون ما فيها؛ لأنه صنع حواجز بينهم وبين قبولها.

وبعض الخطباء يكون على العكس من ذلك؛ فيتبذل لكل أحد حتـــى تداس هيبته، ومن الناس من يقصد الإدلال على الخطيب لإثبـــات أن له به خصوصية، ومـــن المصلين من يريد فرض رأيه حتى في موضوع الخطبة، ولا يحسن بالخطيب أن ينساق خلف أحد، أو يضعف أمامه، وإن رأى جماعة مســـجده أن فيه مطمعاً أتعبوه وأتعبهم؛ لاختلاف رغباتهم، وانقياده خلف بعضهم يغضب غيرهم.

الخامس عشر :

الموازنـــة في التعقيب على الخطبة؛ فلا يرد على أي تعقيب، ولا يســـلم لكل متعقب؛ فبعض الخطبـــاء لا يقبل النقد ولو كان هادفـــاً، ولا يعترف بالخطأ ولو كان واضحاً، وهذا كبر عن قبول الحق.

وعكســـه من يقبل أي تعقيب ولو كان خطأ، أو كان صاحب التعقيب لم يفهم الخطبة، لكنه يجامله لئلا يخسره، وهذا أيضاً خطأ. والموازنة أن يستمع الخطيب إلى تعقيبات المتعقبين، فيقر بصواب من أصاب ويشـــكره على ذلك، ويرد على المخطئ خطأه بأسلوب مناسب.

السادس عشر :

الموازنة في لبس الخطيب؛ فبعض الخطباء يكون متكلفاً في ألبسته، ويبحث عن غريب اللباس وغريب الألوان، وهذا يخشى أن يدخل في لباس الشـــهرة المنهي عنه، وهـــذه الطريقة تضع حاجزاً بين الخطيب والناس؛ لأنهم يحســـون أن الخطيب يريد التميز عليهم في لبسه فينفرون منه، والقلوب تتأثر بما لا يخطر على البال مما يستهان به ويحتقر.

ولا يكون متبذلاً في لبســـه وهيئته كأنـــه قبل صعوده على المنبر كان مع الغنم يرعاها، أو جاء من الســـوق يبيع ويشـــتري، متعللاً بأن التواضع في الصورة واللبس دليل على تواضع القلب، وهذا غير صحيح؛ فقد يكون متكبـــراً ولو كان متبذلاً. والتبذل في الجمعة يخالف سنتها في الاغتسال والتجمل والتطيب، وهو يدل على الإخلال بها.

السابع عشر:

الموازنة في إنكار المنكرات؛ فلا تكون خطبه كلها في المنكرات وإنكارها ويترك جوانب العقيدة والعبادة والسلوك والسيرة وما يحتاج الناس إلى العلم به، ولا يهمل الكلام عن المنكرات فلا يأتي عليها أبداً، لا سيما المنكرات المستجدة أو المتجددة؛ فإن الناس بحاجة إلى تحذيرهم منها.

وفي إنكار المنكر يكون متوازناً، فلا يزيد على حقيقته ويهوله ويصوره تصويراً أكبر من حجمه الصحيح ليشحن عواطف الناس ضد المنكر وأهله، ويحظى بتأييدهم للمحتسبين على المنكرات، ولا يهون من شأنه ويستصغره بحيث يعرض له وكأنه يروج له أو يهون من إنكار الناس له، فيفت في عضد إخوانه المحتسبين ويكون عوناً لأهل المنكرات.

ويتوازن في تصوير ما في المجتمع من منكرات، فلا ينزع الخيرية من الناس؛ فإن من قال هلك الناس فهو أهلكهم، كما في الحديث، ولا يزال الخير في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فهي أمة تضعف ولا تنتهي، وتغفل ولا تموت، ودلّت دلائل التاريخ على أنها أمة قد تطول غفلتها لكنها إذا استيقظت استعادت ريادتها بسرعة لا يتصورها الأعداء، ولا يقدر على مثلها غيرها.

وفي المقابل لا يوغل في تزكية المجتمعات ونفي ما فيها من المنكرات وانتهاك الحرمات، وادعاء أن مجتمعه أحسن من غيره، فيجعل الواقع بوصلته ويحتكم إليه؛ فإن هذه خصلة إرجائية مذمومة؛ إذ الواجب أن يجعل بوصلته شريعة الإسلام لا واقع المجتمعات الأخرى، ويحاكم مجتمعه بعداً عنها أو قرباً منها بحسب ما يعمل فيه بالشريعة وما ينتهك منها.

الثامن عشر:

الموازنة في الاستفادة من الوسائل الحديثة للإعلام والاتصال وتناقل المعلومات، فلا يعتمد عليها اعتماداً كلياً بحيث تكون هي مصادر خطبته؛ فإنها مصادر في متناول الجميع، بمعنى أن العامة مطّلعون عليها، ويقرؤون ما فيها أو يسمعونه، والخطيب إذا أتى بشيء معروف للعوام أزرى بنفسه عندهم، ولم ينتفعوا بخطبته. وأيضاً هي مصادر غير مأمونة، فقد ينقل منها أثراً أو خبراً أو قصة ويكون ما نقل غير صحيح، والخطيب ينبغي له أن يؤصل للموضوعات التي يتناولها في خطبته، ويستدل لها بالصحيح، ولا يتأتى ذلك إلا بالرجوع للمصادر الموثوقة المأمونة.

التاسع عشر:

الموازنة في خطابه للناس بين فئات المجتمع المختلفة؛ ففيهم الشيب والشباب، والرجال والنساء، والمتعلم والأمي، ثم المتعلمون درجات؛ ففيهم العالم وطالب العلم والأكاديمي والمثقف والعامي، وخطبته لجميع هؤلاء؛ فيجب أن يراعيهم في اختيار الموضوعات ومعالجتها.

والمساجد تختلف مواقعها وروادها؛ فمساجد المدن الكبيرة غير مساجد القرى والهجر، والمساجد التي في الجامعات والقريبة منها ليست كغيرها؛ فأكثر مصليها من أصحاب المؤهلات العليا في التعليم، والخطيب أدرى بنوعية جماعته، وعليه أن يسير فيهم بأكثريتهم، ولا يهمل الأقلية بأجزاء من الخطبة، أو بخطب خاصة لكنها لا تكون كثيرة، وإلا أهدر حق الأكثرية.

العشرون:

الموازنة في الصدع بالحق بين التهور والمداهنة؛ فقد يطلب من الخطيب قول الباطل، فإما أن ينكر في غير محل الإنكار ويحدث فتنة في الناس بتجييشهم ضد من هو أقوى منهم، ثم إذا خذلوه وابتلي افتتن فانقلب على الحق وسوغ الباطل؛ وإما أن يبحث عن أي مسوغ للباطل مع علمه ببطلانه فيشرعه للناس بأدلة وتعليلات باردة؛ ليخرج نفسه من مأزقها، أو لينال منفعة عاجلة؛ فينال سخط الله تعالى، ويسقط من أعين الناس.

والموازنة في هذا أن يداري أهل الباطل ما استطاع ولا يداهنهم فيحل ما حرم الله تعالى. وقد يطلب منه قول حق مشوب بباطل فيقول الحق بأدلته ويتحايل على الباطل فلا ينطق به. والسكوت عن حق لا يستطيع أن يصدع به خير من تسويغ الباطل، وخير من إذلال نفسه بتحمله بلاء لا يطيقه، ثم تكون العاقبة أن يعتذر ويذل نفسه، وربما انقلب على منهجه كما وقع لبعض الدعاة والخطباء.

الحادي والعشرون:

الموازنة بين ما يطلبه الناس وما يحتاجون إليه؛ فبعض الخطباء يتلمس ما يرغب الناس فيه كموضوعات السياسة والفكر والثقافة، وفي الوعظ يميلون إلى الترغيب أكثر من الترهيب، وينزعون إلى القصص والسير ونحوها أكثر من نزوعهم إلى تصحيح العقائد والعبادات والمعاملات. وعلى الخطيب أن لا ينظر إلى أهواء الناس ورغباتهم إلا فيما تظهر له حاجة لتناوله؛ فإن قصد الخطيب رضا الله تعالى لا رضا الناس وجمعهم في مسجده، والخطبة شرعت لإصلاح الناس لا لترفهم وموافقة أهوائهم.

وبعض الخطباء يخالف مطالب الناس ولو كانت مما يحتاجون إليه؛ إما لفرض شخصيته عليهم، وإما لبعده عنهم، وإما لضعفه في معالجة ما طلبوا، وإما لخوفه الزائد من تناول بعض الموضوعات التي يحتاجون إليها كالنوازل ونحوها. والموازنة هنا أن يراقب الله تعالى ولا يراقب الخلق، وأن ينظر فيما يحتاج الناس إليه من موضوعات، سواء وافقت أهواءهم أم خالفتها.

جديدنا

صدر حديثاً

جديد ..

جديد ..

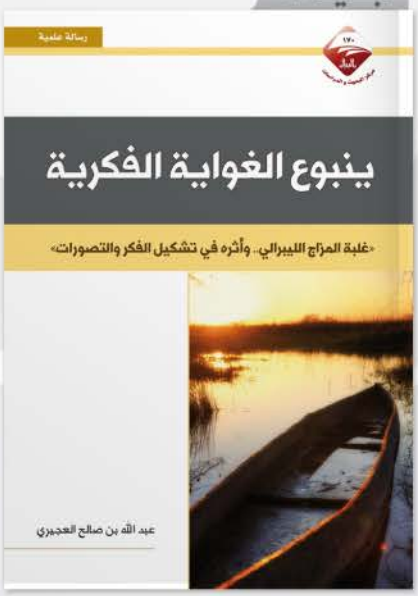

جديد ..

جديد ..

جديد ..

جديد ..

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

التشغيب العلمي

مشاري الشثري

تحدث غير واحد من العلماء عن مقاصد التأليف، وتلاقت أطاريحهم في قصرها على الاختراع، والجمع، والتكميل، والإبانة، والاختصار، والترتيب، والتصويب، فهل فاتهم شيء من مقاصد الكَتَبة؟

إن هذا الحصر لمقاصد المؤلفين ليس تنزيلاً، وبالتالي سأخطو خطوة بهذا الموضوع لأجدد فيه، وأضيف له قسماً ستضم جنباته الكثير من المؤلفات والبحوث التي حارت زمناً حيال ما ذكره المتقدمون من مقاصد، ولم تجد في واحد منها ما يليق أن يكون غطاء لرأسها ووكاء لسقائها.

قبل البَدء:

لكل علم موضوعه، ولكل منهج مقوماته، ولكل فكرة سياقها الذي يمنحها شرعية الوجود، وقد عُني أصحاب العلوم، وبُناة المناهج، وأرباب الفِكَر؛ ببيان جملةٍ من المقررات التي تجعل من منشآتهم منهلاً يستحق الورود، من تحديدٍ للمصادر، وبيانٍ لموضوع البحث وعوارضه، وسدلٍ للقضايا الناظمة له وَفق قواعدَ معيارية تضبط سلامتها وإيصالها لمطلوب الناظر.

وأنت إذا قلَّبت النظر في التراث الإسلامي وجدت «بواعثَ الإحكام» هذه شاخصةً لكل مطالع:

– ففي جانب (المصادر) ترى أنها شغلت حيزاً كبيراً من مدونات العلماء المسلمين، إيجاباً: بذكر مرجعيَّة المنهج المتَّبع وإقامة الدلائل عليه، على نحو ما تجده في كتب أصول الفقه من حجاجٍ لمصدرية الكتاب والسنة وما تفرَّع عنهما؛ وسلباً: بدفع الاعتراضات الموجهة على هذه المرجعية.

– وفي جانب (الموضوع) ترى تمايز العلوم الإسلامية بناء على تحدُّد موضوعاتها واختلاف عوارضها، وليس الأمر مجردَ تشقيق اعتباطي، فموضوع علم أصول الفقه: الأدلة (تحديداً لها، وبياناً لشروط إعمالها، وشرحاً لدلالاتها)، وموضوع علم الحديث: النصُّ النبوي (بحثاً في أحوال النَّقَلة، وبياناً لعلل الإسناد والمتن)، وهلمَّ جرّاً.

– وفي جانب (القضايا الناظمة) تجد كلَّ فرعٍ معلقاً بحبال أصوله، وكلَّ حكم مبنياً على ما يمهِّد سلامته، وَفق معاييرَ محكمةٍ وضعها أهل كل علم، تُحاكم إليها الآراء، وتُنقَد على ساحتها الحجج، ولك أن تطالع مدونات أيِّ علم من العلوم الإسلامية «مقاصدها ووسائلها» لتبصر إحكام المسائل، وترتُّب الحجج، وكثافة المادة النقدية.

نمذجة:

ليس من شـــكٍّ في أهمية الدور الذي تمثله العملية النقدية في إذكاء العلوم تحقيقاً وتحريراً، ولو استعرضنا ما أثمرته هذه العملية من قفزات نوعية في تاريخ العلوم وتمرحلها ونضجها لعلمنا جلالةَ الموقع الذي تحتلُّه.. إنه النقد المولَّد من منظومة معرفية وأسسٍ متماسكة، وليس نقداً لقيطاً لا يفيء إلى بيت يكنُّه.

ولنستعرض لإبراز معلَمَةٍ نقديةٍ عاليةٍ نموذجاً مبكِّراً اســـتحوذ على أدوات البناء والنقـــد، وأعملَها باحترافٍ منقطع النظير حتى كان اســـمه علامة فارقةً في تاريخ علوم أهل الإســـلام، بل شَـــخَصَ بأبصار أهل الثقافات الأخرى إلى التـــراث الذي خلَّفه، وجعل من كتاباته رقماً صعباً في دراساتنا ودراساتهم.. ذلكم هو الإمام الشافعي، ولست بصدد بيان أبعاد مشروعه، وإنما أجتزئ منه بما يمهِّد للفقرة القادمة التي تشكِّل صلب المقالة.

من الممكن إيجاز مشروع الشافعي في عناصرَ تحوم حول قضية «المرجعية»، وهي:

١. تسمية المرجعية وضبطها:

وتمثِّل (الرســـالة) التي بعث بها إلى عبدالرحمن بن مهدي حجر الزاوية في بناء صياغة المرجعية.

٢. تفعيل المرجعية وتجسيد مخرجاتها:

وذلك في ذلك البناء الضخم: (الأم)، فقد استعرض فيه أبواب الفقه وأعمل فيها ما اصطفاه من قواعدَ هداه إليها استقراؤه لمصادر الشريعة.

٣. تحصين المرجعية:

من خلال المقررات التي سعى من خلالها إلى صيانة المرجعية من جهتين: ســـوءِ التوظيف - تســـلُّل الدخيل. وذلك ظاهر في رسالته، وكذا في كتبه الأخرى كـ: (جماع العلم)، (إبطال الاستحسان).

فهذه المعالم في مشـــروع الشـــافعي تمثـــل التكامل المعرفي «المشروط» في سلامةِ النقد وبراءتِه من أن يكون مجردَ عبث وتشغيب، وليس بشـــرط أن يكون الناقد ذا نتاج في الخارج يشـــهد على اســـتحواذه هذه المعالم وما شاكلها، فالشأن أن تكون مستصحبة - ولو في الذهن - في العملية النقدية بشكل يجعل من أحرف النقد منقوطةً بالتحقيق.

ماذا يُقصَد بالتشغيب العلمي؟

«التشغيب» تفعيلٌ من «الشغب»، وهذه المفردة كثيرة التداول على ألســـنة الأخباريين حين حديثهم عن الفتن وتهييج الناس وعبث العسكر، وليســـت ذات حضورٍ في المعجم العلمي، لِمَا أن للعلم - ما دام علماً - منهجاً يدفع بطبيعته أي شـــغب، وحرمةً تحجز العابثين من ورود حماه، لكن غُيِّب المنهج بدثار (المنهج!.. زعموا)، وانتُهِكت حرمة العلم بسيف (العلم!.. زعموا).

وســـأعرض في هـــذه الكتابة بعض الشـــواهد التي تطلع الناظر على حجم الشغب الواقع في الخطاب الفكري المعاصر:

١. الاستلقاء البحثي:

وذلك حين ترى كاتباً يتناول قضية من القضايا الشـــائكة التـــي تحتاج إلى ذراع بحثية مكينة وطول صبر وتأنٍّ في التأمل والتحليل، لكنك ترى بحثاً مخدَّراً متقارب الأجفان، وأبشـــع من ذلك حين ترى كاتبه يشرح لك استلقاءه بنحو قوله: (أنا مؤمن... بأن متابعة التفاصيل الصغيرة، مثل حشـــد مزيد من الشواهد، وتتبع بعض الآثار، والتفتيش عن بعض المراجع وســـوى ذلك، - أحياناً تحتـــاج لتوثيق حديث غريب أو التفتيش عن مصدر أثر إلى أســـبوع! - ستســـتهلك وقتاً طويلاً لست مضطراً لإنفاقه، خاصة في ظل التزامي بعملين «صباحي ومســـائي» يستهلكان نصف يومي) انتهى بعلامات ترقيمـــه، وحقَّ له أن يتعجب من إنفاق أســـبوع لتوثيق أثر، فليس الأثر مطية صالحة لتقرير ما يصبو إليه، حتى لو كان الموضوع فارقاً بين فسطاطين، كالبحث في الديمقراطية.. حُقَّ له ذلك، لا سيما أنه ملتزم بدوامين!

٢. الدعاوى المرسلة:

حاول أن تقلِّب النظر فـــي كتاب من كتب المفكرين العرب، واحمل معك أوراقاً وأقلاماً، وقيِّد كل ما تراه عريّاً عن البرهنة، وأنـــا ضامن لك أن مـــا أدنيته مـــن الأوراق والأقلام لن يفي بمعشـــار ما تجد، لا من جهة تثبيـــت المعلومة وتوثيقها، ولا من جهة توظيفهـــا لمدلوله، فهو يجري في مضمارٍ كان قد رســـم حدوده من قبل، ويســـعى بعد ذلك في نســـج المعطيات العلمية (واللا علمية) لتتواءم مع المضمار الذي حدَّه.

من ذلـــك أن ضغط المفاهيم الغربية التي طالت طائفة من المفكرين (الإســـلاميين) ألجأتهم إلى هدر الحدود الفاصلة بين الرجـــل والمرأة، فأتى أحدهم ووقف شـــاخص البصر مع قول الحق تعالـــى في آية الدين: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّـهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَـا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢].. كيف السبيل إلى تغييب نور هذا التنزيل؟

بحـــث في وعائه عن دعوى، فقـــال ما نصه: (إن الخطاب القرآني كان موجهاً لأقوام كان عندهم تقدير ضئيل - إن وجد - للنساء والذين لم يسمحوا بمشاركتهم في شؤون كانت تعتبر من شـــؤون الرجل، ولذا أرجع الحكم إلى أن المرأة لم تكن وقت نـــزول الآية الكريمة ذات مشـــاركة فاعلة في الحياة العامة، لا سيما ما يتعلق بالقضايا المالية والتجارية، ما جعلها تجهل هذا الميدان).

دعنا نفكك هذه الدعوى قليلاً:

١. حجـم الدعوى: إنها تســـتوعب حقبـــة تاريخية طويلة تحتاج إلى استقصاء للنظر حتى نصل إلى حقيقة المساحة التي كانت تشغلها المرأة في الحقل التجاري، فهل كانت بالفعل كافةَ اليد - أو مكفوفتَها - عن هذا الحقل؟

إن التاريخ يطالعنا بنماذجَ لنســـاء كنَّ ذوات باع في العملية التجارية، وخذ خديجة - رضـــي الله عنها - مثالاً على ذلك، وأمرها وقصتها مع نبينا - عليه الصلاة والســـلام - في ذلك ذائـــع الصيت، وقد كان ذلك قبل البعثة، فما ظنك بوقت تنزل آية الدين الواقعة في ســـورة البقرة التـــي نزلت أواخر العهد المدني؟

٢. مضمـون الدعـوى: إن الأمر الـــذي تناولته الآية ليس متعلقـــاً بمتاهات البورصة وتقلب العملات، ولا بتلك المعاملات التـــي يداخلها الغـــرر والغبن الخفي، ولا بمـــدى حذق العاقد بأجناس المبيعات وتفاوت ما بينها؛ إن الأمر الذي تناولته الآية: شـــهادةٌ على دين مكتوب، وفقط. فـــأي قضايا مالية وتجارية كانت تجهلها المرأة على حد قول صاحبنا؟

الباحث ذاته في ســـياق آخر يروم تغييب شريعة الله في حـــق المرتد من خـــلال ردِّ القول بقتلـــه وإرجاعه إلى الإرث اليهودي، فصرف ما يقرب من عشـــرين ورقة يذكر فيها أن هناك اختراقاً ما للتراث الإســـلامي تســـبب في ضخِّ بعض المفـــردات اليهودية في مدونة أهل الإســـلام، وفي ختم بحثه أشـــار في لمحة خاطفة إلى أن من تلك الأحكام المتسلِّلة قتلَ المرتد.

لماذا حكم المرتد خصوصاً؟ لا ندري.

وما دلائل ذلك؟ لا ندري.

ومتى كان بدء هذا التحريف؟ لا ندري.

تجـــاوز الباحث ذلك كله، ولا حاجة فـــي الواقع إلى إقامة برهان شيء من ذلك، فالأمر مجرد شغب علمي.

٣. التطفيف الأصولي:

أضحى من المألوف أن يكون للعالم قدر من التردد في حكم بعض المســـائل نظراً لتزاحم المرجحات في ذهنه، فربما رأيته آخذاً بقول سبق له نقضه وترجيح خلافه في زمن مضى، وربما كان ذلك في محيط زمنـــي ضيق، لكن أن يكون ذلك في كتاب واحد وبين موضعين لا تفصل بينهما سوى ٧٥ صفحة، دون بيان لرجعة، ولا اعتراض على أيٍّ من الموضعين؛ فالأمر ليس متعلقاً بتعادلٍ ولا ترجيح.

تجـــد ذلك عند أحد الكتاب حـــين تحدث عن آيات الحكم بغير ما أنزل الله في ســـورة المائدة، ولمـــا ذكر أن الآيات نزلت أصالة في حق اليهود بيّن أن القول المحقق عند أهل الأصول أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

لكنه في سياق حديثه عن ولاية المرأة اعترضه حديث: (لن يفلـــح قوم ولوا أمرهم امرأة)، فما كان منه إلا أن قال: (صحيحٌ أن أغلب الأصوليين قالوا: إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. لكن هذا غير مجمع عليه)!

وقريب من هذا التطفيف من يَجِدُّ في حسر تمدد النصوص عن اســـتيعاب نوازل العصر، ويريد قصرها على حال زمنية لا تشـــمل محيط معيشـــته وزمنه، فإذا أتى لحد السرقة قال إن القطع شـــريعة صالحة للصدر الأول - مع أن النص مطلق لم يقيد بزمن معين -، لكنه مع هذه الشـــهوة التاريخية التحقيبية تجده في قضية أتى الإسلام بمرحلة أحكامها كالجهاد، وانتقل بها فـــي نصوص ظاهرة الدلالة من الكـــف للمدافعة فالبداءة بالقتـــال؛ تجده كابحاً جماح شـــهوته، صارفَ النظر عن جميع آيات الجهاد إلا: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، لينســـخ بها جميع المراحل، ويجعلها محكمة مهيمنة على جميع الأزمنة والأمكنة.

وهكذا تجد الفقه التشـــغيبي قابعاً فـــي تيهٍ منهجي، يبني ركام فروعه في أرضٍ جرداء، ثم يصطفي من الأصول ما عسى أن يكون جابراً لذاك الركام المهشَّم.

٤. العَوَر الاستدلالي:

وهذا الشاهد في غاية الطرافة، فليس التنافر فيه كما في الشاهد السابق بين متباعدين، بل بين متقاربين، بل متلاصقين.. كتب أحد المتخصصين في الفقه السياســـي عن حكم الشورى، ورجح إلزاميتها، واستدل لذلك بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (مَنْ بَايَعَ رَجُلاً عَنْ غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَلَا يُبَايَعُ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ تَغِرَّةً أَنْ يُقْتَلَا).

في موطن آخر تحدث عن حد الرجم، وصوَّب نحوه سهامه، وقال: (أغلب أحاديث الرجم لا تخلو من مغمز وعلة في السند أو المتن أو كليهما، وبعض هذه الأحاديث تشتمل على أمور منكرة في الإسلام.. فهذه إشكالات كافية لوقف حد الرجم، درءاً للحد بالشبهة، وصيانة لدم المسلم من الهدر بحجة غير قطعية).

أين الطرافة هنا؟

حين ترى ما استدل به لإلزامية الشورى تجده قطعةً من خطبةٍ لعمر رضي الله عنه مخرجةٍ في صحيح البخاري، وفي ذات الخطبة قرر عمر رضي الله عنه تقريراً جازماً بشرعية حد الرجم، بل صرح بخشيته أن يطول العهد بالناس ويتركوا هذا الحد لعدم ذكره في كتاب الله!

قال رضي الله عنه: (إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّداً ﷺ بِالْحَقِّ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ آيَةَ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، رَجَمَ رَسُولُ الله ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: وَاللهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ الله، فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللهُ، وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ الله حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوِ الاعْتِرَافُ).

فانظر إلى أي حدٍّ يبلغ إلف التشغيب بصاحبه.

٥. اختزال البراهين:

العلم ليس عبارة عن جزر متباعدة، بل هو وشائجُ مترابطةٌ آخذٌ بعضها بزمام بعض، وبإدراك هذه الحقيقة ينبل العالم وتتسع بسطته في العلم، وربما قصر العالم غالب اهتمامه على علم ووزع فضلَ همته على سائر العلوم لإدراك المجزئ منها، غيرَ أن المشغبين افترعوا قسمة ثالثة، فلا هم بسطوا نفوذهم على العلم جملة، ولا على علم معين، بل أشعلوا فتيل مشروعهم كله بدليلٍ أضفوا عليه مسحة الإحكام والظهور والهيمنة، وجعلوا من هذا الدليل باباً شريفاً من العلم لا يعدو الإسلام أن يكون أحدَ فصوله، فكل دليل يخالف (ما فهموه) من دليلهم = ضعيفٌ، أو منسوخٌ، أو ليس بدليل أصلاً.

تجد الواحد منهم في مسائل الجهاد وأهل الذمة والحدود لا يحفظ إلا قوله تعالى: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [**البقرة**: ٢٥٦]، وفي مسائل السياسة الشرعية بتفصيلاتها وتعقيداتها لا يبصر إلا قول النبي ﷺ: (أنتم أعلم بأمور دنياكم)، وفي مسائل الأسماء والصفات لم يحط علمه بغير فهمٍ قاصرٍ لتفسير ابن عباس لآية: (يوم يكشف عن ساق)، وجعل منه بوابة للتأويل قاضياً بذلك على ما تواتر في الوحيين من حسم مادته.. يُجهِض مئات المسائل في سبيل تحويط فهمه لدليله الفَرْد. وهكذا تجد له في كل باب من العلم دليلاً يرى فيه متمسكاً لقوله، ولو من طرف خفي، وقد نبه إلى هذا العبث ووسمه بالشغب في لفتة مبكرة نسيج وحده ابن حزم رحمه الله فقال:

(ولا تأخذ بعض الكلام دون بعض فتفسد المعاني، وأحذرك من شَغْب قومٍ في هذا المكان، إذا ناظروا ضبطوا على آية واحدة أو حديثٍ واحد، وهذا سقوطٌ شديد وجهلٌ مفرط، إذ ليس ما ضبطوا عليه أولى بأن يُتَّخذَ مقدمةً يُرجَع إلى إنتاجها من آيات أخر وأحاديث أخر، وهذا تحكم وسفسطة، فاحذره أيضاً جدّاً)[١].

وقد أحسن الشوكاني – رحمه الله – حين قام بتوصيفٍ دقيقٍ لأهل البدع، وجعل هذا الجنس من التشغيب من صلب طريقتهم، فقال:

(قبَّح الله أهل البدع، وقلَّل عددَهم وأراح منهم، فإنهم أضرُّ على الشريعة من كل شيء، قد شغلوا أنفسهم بمسائل معروفة، هي رأس مذهبهم وأساسه، وتركوا ما عدا ذلك، وعابوه وعادَوا أهله)[٢].

المنتهى:

(التشغيب) هو المقصد الفائت من مقاصد الكَتَبة، وهذه بعض شواهده سردتها ليُعلم أن مواقع الكتابة في الأوساط الفكرية ليست بالضرورة ناشئة عن منطلقات علمية معتبرة، بل كثير منها مصابٌ بضمور الأهلية المعرفية للكاتب وترهُّل أدواته البحثية، وثمة شواهد ومعالم أخرى لهذا المقصد الفائت تستحق الرصد والتدوين، والسعيُ في إبرازها وبيانُ عوارها واجبٌ على أهل التخصص، مكافحةً للشغب وحفظاً لحرمة العلم.

(فأما الزبد فيذهب جفاء.. وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض).

(١) رسائله (٤: ٢٧١).

(٢) منتهى الأرب: ٧٥.

سبل تيسير العسير

محمد فريد فرج فراج
Faridmohammmed999@gmail.com

لا أحد منا إلا وقد رأى نفسه يوماً من دهره في مفترق طرق وقد التُبست عليه السبل ولم يعد يدري أيها يوصله إلى هدفه!

ولا أحد منا إلا وقد رأى نفسه يوماً من دهره في منتصف الطريق وقد أضناه التعب وحال النصب بينه وبين مواصلة المسير، فلم يبلغ غايته المقصودة، ولم يظفر بضالته المنشودة!

ولا أحد منا إلا وقد رأى نفسه يوماً من دهره وقد تكاثرت عليه الهموم حتى كأنها طوق حول رقبته فلا يتنفس إلا من أضيق من سم الخياط!

ولا أحد منا إلا وقد رأى نفسه يوماً من دهره وقد تحوّلت مشاكله إلى قيود تعجزه عن كل شيء حتى عن مجرد التفكير!

فإذا كنتَ يوماً من دهـــرك أحد أولئك الذين ذُكروا؛ فلا عليك إلا أن تستبشـــر بأن الذي نالـــك قد نال الأنبياء الذين قدَّر الله برحمته أن يكونوا بشـــراً مثلنا لحكم إلهية؛ منها أن يكونـــوا قدوة لنا في حياتنا، وفي مواجهة ما يعنّ لنا فيها من المحن والملمات.

فمـــن ذلك ما حكاه ربنا - ســـبحانه وتعالى - عن كليمه موسى، إذ يقول: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]. قَالَ النبي ﷺ: «وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ المَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ»[١].

قال ابن المنير الإسكندري: «فلعل الحكمة في إنساء يوشع أن يتيقظ موسى - عليه السلام - لمنة الله تعالى على المسافر في طاعةٍ وطلبِ علم؛ بالتيسير عليه، وحمل الأعباء عنه.

وتلك ســـنة الله الجارية في حق مـــن صحت له نية في عبادة من العبادات، أن ييسرها، ويحمل عنه مؤونتها، ويتكفل به ما دام على تلك الحالة.

وموضع الإيقاظ أنه وجد بين حالة ســـفره للموعد وحالة مجاوزته، بوناً بيّناً، والله أعلم.

وإن كان موسى - عليه السلام - متيقظاً لذلك!

فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته، بل من أمة محمد ﷺ؛ إذا قص عليهم القصة.

فمـــا أورد الله تعالى قصص أنبيائه ليســـمر بها الناس، ولكن ليشـــمّر الخلـــق لتدبرها واقتباس أنوارهـــا ومنافعها، عاجلاً وآجلاً. والله أعلم»[٢].

فهذا موســـى - عليه السلام - أمره الله - عز وجل - أن يذهب إلى الخضر ليرى معـــه علماً لم يعلمه الله له؛ فيزداد تواضعه لله - سبحانه وتعالى -، وجعل الله له علامة للمكان الذي فيـــه الخضر، وهي أن يفقد الحوت الذي معه، وعندما نزل الحوت البحر كان موسى - عليه السلام - نائماً فاستحى يوشـــع أن يوقظه، فلما استيقظ نسي يوشعُ أن يخبره، فسارا معاً، وتجاوزا الموضع الذي نـــزل فيه الحوتُ إلى البحر، فلم يلبث أن شعر موسى - عليه السلام - بالنصب الذي لم يشعر به طوال الرحلة! فطلب الغداء من يوشع، وحينئذٍ تذكر يوشع أنه فقد الحوت! وقد أراد الله من وراء ذلك أن يعلمنا درســـاً من خلال المقارنة بين الحالتين:

الأولى: ســـفر موسى - عليه السلام - إلى الموضع الذي أمره الله بالسفر إليه.

الثانية: ســـفر موســـى - عليه الســـلام - بعد تجاوزه الموضع الذي أمره الله بالســـفر إليه نسياناً وخطأً، لا عمداً وقصداً.

فلماذا لم يشعر موسى - عليه السلام - بالنصب والتعب في الحالـــة الأولى مع طولها، وشـــعر بالنصب والإرهاق في الحالـــة الثانية مع قصرها؟! لأنه في الســـفر الأول كان في الطريق الذي أمره الله بالســـير فيـــه، وهو طلب العلم، بينما في الحالة الثانية فقد تجـــاوز الموضع الذي أمره الله به عن غير قصد ولا تعمد؛ فكان في الحالة الأولى مستوجباً لعناية الله وتيســـيره له عناية لا يجد معها مساً من النصب ولا نوعاً من الإرهاق! وهذا ليس خاصاً بموســـى - عليه الســـلام -، بل هو عام لكل من ســـلك طريق العلـــم، أو أي طاعة أخرى، وصـــدق نبينا ﷺ إذ يقول: «وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ»[٣]. ومن ثم؛ فمتى وجد أحدُنا تعسراً في طريقه فليراجعن نفسه لينظر قدر حيودها عن الطريق الذي رسمه اللـــه لها، وقدر تجاوزها الهدف الـــذي وضعه الله لها، فمتى ارتد إلى الهدف الإلهي واســـتقام على الطريق الرباني؛ كان مســـتوجباً للعناية الإلهية، مستأهلاً للتيسير الرباني! وحينئذٍ يتيسر عليه باستقامته وانضباطه ما كان متعسراً عليه بحيوده وتجاوزه!

وقد تكرر الدرس مع موســـى - عليه الســـلام - مراراً! فمن ذلك عندما ضلّ الطريق مع بني إسرائيل لما خرجوا من مصـــر، فعجب قائلاً: ما هذا؟! فأجـــاب علماؤهم: لقد عهد إلينا يوســـف أن لا نخرج من مصـــر إلا بعظامه! فلما اجتهد موســـى تنفيذاً للوصية وأخرج عظام يوســـف - عليه السلام - وحملها؛ «أَصْبَحَ الطَّرِيقُ مِثْـــلَ ضَوْءِ النَّهَارِ»[٤]. فتأمل حال موســـى وقومه إذ تاهوا في الطريق فراجَعَ نفسه وقومه حتى علمـــوا أنهم مقصرون في أمرٍ أُمـــروا به، وهو العمل بوصية

(١) (صحيح) أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).
(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٧٣٢).
(٣) (حسن) أخرجه الإمام أحمد (٢١٧١٥)، أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢).
(٤) أخرجه أبو يعلى الموصلي (٧٢٥٤)، وابن حبان (٧٢٣)، والحاكم (٧٠٨٨).

يوسف، فلما أطاعوا الله – عز وجل – ونفذوا الوصية، اتضح لهم من الطريق ما كان خافياً عليهم بسبب تقصيرهم في تنفيذ الوصية.

فإذا التُبِسَت على أحدنا السبل، ولم يدرِ أيها يوصله إلى الهدف؛ فليراجعن نفسه، ويرمم ما انثلم من عبادته لربه.. فمتى أقام المائل من نفسه، ورمم الثُّلْمَةَ من الطاعة؛ استبان له بتقويمه وترميمه ما كان خافياً عليه بميله وَثَلْمِه! وقمينٌ بالذكر أن نعلم أن هذا التيسير الإلهي على العبد ليس خاصاً بأنبيائه، بل هو عام على كل من سار في طريق الله – عز وجل –. وتأمل حال الخضر إذ قال الله فيه: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف: ٧١][1]. قَالَ النبي ﷺ: «فَعَمَدَ الخَضِرُ إِلَى لَوْحٍ مِنْ أَلْوَاحِ السَّفِينَةِ، فَنَزَعَهُ»[2]. فنَزْعُ لوحٍ من السفينة يحتاج إلى آلات، ومعاناة، ومشقة، ووقت! لكنه لما كان يفعل ذلك عن أمر الله – عز وجل – له يسره الله عليه فنزعه بغير آلة، ولا مشقة، ولا وقت! وكذلك في قتله الغلام، قَالَ النبي ﷺ: «فَأَخَذَ الخَضِرُ بِرَأْسِهِ مِنْ أَعْلاَهُ فَاقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ»[3]. قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: «فَتَنَاوَلَ رَأْسَ الْغُلَامِ بِثَلَاثَةِ أَصَابِعِ: الْإِبْهَامِ، وَاللَّتَيْنِ تَلِيَانِهَا»[4]. فمن ذا يستطيع أن يقتلع رأس غلام بثلاثة أصابع؟! فلولا أنه كان قاتلاً له بأمر الله – عز وجل – ما تيسر عليه! وكذا في بنائه للجدار، قَالَ النبي ﷺ: «قَالَ الخَضِرُ: بِيَدِهِ فَأَقَامَهُ»[5]. فبناء الجدار يحتاج إلى آلات بناء، وجهد، وعناء، ووقت! لكنه لما أقامه طاعة لله – عز وجل – يسره الله عليه.

ومن أمثلة التيسير الإلهي على من سار في طاعته، ولا هَمَّ له إلا مرضاته؛ ما رواه زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، قَالَ: «أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ. قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابٍ. قَالَ زَيْدٌ: مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً؛ حَتَّى حَذَقْتُهُ، وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ، وَأُجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ»[6]. فتعلّمُ لغةٍ جديدةٍ على الإنسان يحتاج إلى زمن طويل، وحذقها وإتقانها يحتاج إلى زمن أطول. وما يَسَّر اللهُ على زيد هذا التيسير العجيب إلا لأنه ما أراد بتعلم تلك اللغة الجديدة مالاً، ولا جاهاً، ولا منصباً، ولا كبراً على المسلمين؛ لكن تعلمها لله، وليسد ثغراً من ثغور الإسلام، وليخدم بها النبي ﷺ، فلما صحت نيته لله – عز وجل –، صح عون الله – عز وجل – له، ورضي الله عن عمر إذ يقول: «فَمَنْ خَلَصَتْ نِيَّتُهُ فِي الْحَقِّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِهِ كَفَاهُ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ. وَمَنْ تَزَيَّنَ بِمَا لَيْسَ فِي نَفْسِهِ شَانَهُ اللَّهُ. فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعِبَادِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا»[7]. وهذا عين ما حدَثَ لحذيفة، إذ بعثه النبي ﷺ يوم الأحزاب إلى المشركين ليأتي بخبرهم. وكانت الليلة فيها ريح شديدة، وبرد قارس. قال حذيفة: «فَلَمَّا وَلَّيْتُ مِنْ عِنْدِهِ؛ جَعَلْتُ كَأَنَّمَا أَمْشِي فِي حَمَّامٍ حَتَّى أَتَيْتُهُمْ»[8]. ثم قضى المَهَمَّةَ التي كلفه بها النبي ﷺ، ورجع. قال حذيفة: «فَرَجَعْتُ وَأَنَا أَمْشِي فِي مِثْلِ الْحَمَّامِ، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ»[9]. فتأمل حال حذيفة إذ كان في أداء المَهَمَّةِ الشرعية! لقد كان يسير في يوم شديد البرد جداً لا طاقة لأحد به، فلما سار يريد طاعة الله ورسوله سار كأنه يسير في حمام! والحمام عند العرب مكان يغتسل فيه الناس وتكون الحرارة فيه مرتفعة، مثل «الساونا» في عصرنا. وكان في هذا الدفء الإلهي طول أداء الرحلة الربانية، فما لبث أن انتهى من مَهَمَّته التي كلفه بها النبي ﷺ حتى شعر بالبرد الشديد كما قال: «فَلَمَّا أَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَفَرَغْتُ قُرِرْتُ». قُرِرْتُ: أصابني البرد الشديد! فمن الذي أدفأه في الرحلة؟! ولماذا أدفأه؟! إن الذي أدفأه في الرحلة هو الله لأنه كان مشغولاً بطاعة نبيه ﷺ.

وهكذا.. فإن أحببت أن تكون دائماً في حماية الله ورعايته، وأن تكون مستأهلاً لتيسيره ما تعسر عليك، قميناً بتسهيله ما صعب عليك، مستوجباً لمعونته؛ فلا تبرح طاعته، ولا تحد عن طريقه، ولا تجاوز حدوده التي رسمها لك.. كن كما يحب الله لك أن تكون له، يكن لك الله كما تحب أن يكون لك!

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، سبحانك اللهم وبحمدك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك.

---

(١) (الكهف: ٧١).
(٢) (صحيح) أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).
(٣) (صحيح) أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).
(٤) تفسير عبد الرزاق: (١٧٠٥).
(٥) (صحيح) أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).
(٦) (صحيح) أخرجه الإمام أحمد (٢١٦١٨)، أبو داود (٣٦٤٥)، والترمذي (٢٧١٥).
(٧) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/٦٨).
(٨) (صحيح) أخرجه مسلم (١٧٨٨).
(٩) (صحيح) أخرجه مسلم (١٧٨٨).

[نص شعري]

أنت ربي

محمد فريد الرياحي

لي حسن المآب ... في زمان الإياب
كلمة بالهدى ... سبقت في كتاب
رحمة الله تجـ ... ـري بغير حساب
لا عذاب إذا ... أزلفت لا عقاب
رحمة الله قد ... نلتها في المتاب
قلت ربي دعو ... تك بالمستجاب
وفزعت إليـ ... ـك هدى في الصعاب
رب إن الهوى ... بالهدى قد أناب
أين ما كان من ... نزوتي في الشباب
تلك زوبعة ... رحلت في التراب
بين حلم تجلـ ... ـى وبين السراب
رب إني على ... أوبتي في اقتراب
رب إني على ... جنتي في ارتقاب
أنت ربي ولي ... منك حسن المآب
أنت نجيتني ... من جنون العصاب
أنت ألهمتني ... روعة في الخطاب
فكتبتُ من الـ ... ـآي لحن الغياب
ورأيت من الـ ... ـآي ألحان آب
مسني الضر في ... لجة من عباب
ومضى الصحب عن ... ـي فأين الصحاب؟
ليس منهم سوى ... ضجة في الكذاب
ليس فيهم سوى ... من تولى وخاب
تلك زلزلة ... روعها في اللباب
ومواعدها ... آذنت بالخضاب
الكلاب الكلاب ... الذئاب الذئاب
وأنا في الردى ... بين ظفر وناب
رب إني رضيـ ... ـت بشهد وصاب
فاغفر الذنب ذنـ ... ـبي بأم الكتاب
أنت ربي ولي ... منك حسن المآب

ملف العدد

البركة والتبرك(*)

كلمةٌ في التبَرُّك

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف(**)

www.alabdulltif.net

@dralabdullatif

التبَرُّك هو طلب البَرَكَة ورجاؤها، والبَرَكَة هي النماء والزيادة وكثرة الخير.

والتبَرُّك المشروع هو طلبُ البَرَكَة ورجاؤها من الله تعالى وَحْدَه حَسَب مُقتضَى السنة والدليل، فلا بد من استصحاب الأصلَيْنِ الكبيريْنِ: ألَّا نعبدَ إلا اللهَ تعالى، والآخر ألَّا نعبدَه إلا بما شرَع. فالبَرَكَة من الله تعالى وحده، فتُطلب منه سبحانه، فيرجو ويعتقد أنها من عنده عزَّ وجل.

(*) إعداد موقع الصوفية: www.alsufi.net.

(**) أستاذ مشارك سابق في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – الرياض.

ثـــم إن البَرَكَة المطلوبة إنما تكون وَفْقَ مقتضَى الشـــرع، فبركـــة المصحف مثلاً تُنال بتدبُّره واتباعه، وليس بتعليقه أو تزويقه وزخرفته، قال تعالى: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ** ﴾ [**ص**: ٢٩].

وبالجملة فالتبَرُّكُ المشروع إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح مما يظهَر أثَرُه ويعمُّ نفعه ويعظُم أجرُه.

ومن ذلك ما جاء في حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ لَمَا بَرَكَتُهُ كَبَرَكَةِ الْمُسْلِمِ... هِيَ النَّخْلَةُ»[١].

قال الحافظ ابن حجر: (وَبَرَكَةُ النَّخْلَةِ مَوْجُودَةٌ فِي جَمِيعِ أَجْزَائِهَا مُسْـــتَمِرَّةٌ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا.. وَكَذَلِكَ بَرَكَةُ الْمُسْـــلِمِ عَامَّةٌ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ وَنَفْعُهُ مُسْـــتَمِرٌّ لَهُ وَلِغَيْرِهِ حَتَّى بَعْدَ مَوْتِهِ)[٢].

وقال بعضُهم في تفســـير قوله تعالى عن المسيح – عليه الســـلام –: ﴿ **وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ** ﴾ [**مـريم**: ٣١]، أي: مذكِّراً بالله داعياً إلى سبيله[٣].

وســـلَفُنا الصالح كلامُهم قليل، لكنه كثيرُ البَرَكَة، وكلام المتأخِّرين كثيرٌ لكنه قليل البركة.

والحاصـــلُ أنَّ تحقيق التبَرُّك المشـــروع والقيام به علماً وعملاً يمنـــع من الوقوع في التبَرُّك الممنوع، والنفوس خُلقت لتعمل لا لتترك، والإنســـان حارثٌ هَمَّامٌ لا يَنفَكُّ عن الإرادة والنية والسَّـــعْي والحركة، فإذا اشـــتغلت النفـــوسُ بالتبَرُّك المشروع عزَفَتْ عن التبَرُّك الممنوع.

فعلينا أن نُعْنَى بإظهار السُّـــنَن والشـــرائع والحثِّ على لزومها، فهـــي بمنزلة الغذاء النافع، وفيهـــا من البركات ما لا يُحصـــى، كما هو ظاهـــر في بركات التعلُّـــق بالله تعالى والإنابـــة إليه، وبركة الاتباع والاعتصـــام بنصوص الوحيَيْن، وبركة تدبُّـــرِ القرآن والعمل به، وبركة الدعوة إلى الله تعالى والاحتســـاب، وبركة الصدقة والإحســـان إلى الخَلْق، وبركة الكَسْب الحلال...إلخ.

والعُزوف عن التبَرُّك المشـــروع يوقِع في التبَرُّك الممنوع، كمـــا أن الإعراض عـــن الأغذية النافعة المفيـــدة يؤدِّي إلى الأغذية الضارَّة.

يقول ابنُ تيمية: (وَهَكَـــذَا أَهْلُ الْبِدَعِ لَا تَجِدُ أَحَدًا تَرَكَ بَعْضَ السُّنَّةِ الَّتِي يَجِبُ التَّصْدِيقُ بِهَا وَالْعَمَلُ إلَّا وَقَعَ فِي بِدْعَةٍ وَلَا تَجِدُ صَاحِبَ بِدْعَةٍ إلَّا تَرَكَ شَـــيْئًا مِنْ السُّنَّةِ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: (مَا ابْتَدَعَ قَوْمٌ بِدْعَةً إلَّا تَرَكُوا مِنْ السُّنَّةِ مِثْلَهَا)[٤].. وَكَذَلِـــكَ مَنْ لَمْ يَفْعَلِ الْمَأْمُورَ فَعَـــلَ بَعْضَ الْمَحْظُورِ، وَمَنْ فَعَلَ الْمَحْظُورَ لَمْ يَفْعَلْ جَمِيعَ الْمَأْمُورِ...)[٥].

وهذه من السُّـــنَن الإلهية أنَّ كل مَن أعرَض عن شيءٍ من الحق وَقَعَ في باطلٍ مقابلٍ لما أعرَضَ عنه من الحقِّ[٦].

إضافةً إلى أن أهواء النفوس وحظوظها تَستروحُ للجديد والمُحْدَث وتتنصَّل من تكاليف الشرع كما قال الشاطبي: (فَإِنَّ النُّفُوسَ قَدْ تَمَلُّ وَتَسْأَمُ مِنَ الدَّوَامِ عَلَى الْعِبَادَاتِ الْمُرَتَّبَةِ، فَإِذَا جُدِّدَ لَهَا أَمْرٌ لَا تَعْهَدُهُ، حَصَلَ بِهَا نَشَاطٌ آخَرُ... فَلِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ)[٧].

ويبقى لزوم الشرع هو بمنزلة سفينة نوح مَن ركِبها نجا، ومَـــن تخلَّف عنها هلك، واقتصادٌ في ســـنة خيرٌ من اجتهاد في بدعة.

والمقصود أن أعظم ســـبيل لرفع التبَرُّك البِدْعِيِّ ودفعه إنما هو بإحياء التبَرُّك الشرعي ومجالاته، وإبرازه وَفْقَ الأدلة الشرعية، وترويض النفس على لزوم الهُدَى ومجانبة الهوى.. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٥٤٤٤).
(٢) الفتح (١/ ١٤٥، ١٤٦).
(٣) انظر الدرر السنية (١١/ ٨٥).
(٤) أخرجه أحمد في المسند (١٦٩٧٠)، ط الرسالة، وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف، وضعَّفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٦٧٠٧).
(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧٣).
(٦) ينظر: مدارج السالكين (١/ ١٦٥)، وتفسير السعدي (١/ ١٨).
(٧) الاعتصام (١/ ٤١).

كي نكونَ مُبارَكين!

فـــي صيف ٢٠٠٧م زرتُ مدينة طابا التي بناها الحاج أحمدو بمبا في الســـنغال، تلك المدينة الصغيرة البعيدة عـــن كلِّ تحضُّرٍ ومَدَنِيَّةٍ، أخبرني مُحدِّثـــي أن تربة هذه المدينة تربة مُبارَكَة، تَشـــفِي المرضى، وتُعين على نوائب الدهر. وعلى ضفاف الأطلســـي جزيرةٌ صغيرة بها قبر ســـيِّدي عبد الرحمن الذي ببركته تحمل النســـاء فتراهن هنالك زُرَافاتٍ ووُحْدانا. وقبر مشهور في باكستان ببركةِ تُربَتِه تتزوَّج العَذارَى، والمناجي في اليمن ينجي الحمل مـــن الموت كما يدَّعون، ورأيتُ حليقَ اللحية والدِّين في البوســـنة والهرســـك يَمْســـحُ على أجساد الرجال والنساء...! داخل ثيابهم وثيابهن، بحُجِّةِ أن يده مُبَارَكة باركتْها السماء.

أحد الوُجهاء زار رجلاً ينتســـب للصلاح، قال: «أجلسوني بجانب ذاك الرجل، وبينما هو يتحدَّث إذ بـــه يتنخَّم ويلقي نُخامَتَه قريباً من الحُضور في مشـــهد مُقزِّز، وإذ بالطلبة يتقافـــزون على تلك النُّخامة فيتمسَّـــحون بها»، يقول الوجيه: «وحينما أجْفَلْتُ من هذا المشـــهد إذ برجلٍ عن يميني يَغمِزُني مُسرّاً في أذني: لا تخف الشيخ سيعطيك واحدةً خاصةً»!!

محمد بن عبد الله المقدي
Almagdy3@gmail.com

بخور وأدخنة، ورقص مختلَط وهَمْهَمات تعلو وتخفُت تتبيَّن منها كلمة «حي» يخبرونك أن هذا الرجل مباركٌ يتمسَّحون به، ويشربون ما فضَلَ من شرابه، ويأكلون ما بقِي من طعامه، يمسحون بريقه أبشارَهم، كَلِمُه وصَمتُه مبارك، فإذا مات تتابعت البركات على قبره، يحيا الناسُ على قصصه وعجائبه، تُدبَّج فيه القصائد، وفي مولده تُقام الموائد، صناديقُ النُّذُور تنتظرهم مهلِّلة لاستقبال ما فضَل من أقواتهم، تقِف أمامه العوانسُ والمطلقاتُ والبائس الفقير وذو الشيبة المسكين؛ يرجون أن ينالوا بركةً من بركات الشيخ!

على الضفة الأخرى ثَمَّةَ مَن يغالي في منع هذه المعاني ويرفضها بحجة الدَّرْوَشَة.

وثالثٌ منشغل عنها جَهْلاً بها وبأهميتها؛ فقلَّت البركات في الأموال والأولاد والأرزاق.

هذه الصورة التي تلتقطها عدستك بحجم دِقتها وبحجم سَعَة العالم الإسلامي لتُنْبِي عن ضلال واسع في هذا المفهوم العظيم، وإن المرء ليَبْدَهه مدى الضلال على غزارة النصوص الشرعية الدالَّة عليه!

البَرَكَة من اللّه:

الله تعالى هو مصدر كل خير وبركة، بيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير، النفوس إليه تصير، والقليلُ عنده كثيرٌ، عطاؤه مبارك، ورزقه عميم، يده لا تغيض بالنفقة بل تفيض بالإحسان.

كان ﷺ إذا قام إلى صلاة الليل ينادي ربه تبارك وتعالى قائلاً في دعاء طويل: (لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)[1].

يقول الله تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ويقول: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ويقول: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجا وَقَمَرا مُنِيرا﴾ [الفرقان: ٦١].

فالله تعالى هو مصدر البركات والخيرات لـ «دوام جوده، وكثرة خيره، ومجده وعلوه، وعظمته وتقدسه، ومجيء الخيرات كلها من تبريكه على ما شاء من خلقه»[2].

وجعَلَ بيته مباركاً تنمو فيه الحسنات وتَزيدُ في جنباته و«تضاعف العمل فيه، فالبَرَكَة كثرة الخير»[3] ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

خلق الله السماوات والأرضَ ببركته: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وجعل اللهُ للمؤمنين في السماء بركةً تُظلُّهم وفي الأرض بركة تُعينُهم إذا اتَّقَوْه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، (فبركات السماء المطر، وبركات الأرض النبات والثمار، وجميع ما فيها من الخيرات والأنعام والأرزاق، والأمن والسلامة من الآفات؛ كل ذلك من فضل الله وإحسانه على عباده)[4].

أَهْبَطَ اللهُ نوحاً ببركته: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾ [هود: ٤٨].

وأدلَّ[5] عيسى - عليه السلام - بأن جعله اللهُ مباركاً فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١].

قال ابن عيينة: ﴿مُبَارَكا﴾ «معلماً للخير»[6].

وقال التُّسْتَرِيُّ: ﴿مُبَارَكا﴾ «آمُر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأُرشد الضالَّ، وأنصُر المظلوم، وأُغيث الملهوف»[7].

وآلُ إبراهيم مباركون بمباركة الله لهم: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣].

والمؤمنون يسألون الله أن تحُلَّ البَرَكَةُ عليهم حينما يلتقون: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً﴾ [النور: ٦١].

وَصَفَ الموضعَ الذي كلَّم فيه موسى - عليه السلام - بأنَّه مباركٌ ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، وسمَّى شجرةَ الزيتون مباركةً ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥]؛ لكثرة منافعها، وسمَّى المطر مباركاً ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكا﴾ [ق: ٩]؛ لما فيه من المنافع، وسمَّى ليلة القدر مباركة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]؛ فالقرآن ذِكْرٌ مبارك، أنزله مَلَكٌ مبارك، في ليلةٍ مباركةٍ، على نبيٍّ مباركٍ، لأمَّة مباركة[8].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١)، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.
(٢) جلاء الأفهام (ص: ١٨٠).
(٣) تفسير القُرطبي (٤/ ١٣٩).
(٤) تفسير الخازن (٢/ ٢٦٦).
(٥) أدلَّ فلانٌ بكذا: افتَخر وازْدَهى به.
(٦) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١/ ١٣٣).
(٧) تفسير القُرطبي (١١/ ١٠٣).
(٨) مفاتيح الغيب، الشافعي (٢/ ٢٦٥).

القرآن.. الكتاب المبارك:

القــرآنُ العظيــم كلام الله تعالــى وصفة من صفاته، كثيرُ الخيراتِ واسِــع المبرّات، كتابٌ مبارَك محكَم، فَصلٌ مُهيمِنٌ، أنزله الله رحمة وشِفاءً وبياناً وهُدى، وصَفَــه الله تعالى بالبَرَكَة في أربعة مواضع ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال سبحانه: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥ ، وقال ســبحانَه: ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِــرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْــكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّــرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُــوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].. فالله تعالى: (أنزله مباركاً، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركة وســعادة تُنال في الدنيا والآخرة، فسَبَبُها الاهْتداء به واتباعه)[١].

وسورَةُ البقرة سورَة مبارَكة، مأمورٌ بتعلُّمها، قالَ عليه الصلاة والســلام: (تَعَلَّمُوا سُــورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ)[٢] أي: السَّحَرة.

و(الْقُرْآنُ مُبَارَكٌ لِأَنَّــهُ يَدُلُّ عَلَى الْخَيْرِ الْعَظِيمِ، فَالْبَرَكَةُ كَائِنَةٌ بِهِ، فَــكَأَنَّ الْبَرَكَةَ جُعِلَتْ فِي أَلْفَاظِهِ، وَلِأَنَّ اللَّــهَ تَعَالَى قَدْ أَوْدَعَ فِيهِ بَرَكَةً لِقَارِئِهِ الْمُشْــتَغِلِ بِهِ بَرَكَةً فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَلِأَنَّهُ مُشْــتَمِلٌ عَلَى مَا فِي الْعَمَــلِ بِهِ كَمَالُ النَّفْــسِ وَطَهَارَتُهَا بِالْمَعَارِفِ النَّظَرِيَّةِ ثُمَّ الْعَمَلِيَّــةِ؛ فَكَانَتِ الْبَرَكَةُ مُلَازِمَةً لِقِرَاءَتِهِ وَفَهْمِهِ)[٣].

(إنه مُبارَكٌ بكل معانــي البركة، إنه مبارك في أصله، بارَكه الله وهــو يُنزله من عنده، ومبارك في محلِّه الذي علِم الله أنه له أهل، قلب محمد الطاهر الكــريم الكبير، ومبارك في حجمــه ومحتواه، فإن هو إلا صفحات قلائل بالنســبة لضخام الكتب التي يكتبها البشر، لكنه يحوي من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات في كل فقرة منه ما لا تحويه عشــراتٌ من هذه الكتــب الضِّخام، في أضعافِ أضعافِ حَيِّزه وحجمه! وإن الذي مارس فنَّ القول عند نفســه وعند غيره من بني البشر وعالج قضية التعبير بالألفاظ عن المدلــولات، ليُدرك أكثرَ مما يدرك الذين لا يزاولون فنَّ القول ولا يعالجون قضايا التعبير، أن هذا النَّسَــق القرآني مبارك من هذه الناحية، وأن هنالك اســتحالةً في أن يعبِّر البَشَــرُ في مثل هذا الحيِّــز ولا في أضعافِ أضعافه عن كل ما يحمله التعبير القرآني من مدلــولات ومفهومات وموحيات ومؤثرات! وأن الآية الواحدة تؤدي من المعاني وتقرِّر من الحقائق ما يجعل الاستشــهادَ بها على فنون شــتَّى من أوجه التقرير والتوجيه شيئاً متفرداً لا نظير له في كلام البشر.

وإنــه لمبارك في أثره، وهــو يخاطب الفطرة والكَيْنُونَةَ البشــرية بجُملتها خطاباً مباشــراً عجيباً لطيف المدخل ويواجهها من كل منفذٍ وكل دَرَبٍ وكل ركــن؛ فيفعل فيها ما لا يفعله قولُ قائلٍ، ذلك أن به من الله ســلطاناً، وليس في قول القائلين من سلطان! ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا في تصوير بركة هذا الكتاب، وما نحن ببالغين لو مضينا شــيئاً أكثر من شــهادة الله له بأنه «مبارك»، ففيها فصل الخطاب! ﴿ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأنعام: ٩٢])[٤].

(١) تفسير السعدي (١/ ٢٩).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٩٥٠)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن، وهو في صحيح مسلم (٨٠٤) بلفظ: «اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ».

(٣) التحرير والتنوير (٦/ ٢١٧).

(٤) في ظلال القرآن (٢/ ١١٤٧).

مُحمَّدٌ ﷺ.. النبيُّ المبارَك:

مرَّت الإنسانية بفترة طويلة بعد رفع عيسى – عليه السلام – إلى السماء، وانطفأ نور رسالته شيئاً فشيئاً حتى عمَّ الظلام أرجاء الكون، وبات الناس يتخبَّطون في غَيَابات الجهل، تهوي بهم ريحُ الظلم في وادٍ سحيق، ولم يَبْقَ في ساحات العالم وطرقاته إلا طيفُ قناديل واجمةٍ لبقايا أهل كتاب هُرعوا بها إلى رؤوس الجبال. في ذلك التاريخ المخيف، وليله الثقيل، والأرضُ تحيط بجيدها أيادي الموت؛ بَزَغَ نور الفجر، وتراجع الليل يجرُّ أذيال الهزيمة، فقُطعت أيادي الظلم، وتساقطت الشرفات الزائفة، وكُسِرَ إيوان القهر، وأُطفئت نيران العبودية، لذلك عُدَّ هذا الزمان من خير الأزمان وأبركِها على البشرية.

لقد بُعث النبيُّ ﷺ والعالم في ظلام دامس يكتنفه لُجَّةٌ سحيقة من الكفر والعصيان، اهتزَّت فيه أُسُسُ الدِّين، وحُرِّفَ الاعتقادُ إلا بقايا من أهل الكتاب.

كان المشركون يعبدون الأصنام والأوثان ويجدُون فيها السَّلْوَى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

عُبدت الأشجار والأحجار والشمس والقمر والنجوم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

لقد تغيَّرت القيم الإنسانية وأمْسَت الفضيلة عيباً، مُجِّدَت الوحشية وامتُهنت الإنسانية وشاع الزِّنا ومعاقرة الخمور وانتشر القُمار وكثُر السلب والنهب، لقد كان وجه الأرض حافلاً بالمُروق.

في هذا الجو البئيس بُعث النبي ﷺ فتمَّ عقد الهداية، وازدحمت الصفوف للإيمان به، ورُفعت راية اللـه خفَّاقة، هَدَى الله به القلوب والعقول، أخرج اللهُ به الناسَ من ظلمات الكفر إلى أنوار الإسلام، ومن حَمْأَة الرذيلة إلى زينة الفضيلة، ومن التفرُّق إلى الاجتماع، من الجوع واللأْواء إلى السَّعَة والغناء، تحوَّل الصعاليك أتباع الكلأ رعاةُ الغنم إلى فقهاء علماء، كانت الأمة عربيةً مَقُودة فأصبحت مسلمة قائدةً تتبعها الأمم، هل ثَمَّةَ رجلٌ أعظم بركةً على بني قومه من محمد ﷺ؟

أخذ الله من النبيين الميثاق ليؤمنوا به وينصروه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وبشَّر به في الكتب السابقة ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وحُرست السماء من مُسترقي السمع إبَّانَ بعثته ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨ – ٩]، وحُفظ ووُقِي من أن يصله سوء ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وأُسري به إلى بيت المقدس ليَرَى آيات الله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، الَّذِي جَعَلْنَا حَوْلَهُ البَرَكَة لِسُكَّانِه فِي مَعَايِشِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ وَحُرُوثِهِمْ وَغُرُوسِهِمْ[1].

قاتلت الملائكة معه ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وآتاه الكتابَ وهو أُمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، والقمر ينشق تصديقاً له ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وخُتمت به النبوات ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

بُعث رحمةً للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أَقْسَمَ اللهُ بحياته، وبكتابه، وببلده الذي وُلد ونشأ فيه، وبخلقه العظيم ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].. ﴿يسٓ ۝١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١ – ٣].. ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١ – ٢].. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قال ابن حزم – رحمه الله –: (مَن أَرَادَ خير الْآخِرَة وَحِكْمَة الدُّنْيَا وَعدل السِّيرَة والاحتواء على محَاسن الْأَخْلَاق كلهَا وَاسْتِحْقَاق الْفَضَائِل بأسرها؛ فلْيَقْتَدِ بمحمدٍ ﷺ، ولْيَستَعْمِل أخلاقه وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الاتِّساء به.. آمين)[2].

(١) تفسير الطبري (دار هجر): (١٤/٤٤٨).
(٢) الأخلاق والسِّيَر في مُداواة النفوس لابن حزم (ص: ٢٤).

معنى البَرَكَة في الشريعة:

إن أعظمَ بركاته - عليه الصلاة والسلام - هي هذا الدِّين المبارك، (فهَدَى اللهُ الناسَ ببركة نبوة محمد ﷺ، وبما جاء به من البينات والهُدى، هدايةً جلَّتْ عن وصف الواصفين، وفاقت معرفة العارفين، حتى حصل لأمته المؤمنين عموماً، ولأولي العلم منهم خصوصاً، من العلم النافع، والعمل الصالح، والأخلاق العظيمة، والسُّنن المستقيمة، ما لو جُمعت حكمة سائر الأمم، علماً وعملاً، الخالصة من كل شَوْبٍ، إلى الحكمة التي بُعث بها، لتَفَاوَتَا تفاوتاً يمنع معرفة قدر النسبة بينهما، فلله الحمدُ كما يحب ربنا ويرضى)[1].

وقد خُصَّ نبينا ﷺ ببركات حِسِّية في جسده الشريف؛ كنَبْع الماء من بين أصابعه[2]، وتكثير الطعام له ﷺ[3]، وإبرائه المرضى وذوي العاهات كما في قصة علي بن أبي طالب حين تَفَلَ في عينه فبرئت[4]، وقصة عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتِيكٍ حين كُسرت رجله فمَسَح عليها فبرئت[5] - رضي الله عنهما.

وبركةُ النبيِّ ﷺ ذاتية فيتبرَّك بشَعره وريقه وعَرَقه ولبسه وثيابه وبمواضع أصابعه وبفَضْلِ شرْبه وبماء وُضوئه، في حياته وبعد مماته، كل ذلك مشروعٌ التبَرُّكُ به منصوصٌ على فعل الصحابة له.

ومع هذه البَرَكَة العظيمة لنبينا المبارك هل يصِحُّ أن نقيسَ عليه شيخاً خاملاً في متاهات التاريخ والجغرافيا بحجة الصلاح فيُدَّعى في ريقه وعَرَقه وما فضَلَ من بدنه ما يُشرَعُ فعله مع النبي ﷺ؟! اللهم لا، إنه قياسٌ مع الفارق!

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٧٥)، تحقيق العقل.

(٢) متفق عليه: البخاري (١٦٩) و(٣٥٧٦)، ومسلم (٢٢٧٩)، و(٣٠١٣).

(٣) في مواقف عديدة؛ منها ما أخرجه البخاري (٢٧٠٩) و(٤١٠٢)، ومسلم (٢٧) و(٢٠٣٩).

(٤) في مواقف عديدة؛ منها ما أخرجه البخاري (٢٩٤٢) و(٣٠٠٩) و(٣٧٠٢)، ومسلم (١٨٠٧) و(٢٤٠٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٠٣٩) في قصة قتل أَبِي رَافِعٍ اليَهُودِيِّ، وفي آخرها قال عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَتِيكٍ: فَانْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَدَّثْتُهُ، فَقَالَ: «ابْسُطْ رِجْلَكَ» فَبَسَطْتُ رِجْلِي فَمَسَحَهَا، فَكَأَنَّهَا لَمْ أَشْتَكِهَا قَطُّ».

إن البَرَكَة في الشريعة لها معنيان:

١- ثبوت الخير ودوامه، قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، قال ابن جرير: «أي: التي جعل فيها الخير ثابتاً دائماً لأهلها[6].

٢- كثرة الخير وزيادته، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: ٩٦]، قال القرطبي: (جعله مباركاً لتضاعُف العمل فيه فالبَرَكَة كثرةُ الخير)[7]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، قال الشنقيطي: (أي: كثير البركات والخيرات؛ لأنَّ فيه خيرَ الدنيا والآخرة)[8].

قال الراغب الأصفهاني: (والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وسُمِّي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوتَ الماء في البِرْكَة، والمُبَارَك: ما فيه ذلك الخير، على ذلك: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠] تنبيه على ما يفيض عليه من الخيرات الإلهية، وقال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣١]، أي: موضع الخيرات الإلهية)[9].

إن كثرة النصوص في موضوع البَرَكَة وتنوعها وشمولها لتَشِي بأهمية هذا المعنى الشرعي ورسوخه، وضرورة الاحتفاء به، لكن الناظر إلى الواقع يشعر بضدِّ ذلك؛ لقلَّة تداوله كمفهوم شرعيٍّ، وضعف ممارسته كسلوك إيماني؛ ولأجل ذا قَلَّتِ البركاتُ في العلم والعمل.

إن تلمُّسَ البركات سائغٌ في الشريعة، مشروعٌ إتيانه في كل ما نصَّتْ على صحة التبَرُّك به، والمتتبع يلمس انجفالاً عن هذا المعنى مع أهميته وتواتر النصوص عليه، ولعل هذا الإغفال له ثلاثُ عِلَلٍ:

أولاها: ضعف تلقِّي العلم الشرعي وتبليغه، وهذه علة عامة تعتَوِرُ جُملةً من الأحكام الشرعية.

ثانيها: أن هذا المعنى المبارك تداوَلَته فئةٌ ممَّن زيَّن لهم الشيطان سوء أعمالهم؛ فأحالوا المشروع من طلب البَرَكَة إلى تبَرُّك ممنوع، عقيدةً وممارسةً، فأحالوا الرغبة في المشروع إلى رهبة من الوقوع في الممنوع، واجتالوا هذا المعنى الشرعي إلى معانٍ باطلة؛ بل صار لفظ التبَرُّك عَلَماً على غير المشروع عند الجاهل واستحالتِ السنة المباركة

(٦) تفسير الطبري (٩/ ٤٣).

(٧) تفسير القرطبي (٤/ ١٣٩).

(٨) أضواء البيان (٤/ ٥٨٧).

(٩) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني (١/ ١١٩).

بدعةً ضالة، وأذكر في هذا أن حواراً في الشبكة عُنون له بأن: (التبَرُّك بدعة) هكذا في جملة واحدة!

وثالثها: الرُّكــون إلى الحياة المادية المدنية والانغماس في طلــب المَدَدِ من الأرض والغفلة عن مَدَدِ الســماء، حتى صار الحديث عن البَرَكَة دروشةً ممجوجة.

إن المدنيَّةَ المُرهَقَة، وثورة الجسد، وسباق انقضاء الأوقات والأموال والأولاد، وهُزال الرُّوح، وتتابع التشــكيك في المعاني الشــرعية؛ توجبُ إبرازَ المعاني الشــرعية وتجسيرها ورفعَ منارتها، سيَّما وقد اجتالتِ الشــياطين كثيراً منها، وأحالتها من معناها الشرعي المبارك إلى فُهوم ضيِّقة مجتزئة.

لقد تتابع على بني الإنســان حروبٌ أهلكت الحرث والنسل ونالت من دينه ويقينه، وأمســى الحديث عــن الغيوب نوعاً من العَبَث والتَّهويم عند المتخرِّصين؛ ولذا وجب إيناسُ المتَّقين، وتثبيت المتردِّدين، وإقامة الحجة على المنكرين بتَرْدَادِ معاني الشريعة.

إنَّ من طبيعة البشر حبَّ الزيادة والكثرة والنَّماء في الأبدان والأموال والذُّرِّيَّة، وهي طبيعة بشــرية لا تُذَمُّ من حيث هي؛ فقد ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّــهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ** ﴾ [آل عمران: ١٤] شهوات ونســاء وبنين وقناطير الذهب والفضة وخيول ونَعَم وحرث، كلها جاءت على جهة الجمع، والبشــر مجبولون على حبها والاستكثار منها، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَســلُ عُرْيَانا فَخَرَّ عَلَيْــهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى قَالَ بَلَى وَعِزَّتِكَ وَلَكِنْ لاَ غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ)[1].

ودعا رسولُ الله ﷺ لأنسِ بن مالك رضي الله عنه فقال: (اللهمّ أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته)[2]، وحب المال فطرة إنســانية قال تعالى: ﴿ **وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا** ﴾ [الفجر: ٢٠]، والتكاثــر المذموم هــو المُلهِي المُطغِي قــال الله تعالى: ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ** ﴾ [التكاثر: ١].

أمــا (مُطلَــقُ التكاثُرِ فليــس بمذموم، بــل التكاثر في العلم والطاعــة والأخلاق الحميدة هــو المحمود، وهو أصل الخيرات)[3].

فالتكاثر المذموم في القرآن هو المنســوب للبشــر الذين يغلب عليهم الظلم، والجهل، والقُتُور، والكُنُود، قال الله تعالى: ﴿ **نَبَــذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَــلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [البقــرة: ١٠٠].. ﴿ **مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِــقُونَ** ﴾ [آل عمــران: ١١٠].. ﴿ **يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ** ﴾ [المائدة: ١٠٣].

(فالنفوس الشــريفة العُلوية ذات الهِمَم العالية إنما تُكاثر بما يدوم عليهــا نفعه وتكمُل به وتزكــو وتصير مُفلحة، فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك وينافســها في هذه المكاثرة ويسابقها إليها، فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد، وضده تكاثر أهل الدنيا بأســباب دنياهم، فهذا تكاثرٌ مُلْهٍ عن الله والــدار الآخرة، هو صائر إلى غايــة القلة، فعاقبة هذا التكاثر قَلٌّ وفقر وحرمان)[4].

(١) صحيح البخاري (٢٧٩) و(٣٣٩١) و(٧٤٩٣).
(٢) متفق عليه: البخاري (٦٣٧٨) و(٦٣٧٩)، ومسلم (٢٤٨٠) و(٢٤٨١).
(٣) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي (٣٢ / ٢٧٠).
(٤) عُدَّةُ الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم (ص:١٦٢).

فحب الزيادة والنماء في الخير مجبولٌ عليه الإنسان مع سَعَته، فإذا ادلهمَّتْ عليه الخطوب كان أحوج ما يكون إليه، ولذا شاع طلب الخير والنماء بطرق خَفيَّة ليس على قانون الأسباب المعتاد، فالمؤمن يطلبها من الطرائق الشرعية ومن كان دون ذلك يطلبها بطرق غير مشروعة، ولذا سَمَّتِ الشريعةُ طلب النماء من غير قانونها المعتاد بركةً وتبَرُّكاً، فتَمْرُ العجوة ليس بذي تأثير مباشر في المسِّ والسحر على جهة الظاهر، وماء زمزم يروي الظمأ ولا يُشبع الجائع، والأصابع الشريفة للنبي الكريم لا تُنبع ماءً، والطعام القليل لا يكفي الكثرة الكاثرة، والبُكور ليس بذي مَزِيَّةٍ عن الغروب لكنه مبارك، ووسط الطعام مبارك كثير خيرُه بالنصِّ النبوي لا بالنظر الظاهر، فما ثَمَّةَ مَزِيَّةٌ على حوافِّ صَحْفَة الطعام، والاستغفار يجلب الرزق بنص القرآن، وما ثَمَّةَ ارتباطٌ ظاهر، لكنها البَرَكَة في كل ما تقدم أحَالَتْه عن صفته المعتادة.

ونظراً لخروج التبَرُّك عن القانون المعتاد وجب قَصْرُه على ما نصت الشريعة عليه، فالبَرَكَة فرع عن الإيمان بالغيب، وقد امتدح اللهُ تعالى المؤمنين بالغيب فقال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢ – ٣].. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

وها هنا أذكر جملةً صالحة مما يصحُّ التبَرُّك به:

١- ملازمة الإيمان والتقوى سببٌ لتحصيل البَرَكَة ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٢- التبَرُّك بالأماكن والأزمان التي نصَّتِ الشريعة على بركتها، ومنها:

أ / فمن الأماكن:

١- المسجد الحرام: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلاَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ)[1].

٢- المسجد النبوي: عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال: (صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلاَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِئَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ)[2].

والبَرَكَة والخير حالَّةٌ فيه: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ المَازِنِيِّ – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة)[3].

٣- المسجد الأقصى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

٤- المساجد مُبارَكة: عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)[4].

٥- المدينة النبوية، ففي سُكناها خيرٌ وبركة: عن أنسٍ – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال: (اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلت بمكة من البركة)[5].

والبَرَكَة في مُدِّها وصاعها ومِكْيالها: عن أبي هريرة أنه قال: (كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا)[6].

٦- بلاد الشام، فسُكناها يَجلب البركة: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١].

(وبركتها دينية ودنيوية، فهي مقر الأنبياء ومَهبط الملائكة، وبركتها الدنيوية بكثرة الثمار والأقوات والخَصْب والرزق)[7].

ودعا النبي ﷺ للشام بالبَرَكَة فقال: عن ابن عمر قال: (اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا. قال: قالوا: وفي نجدنا؟ قال: قال: اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا. قال: قالوا: وفي نجدنا؟ قال: قال: هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرن

(١) مسند أحمد: ٣/ ٣٤٣.

(٢) متفق عليه: البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤).
(٣) متفق عليه: البخاري (١١٩٥)، ومسلم (١٣٩٠).
(٤) صحيح مسلم (٢٦٩٩).
(٥) متفق عليه: البخاري (١٨٨٥)، ومسلم (١٣٦٩).
(٦) صحيح مسلم (١٣٧٣).
(٧) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٧)، وتفسير البغوي (٣/ ٦٢).

الشيطان)[1].

٧- اليمن، وقد دعا لها النبي ﷺ بالبَرَكَة كما تقدم.

ب/ الأزمان، فتُدرَك بركتُها بموالات الخيرات وعُمران الأوقات فيها:

١- ومن أعظم الأزمان المباركة رمضان وعشره الأخيرة، وليلة القدر، (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه).. (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه).. (من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)[2].

٢- والعشر من ذي الحجة وخيرها يوم عرفة: ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١ - ٢].

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامٍ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي هَذِهِ. قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ؟ قَالَ: وَلَا الْجِهَادُ إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ)[3].

عن أبي قتادة الأنصاري - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم عرفة فقال: (يكفر السنة الماضية والباقية)[4].

٣- ويوم عاشوراء: عن أبي قتادة الأنصاري - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم عاشوراء فقال: (يكفر السنة الماضية)[5].

٤- ويوم الجُمُعة: أبو هريرة - رضي الله عنه - يقول: قال رسول الله ﷺ: (خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا)[6].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أيضاً: أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: (فِيهِ سَاعَةٌ، لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ)، وَأَشَارَ بِيَدِهِ يُقَلِّلُهَا[7].

٥- ويوما الإثنين والخميس: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْاثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا)[8].

٦- وقت النزول الإلهي في كل ليلة في ثلث الليل الآخر: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: (يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟)[9].

٧- أكلة السُّحور: عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ: (تَسَحَّرُوا؛ فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً)[10].

٣- التبَرُّك بالمطعومات والمشروبات والمركوبات وهيئات الطعام:

(١) تمر العَجْوة: عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَنْ تَصَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعَ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً لَمْ يَضُرَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ)[11].

(٢) ماء زمزم: قال أبو ذَرٍّ: إن النبيَّ ﷺ قال: (إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ، إِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ)[12].

(٣) زيت الزيتون: عن أبي أَسِيد قال: قال النبي ﷺ: (كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ)[13].

(٤) النخل: عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ جُلُوسٌ إِذَا أُتِيَ بِجُمَّارِ نَخْلَةٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ لَمَا بَرَكَتُهُ كَبَرَكَةِ الْمُسْلِمِ). فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَعْنِي النَّخْلَةَ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: هِيَ النَّخْلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ التَفَتُّ فَإِذَا أَنَا عَاشِرُ عَشَرَةٍ أَنَا أَحْدَثُهُمْ فَسَكَتُّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (هِيَ النَّخْلَةُ)[14].

(٥) الخيل: عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (البَرَكَة في نواصي الخيل)[15].

(٦) الغنم: عَنْ أُمِّ هَانِئٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهَا: (اتَّخِذِي غَنَمًا فَإِنَّ فِيهَا بَرَكَةً)[16].

(٧) الاجتماع على الطعام والتسمية: حَدَّثَنِي وَحْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: (يَا

(١) صحيح البخاري (١٠٣٧) و(٧٠٩٤).
(٢) صحيح البخاري (٣٧) و(٣٨) و(١٩٠١)، ومسلم (٧٥٩) و(٧٦٠).
(٣) صحيح البخاري (٩٦٩).
(٤) صحيح مسلم (١١٦٢).
(٥) صحيح مسلم (١١٦٢).
(٦) صحيح مسلم (٨٥٤).
(٧) متفق عليه: البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢).
(٨) صحيح مسلم (٢٥٦٥).
(٩) متفق عليه: البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).
(١٠) متفق عليه: البخاري (١٩٢٣)، ومسلم (١٠٩٥).
(١١) أخرجه البخاري (٥٤٤٥)، ومسلم (٢٠٤٧).
(١٢) صحيح مسلم (٢٤٧٣).
(١٣) سنن الترمذي (١٨٥٢)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٩).
(١٤) صحيح البخاري (٥٤٤٤).
(١٥) صحيح البخاري (٢٨٥١)، وأخرجه مسلم (١٨٧٤).
(١٦) سنن ابن ماجه (٢/ ٧٧٣ - رقم ٢٣٠٤)، وهو صحيح؛ انظر: السلسلة الصحيحة رقم (٧٧٣).

رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَأْكُلُ وَلاَ نَشْبَعُ، قَالَ: فَلَعَلَّكُمْ تَفْتَرِقُونَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ)[1].

(١٠) الأكل من جوانب الإناء: عن ابن عبَّاس: أن النبي ﷺ قال: (البَرَكَةُ تَنْزِلُ وَسَطَ الطَّعَامِ، فَكُلُوا مِنْ حَافَتَيْهِ، وَلَا تَأْكُلُوا مِنْ وَسَطِهِ)[2].

(١١) لَعْقُ الأصابع بعد الأكل ولعق إناء الطعام وأكل اللُّقْمَة الساقطة: عن أنس: أن رسول الله ﷺ كَانَ إِذَا أَكَلَ طَعَامًا لَعِقَ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ، قَالَ: وَقَالَ: إِذَا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيُمِطْ عَنْهَا الْأَذَى وَلْيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ)، وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْلُتَ الْقَصْعَةَ، قال: (فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمُ الْبَرَكَةُ)[3].

٤- التَّبَرُّك بأمور متعدِّدة في حياة الإنسان ومعاشه، منها:

(١) الصِّدق في التعامل: عن حكيم بن حزام - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (البَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، - أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا - فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا)[4].

(٢) سَخَاء النَّفْس في طلب المال: عن حَكِيم بْنِ حِزَام - رضي الله عنه - قال: (سَأَلْتُ رسولَ الله ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ، فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ: يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى.

قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَدا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي اللهُ عنه يَدْعُو حَكِيما إِلَى العَطَاءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رضي الله عنه دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ، أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدا مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تُوُفِّيَ)[5].

(٣) البُكور في طلب الرزق: عن صخر الغامدي قال: قال رسول الله ﷺ: (اللهمَّ بارك لأمتي في بُكورها)[6].

(٤) البِرُّ والإنفاق؛ صدقةً وزكاةً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، وقال: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقد ثبت في الحديث القدسي عند مسلم قول الله تعالى: (يا ابنَ آدم أنفِقْ، أُنْفِقْ عليك)[7]، واتفق الشَّيخان على حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقا خَلَفا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكا تَلَفا)[8].

(٥) صِلَةُ الرَّحِم، التي قطعها كثير من الناس لأجل الدنيا وكسبها، فقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ)[9] وبسط الرزق: توسيعه وتكثيره أو البَرَكَة فيه.

(٦) التوكُّل على الله، وهذا من تمام التعلُّق به وتوحيده، فالمرْءُ يبذل أسباب الرزق، ثم لا يتعلق بها أو بمن جعله الله سبباً لها، بل بمُسدِي النعمة، وقد روى الإمام أحمد والترمذي وصحَّحه حديث الفاروق عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: (لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصا وَتَرُوحُ بِطَانا)[10].

(٧) العيدان: ويبدأ الناس بصلاة العيد يشكرون الله فيها على ما أعطاهم من نِعَمِه الكثيرة؛ فيُبارك لهم في هذه النعم ويَزيدها ويُنمِّيها لهم، ولذلك تقول أمُّ عطية رضي الله عنها: (كُنَّا نُؤْمَرُ أَنْ نَخْرُجَ يَوْمَ العِيدِ حَتَّى نُخْرِجَ البِكْرَ مِنْ خِدْرِهَا، حَتَّى نُخْرِجَ الحُيَّضَ، فَيَكُنَّ خَلْفَ النَّاسِ، فَيُكَبِّرْنَ بِتَكْبِيرِهِمْ، وَيَدْعُونَ بِدُعَائِهِمْ يَرْجُونَ بَرَكَةَ ذَلِكَ اليَوْمِ وَطُهْرَتَهُ)[11].

(٨) الدُّعاء بعد الطعام: عن أبي أُمامَة - رضي الله عنه -، أن النبيَّ ﷺ كان إذا رَفَعَ مائدته قال: (الحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرا طَيِّبا مُبَارَكا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلاَ مُوَدَّعٍ وَلاَ مُسْتَغْنًى عَنْهُ، رَبَّنَا)[12].

وعن ابن عبَّاس - رضي الله عنهما - قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا

(١) سنن أبي داود (٣٧٦٤)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٢٨).
(٢) سنن الترمذي (١٨٠٥)، وقال الشيخ الألباني: صحيح.
(٣) صحيح مسلم (٢٠٣٤).
(٤) متفق عليه: البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).
(٥) متفق عليه: البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥).
(٦) سنن الترمذي (١٢١٢)، وقال الشيخ الألباني: صحيح.
(٧) صحيح مسلم (٩٩٣).
(٨) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).
(٩) أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).
(١٠) أخرجه أحمد (٢٠٥)، وابن ماجه (٤١٦٤)، والترمذي (٢٣٤٤)، وصحَّحه الأرناؤوط والألباني (الصحيحة: ٣١٠).
(١١) صحيح البخاري رقم (٩٧١).
(١٢) صحيح البخاري (٥٤٥٨).

وخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى مَيْمُونَةَ بِنْتِ الْحَارِثِ، فَقَالَــتْ: أَلا نُطْعِمُكُمْ مِنْ هَدِيَّةٍ أَهْدَتْهَــا لَنَا أُمُّ عُفَيْقٍ[1]؟ قَالَ: فَجِيءَ بِضَبَّيْنِ مَشْوِيَّيْنِ، فَتَبَزَّقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ: كَأَنَّكَ تَقْذَرُهُ؟ قَالَ: "أَجَلْ"، قَالَتْ: أَلا أُسْــقِيكُمْ مِنْ لَبَنٍ أَهْدَتْهُ لَنَا؟ فَقَالَ: بَلَى، قَالَ: فَجِيءَ بِإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَشَــرِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَخَالِدٌ عَنْ شِــمَالِهِ، فَقَالَ لِي: "الشَّرْبَةُ لَكَ وَإِنْ شِئْتَ آثَرْتَ بِهَا خَالِدا" فَقُلْتُ: مَا كُنْتُ لأُوثِرَ بِسُؤْرِكَ عَلَيَّ أَحَدا، فَقَالَ: مَنْ أَطْعَمَهُ اللهُ طَعَاما فَلْيَقُلْ: اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعِمْنَا خَيْرا مِنْهُ، وَمَنْ سَقَاهُ اللهُ لَبَنا فَلْيَقُلْ: اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَــيْءٌ يُجْزِئُ مَكَانَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ غَيْرَ اللَّبَنِ)[2].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْــرٍ قَالَ: نَزَلَ رَسُولُ اللهِ عَلَى أَبِي قَالَ: فَقَرَّبْنَــا إِلَيْهِ طَعَامــا وَوَطْبَةً، فَأَكَلَ مِنْهَا، ثُــمَّ أُتِيَ بِتَمْرٍ فَكَانَ يَأْكُلُهُ وَيُلْقِي النَّوَى بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ، وَيَجْمَعُ السَّــبَّابَةَ وَالْوُسْــطَى قَالَ شُــعْبَةُ: هُوَ ظَنِّي، وَهُوَ فِيهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ، إِلْقَاءُ النَّوَى بَيْنَ الإِصْبَعَيْنِ، ثُمَّ أُتِيَ بِشَــرَابٍ فَشَرِبَهُ، ثُمَّ نَاوَلَهُ الَّذِي عَنْ يَمِينِهِ، قَالَ فَقَالَ أَبِــي، وَأَخَذَ بِلِجَامِ دَابَّتِهِ: ادْعُ اللهَ لَنَا، فَقَالَ: (اللهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَا رَزَقْتَهُمْ، وَاغْفِرْ لَهُمْ وَارْحَمْهُمْ)[3].

(٩) الدعاء للزوجين:

عَنْ عَقِيلِ بْنِ أَبِي طَالِــبٍ رضي الله عنه، أَنَّهُ تَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي جُشَم، فَقَالُوا: بِالرِّفَاءِ وَالْبَنِينَ، فَقَالَ: لاَ تَقُولُوا هكَذَا، وَلكِنْ قُولُوا كَمَا قَالَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ: (اللهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ، وَبَارِكْ عَلَيْهِمْ)[4].

وعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إِذَا رَفَّأَ الإِنْسَــانَ إِذَا تَزَوَّجَ قالَ: (بَارَكَ الله لك، وبَارَكَ عَلَيْكَ، وَجَمَعَ بَيْنَكُمَا في الْخَيْرِ)[5].

(١٠) السَّلامُ على الأهل:

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه –، أن رســول الله ﷺ قــال: (يَا بُنَيَّ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَــلِّمْ يَكُونُ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ)[6].

(١١) الحجامة:

أخرج البيهقي وابن الســني عن ابــن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: (الْحِجَامَةُ عَلَى الرِّيقِ أَمْثَلُ، وَفِيهِ شِــفَاءٌ وَبَرَكَةٌ، وَتَزِيدُ فِي الْعَقْلِ وَفِي الْحِفْظِ، فَاحْتَجِمُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ يَــوْمَ الْخَمِيسِ، وَاجْتَنِبُوا الْحِجَامَةَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ وَالْجُمُعَةِ وَالسَّــبْتِ وَيَوْمَ الْأَحَدِ تَحَرِّيا، وَاحْتَجِمُوا يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالثُّلَاثَــاءِ، فَإِنَّهُ الْيَوْمُ الَّذِي عَافَى اللَّهُ فِيــهِ أَيُّوبَ مِنَ الْبَلَاءِ، وَضَرَبَــهُ بِالْبَلَاءِ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَبْدُو جُذَامٌ وَلَا بَرَصٌ إِلَّا يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ أَوْ لَيْلَةَ الْأَرْبِعَاءِ)[7].

---

(١) قال الحافظ ابنُ حجر فيما نقله ابن عَلان عنه في «الفتوحات الربانية» (٥/٢٣٨): «ووقع في رواية ابن عيينة في هذه الطريق (أم عُفيق) بالعين المهملة والفاء ثم القاف مُصغراً، وأصل الحديث في الصحيح بلفظ (أم حفيد) أوله حاء مهملة وآخره دال وهو المشهور ... وهي أختُ ميمونة وأخت لُبابة الكبرى أمّ ابن عباس» .

(٢) أخرجه أحمد (١٩٧٨)، والترمذي (٣٤٥٥) وقال: حديث حسن، وكذا حسنه الألباني والأرناؤوط.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٤٢).

(٤) أخرجه ابن ماجه (١٩٠٦) وصحَّحه الألباني.

(٥) أخرجه أحمد (٨٩٥٧)، وأبو داود (٢١٣٠)، والترمذي (١٠٩١) وقال: حَدِيثٌ حسنٌ صحيحٌ.

(٦) أخرجه الترمذي (٢٦٩٨)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٠٨): حسن لغيره.

(٧) أخرجه ابن ماجه (٣٤٨٧)، وحسَّنه الألباني بمجموع رواياته كما في السلسلة الصحيحة (٧٦٦).

البَرَكَةُ في حياة المسلم

د. عطية عدلان

إنها - بحقٍّ - ظواهر تستلفت النظر، وتستثير التأمل والتفكير، تلك التي لا تقلُّ في إبهارها وإعجازها وأخذها بمجامع القلوب عن كثيرٍ من الآيات الكونية الرائعة، وكثيرٍ من البراهين الشرعية الساطعة!

كيف وقعت مثلُ هذه الأمور على هذا النحو من الإبهار والإعجاز؟!

كيف استطاع رسول الله ﷺ في ثلاثٍ وعشرين سنة فقط، ووسط ذلك المحيط الضخم من الجاهليات العاتية العادية؛ أن يبنيَ أمةً عقِمت أرحامُ القرون والدهور أن تلدَ مثلها، وأن يشيد حضارة لم ولن تسعدَ البشرية بمثلها منذ مولدها إلى أن تُطوى صفحة هذه الحياة الدنيا؟!

وكيف استطاعت هذه الأمَّة الأمِّية التي خرجت من قاع الصحراء بأقل جيوش أمم الأرض عدداً وعُدة، أن تُسقط الإمبراطوريات العتيقة، وأن تَبسط سلطانها في أقل من ربع قرن من الزمان على المعمورة، من حدود الصين إلى شواطئ الأطلسي؟!

وكيف استطاع علماءُ هذه الأمة أن يصنعوا مثل هذه المعجزات الباهرة، إلى حد أن الواحد منهم - في عمر قصير - يكتب من المؤلَّفات ما يحتاج منَّا إلى أعمار مديدة لقراءتها وتعلُّم ما فيها؟!

هذه الظواهر - وأمثالها كثير - ليس لها إلا تفسير واحد؛ إنها البركة.

أجل إنها البركة..

البَرَكَة التي إن وُجدت وحلَّت، اتسعت الأوقاتُ، وتضاعفت الطاقات، وتحققت الإنجازات، ووقعت المعجزات، وإن فُقدت أو رحلت، فربما خرج الإنسانُ من هذه الحياة - مهما طال عمره، وكثُر سعيُه - بلا زاد قدَّمه، ولا أثر خلَّفه.

والبَرَكَة تعني تكاثرَ الخير ونمائه واستقراره واستمراره[1]، ومصدرها الذي تُلتمس منه واحد، إنه الله تبارك وتعالى، فهو وحده الذي (تَبَارَك) أي: كثُرت بركاتُه وتزايد خيره[2]، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١ ، وقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، وقال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

لذلك علَّمنا رسول الله ﷺ أن نلتمس البَرَكَة من الله وأن نسأله إياها، فها هو - على سبيل المثال - كان إذا رأى باكورة الثمر دعا الله تعالى وسأله البركة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى الثمر أُتي به فيقول: (اللهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَفِي ثِمَارِنَا، وَفِي مُدِّنَا، وَفِي صَاعِنَا؛ بَرَكَةً مَعَ بَرَكَةٍ) ثُمَّ يُعْطِيهِ أَصْغَرَ مَنْ يَحْضُرُهُ مِنَ الْوِلْدَانِ[3].

هذه البَرَكَة الربانية حلَّت على هذه الأرض قبل أن يستخلف اللهُ الإنسان فيها بملايين السنين، قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ٩ - ١٠]، وبارك فيها أي: جعلها مباركةً قابلة للخير والبذر والغراس[4].

لكنْ يَنتفعُ ببركات الله في هذه الأرض الذين اتَّقوا ربَّهم وعَمَرُوها بمنهج الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وعلى العكس من هذا فإن التغيير والتبديل والإعراض عن منهج الله تعالى سبب لزوال البَرَكَة وذهاب الخير؛ وقد قصَّ الله تعالى علينا نبأ (سبأ) الذين أُبدلوا من بعد البركات والنماء محقاً؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٥ - ١٦]، وبيَّن الحق تبارك وتعالى أن هذه الأرض التي بارك فيها قد مُلئت فساداً بسبب ما اكتسبت أيدي العباد، فقال سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وإذا كانت البركات الربانية قد سبقت بني الإنسان إلى هذه الأرض؛ إنعاماً من المولى على عباده، فإنها كذلك قد تبعَتْهم وتداركتهم في كتبه المنزلة وشرائعه المحكمة؛ لتتمَّ عليهم النعمةُ بالهداية والرشاد، قال تعالى عن القرآن الكريم: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ومعنى مبارك أي: كثير المنافع والفوائد[5]، وقد وصفه الله بالبَرَكَة لأنه يبارك من اتبعه وعمل به[6].

فالذين يتَّبعون كتاب الله، ويعملون به، ويتلونه آناء الليل وأطراف النهار؛ يُبارَك لهم في قلوبهم وإيمانهم وأعمالهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨]، ويبارَك لهم في أرزاقهم ومعايشهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، والمقصود بما أنزل إليهم من ربهم: القرآن[7].

ولقد أشارت نصوص القرآن والسنة إلى أسبابٍ تُلتَمَسُ بها البَرَكَةُ من الله عز وجل، وفيما يلي بيان لبعض هذه الأسباب:

١- تقْوَى الله عز وجل والتوكُّل عليه: يقول الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن

(١) انظر مختار الصحاح (ص: ٤٩)، والمعجم الوسيط (ص: ٥٢)، والمفردات في غريب القرآن (ص: ٢٤)، ومعجم مقاييس اللغة (ص: ٢٣٠).
(٢) انظر المحرر الوجيز (٦/٤١٦)، إعراب القرآن الكريم وبيانه (٥/٣٢٥).
(٣) رواه مسلم (١٣٧٣).
(٤) تفسير ابن كثير (٤/٩٠).
(٥) تفسير النسفي (٢/٢٣).
(٦) تفسير ابن كثير (٢/١٨٥).
(٧) تفسير ابن كثير(٢/٧٣).

﴿يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣]، فليس هناك أعظمُ بركة من أن يأتيَ للإنسان رزقُه من حيث لا يحتسب ولا يتوقَّع، وأن يكون الله عز وجل هو حَسْبه وكافيه في تحقيق ما يؤمِّل ودفْع ما يحاذر، وأن يجعل الله تعالى له من كل همٍّ فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً؛ إنها أسباب البركة الواسعة، والعافية السابغة، والخير الكثير المتنوع المتعدد، تجتمع وتتكاثر حول من يتَّقي اللهَ ويتوكَّل عليه، ويمتلئ قلبُه بخشيته وتفويض الأمر إليه.

٢- الاستغفار مع ترك الإصرار: إن ذنوبَ الإنسان ومعاصيَه لتَحجُب عنه البركاتِ التي أودعها الله عز وجل في هذه الأرض، والتي بثَّها في وحيه المعصوم، وشريعته المحكَمة؛ فإذا به يسعى ولا بركة في سعيه، ويجمع ولا بقاء ولا قرار لما يجمعه، فإذا ما ثاب إلى رشده، وآبَ إلى ربِّه، ولهج لسانُه بالاستغفار؛ فإن هذا الاستغفارَ الحارَّ يمزِّق الحُجُبَ، ويحرق الأستار، التي كانت تَحول بين العبد وما ساق اللهُ له من البركات، فإذا بالخير يتدفَّق من كل جانب، وينحدر من كل صَوْب، على هذا النحو الذي صوَّره القرآن، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾ [نوح: ١٠ - ١٢]، وقال جلَّ شأنه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣].

٣- الدُّعاء بالبركة: فمما لا شكَّ فيه أن الدعاء هو أقربُ الأسباب لنيل ما عند المولى عز وجل من الخير، فمن دعا الله تعالى بالبَرَكَة فاستجاب الله دعاءه؛ فإنه يحصِّلُ البَرَكَةَ من أخْصَرِ طرقها؛ لذلك كان رسول الله ﷺ يُعطيها من يحب، فعن أنس قال: (مَاتَ ابْنٌ لِأَبِي طَلْحَةَ، مِنْ أُمِّ سُلَيْم، فَقَالَتْ لِأَهْلِهَا: لَا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ. قَالَ: فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشَاءً، فَأَكَلَ وَشَرِبَ، فَقَالَ: ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَتْ تَصَنَّعُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَوَقَعَ بِهَا.

فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنْهَا، قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْماً أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ، فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ، أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قَالَ: لَا، قَالَتْ: فَاحْتَسِبِ بما كان ابْنَكَ.

فغضِب أبو طلحة وانطلق حتى أتى رسولَ الله ﷺ فأخبره،

فقال رسول الله ﷺ: (بَارَكَ اللهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا). قال: فحَمَلَتْ وأنجبت بعد ذلك عشرةَ أولادٍ كلهم يقرؤون القرآن[1].

٤- سلوك السبيل السَّويِّ في الكسب والاسترباح وطلب الرزق الحلال والتعفُّف عن الحرام وعن الشُّبهات: فإذا كان المسلم ينشُد البَرَكَةَ في رزقه وفي صحته وفي ولده؛ فعليه بتحرِّي الحلال في التكسب، وبالترفع عن كل ما لا يحلُّ له من المال والمتاع، وعليه بالصدق والأمانة والعفَّة والصيانة، وألا ينغمس في الرِّبا أو الغشِّ أو ما شابه ذلك من المحرمات التي فيها أكلٌ لأموال الناس بالباطل، فإنه إن سار على منهج الله فإن البَرَكَة ستحِلُّ في كسبه ورزقه وحياته كلها.

وهذه نماذجُ متفرقة من النصوص النبوية تقرِّر وتؤكد هذه الحقيقة:

عن حَكيم بن حِزام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (البَيِّعَانِ بالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، - أَوْ قَالَ: حَتَّى يَتَفَرَّقَا - فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا)[2].

(١) صحيح مسلم (٢١٤٤).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

وعن ثوبان قال: (جاء حَكيم بن حزام فسأل النبي ﷺ فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، فقال: (يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ، اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى).

قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أَرْزَأُ أَحَداً بَعْدَكَ شَيْئاً حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه يَدْعُو حَكِيماً إِلَى العَطَاءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رضي الله عنه دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئاً، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الفَيْءِ فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَداً مِنَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تُوُفِّيَ)[1].

وقال الله تبارك وتعالى عن الربا ومَحْقه للبركة: ﴿ **يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** ﴾ [**البقرة** : ٢٧٦].

٥- البر والصلة وحُسن المعاملة مع الخَلق:

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ)[2]، والمقصود بقوله يُنسأ له في أثره: أن تحصُل له البَرَكَةُ في عُمره، وأن يوفَّق للطاعات، ولعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة[3].

وعن عائشة رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (صِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ، يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ)[4].

٦- حُسن تنظيم الوقت والمبادرة إلى اغتنامه: فالوقتُ هو رأس مال المسلم، ومسؤولياتُه في هذه الحياة تضيق بها الأوقات، وتفنى فيها الأعمار؛ لذلك كانت المبادرةُ إلى اغتنام الوقت وحُسن تنظيمه واجباً من الواجبات الكبار؛ لأن واجبات المسلم لا تتمُّ إلا بهذا، وما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجبٌ، وقد دعا النبي ﷺ لأمته بالبَرَكَة في بكورها؛ لأن البكور مبادرةٌ إلى اغتنام الوقت، وتبكيرٌ إلى حسن استغلاله وتنظيمه؛ فعن صَخْر بن وَدَاعَة الغامِدِيِّ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا)، وَكَانَ إِذَا بَعَثَ سَرِيَّةً أَوْ جَيْشاً بَعَثَهُمْ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ، وَكَانَ صَخْرٌ رَجُلاً تَاجِراً، وَكَانَ يَبْعَثُ تِجَارَتَهُ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ فَأَثْرَى وَكَثُرَ مَالُهُ[5].

٧- الجود والكرم والتكافل: يقول الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ [**سبأ** : ٣٩]، ويقول: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [**البقرة** : ٢٦١]، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (كُلُوا جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا؛ فَإِنَّ طَعَامَ الْوَاحِدِ يَكْفِي الِاثْنَيْنِ، وَطَعَامَ الِاثْنَيْنِ يَكْفِي الثلاثة وَالْأَرْبَعَةَ، كُلُوا جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا؛ فإن البَرَكَة في الجماعة)[6]، وقال ﷺ: (فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ، يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ)[7].

٨- الجهاد في سبيل الله: يقول النبي ﷺ: (الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ: الْأَجْرُ وَالمَغْنَمُ)[8]، فالجهاد خيرٌ وبركة على هذه الأمَّة إلى يوم القيامة، فيه الأجر الكبير والثواب الجزيل، وفيه الرِّزق الواسع الشريف الذي هو أشرفُ الأرزاق، والذي هو رزق أشرفِ الخلق محمَّد ﷺ (وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي)[9]، وفيه - إلى جانب ذلك - قيامُ الدين، وتحقيقُ مصالح العباد في الدارَيْن.

إن البَرَكَةَ نعمةٌ من نِعَم الوهاب، ونَفْحَةٌ من الواسع العليم، والكيِّس الفطِنُ هو الذي يلتمسها من المولى الكريم، ويدخل بالتماسه على ربه من الأبواب التي رضِيها وشرَعها، والتي ذكرْنا بعضها كأسبابٍ لتحصيل البركة، وإن المسلم - وبخاصة في هذه الأزمان - لفي مسيس الحاجة إلى نيل البركات؛ ليصلَ إلى ما يريد من خيرَي الدنيا والآخرة من أقصر الطُّرق وأخصرها.

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (١٣٩٦)، ومسلم (٢٤٣٤).
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧).
(٣) انظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٩).
(٤) ((رواه أحمد (٢٥٢٥٩) وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٦٧).

(٥) أخرجه أبو داود (٢٦٠٦) ، والترمذي (١٢١٢) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٢٢٣٦)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٩٣): صحيح لغيره.
(٦) رواه ابن ماجه (٣٢٨٧)، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٦٩١)، وصحيح الجامع (٤٥٠١).
(٧) أخرجه أحمد (١٦٠٧٨)، وأبو داود (٣٧٦٤) ، وابن ماجه (٣٢٨٦)، وقال الأرنؤوط: حسن بشواهده.
(٨) متفق عليه: رواه البخاري (٢٨٥٢)، ومسلم (١٨٧٣).
(٩) أخرجه أحمد (٥١١٤)، وأورده البخاري تعليقاً في باب الجهاد من صحيحه (٤/ ٤٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٣١) والإرواء (١٢٦٩).

التبَرُّك المنحرف.. بَواعِثه ومظاهِره

أكـرم مـبـارك عصبان

إنَّ مِـن أهمِّ بواعثِ الانحراف فـي كثير من المفاهيم يعودُ إلى وجـود اللَّبْس في المعنى، فيركب المبطلون إجمالَ اللفظ ابتغاءَ تمريرِ معناه المنحرف، وتلبيساً على الأمة التي تقبله بمعناه الصحيح، ويُثمر هذا اللبسُ كتمانَ الحق، وقد حذر القرآن من هذا المسلك؛ قال تعالى: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿يَـا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُـونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُـونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

فالتوسُّلُ والتبَرُّك وزيارة القبور والزهد مثلاً يستغلها أهل الباطل ويلبسون شـركهم في مضامينها، وقد احتوت على معنى شـرعيٍّ وآخرَ بِدْعيٍّ وثالثٍ شِرْكيٍّ، فيطلقونها ويقصدون بها المعنى المنحرف، ويلبسـون عليه ثوب الأدلة للمعنـى الصحيح، فيقع الناس في أمر مَرِيج، وهكذا دخل أهل الباطل على العامة، وساغت مفاهيمهم؛ إذ لو أظهروا قصدهم لنكرَهم الناس؛ فإنه لا يرضى الوقوعَ في الشرك أحدٌ إلا أن يشاء الله؛ فيعمدون إلى هذا المكر.

ومن الخلط البيِّن هنا ما يقع في مفهوم التبَرُّك الذي نريد أن نُزيلَ الإشـكال على الانحـراف الذي دخل عليه، ونسُدُّ الذرائع المُفضية إلى الشرك بالله - عز وجل - تحت هذا المسمَّى، وهو بريء من لَوْثته.

وقبل أن نفيض في الحديث عن المعنى المنحرف يجدُر بنا أن نوضح معناه وقسمه الصحيح الذي تؤازره النصوص، حتى لا نضاهيَ سبيل الغالطين الذين إن رأوا الوجه القبيح من الشيء ردُّوه كلَّه، فتصيبهم مَعَرَّةٌ بغير علم، ويطيب لأهل الباطـل في نقدهم، إذ إنهم حـين ردوه برمته ردوا المعنى الصحيح الذي يحتويه، وهذا سـبيل من يُبادِر في الإنكار، ويفارق الإنصاف، كما هو الحال في الألفاظ المجملة.

فالتبَـرُّك هو طلبُ البركة، وطلـب البَرَكَة لا يخلو من أمرَيْن: إمَّا أن يكون التبَرُّك بأمر شـرعي معلوم دلَّتْ عليه النصوص، مثل: القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَـارَكٌ﴾ [الأنعـام: ٩٢]، وصُوَرُ بركته كثيـرة؛ وإما أن يكون التبَرُّك بأمر غير مشـروع، كالتبَرُّك بالأشـجار والأحجار والقبور والقباب والبقاع ونحو ذلك، مما نبين حقيقته، من خلال هذه المحاور، لكن نذكر أولاً أهمَّ البواعث للوقوع في التبَرُّك المنحرف، وهي:

- الخلطُ المتعمَّد بينه وبين المشروع كما سبق.
- تبنِّـي أهـل الغلبـة لترويجه، الذيـن لا يلوون على النصوص، وإنما يفعلون ما أُشرِبَتْه قلوبُهم من كل شُبهة.
- الجهل بدين الله، فلا يرى الجهَلة بأسـًا من مُضاهَاةِ المشركين.
- الفتنـة بما يحصل من صلاحٍ أو خيـرٍ للمتبَرَّك به، فيرتكس مَن لا حظَّ له من الحق في عبادة غير الله باسـم التبَرُّك.
- الشَّهْوة الخفية من الجاهِ والمال الذي يتحصَّل به بعض من يحافظ على هذا التبَرُّك المنحرف.

وبعد ذكر هذه الدواعي، نأتي إلى وجودها في المظاهر عبر المعالم التالية:

أولاً: القرآن يسد الذرائع:

من التبَرُّك الممنوع ما رآه الغالبون على الأمر في شأن أصحاب الكهف، حيث بنَوْا عليهم مسجداً، قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾ [الكهف: ٢١]، وهذا فيه دلالة على الخطوات التي تقود إلى مثل هذا اللون من التبَرُّك الممنوع، وهو كون أصحاب الكهف صالحين قد ظهرت لهم كرامة وآية ظاهرة جَعَلت فئةً من الناس تبتدع هذه البدعة.

وفي تفسير ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾ قال: (حَكَى ابْنُ جَرِيرٍ فِي الْقَائِلِينَ ذَلِكَ قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: إِنَّهُمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ. وَالثَّانِي: أَهْلُ الشِّرْكِ مِنْهُمْ. فَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَالظَّاهِرُ أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا ذَلِكَ هُمْ أَصْحَابُ الْكَلِمَةِ وَالنُّفُوذِ. وَلَكِنْ هَلْ هُمْ مَحْمُودُونَ أَمْ لَا؟ فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ»[1] يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا. وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، أَنَّهُ لَمَّا وَجَدَ قَبْرَ دَانْيَالَ فِي زَمَانِهِ بِالْعِرَاقِ، أَمَرَ أَنْ يُخْفَى عَنِ النَّاسِ، وَأَنْ تُدْفَنَ تِلْكَ الرُّقْعَةُ الَّتِي وَجَدُوهَا عِنْدَهُ، فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَلَاحِمِ وَغَيْرِهَا)[2].

وقال الحافظ ابنُ رجب في فتح الباري في شرح البخاري عند حديث: (لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ): (وقد دلَّ القرآن على مثل ما دلَّ عليه هذا الحديث، وهو قول الله عز وجل في قصة أصحاب الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾، فجعل اتخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغَلَبة على الأمور، وذلك يُشعِرُ بأن مستنده القهر والغلبة واتباع الهوى، وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل المنتصر لما أنزل الله على رسله من الهُدى)[3].

فمن البواعث على رَواج التبَرُّك المنحرف قيامُ أهل الغلبة والملك على العناية به، وهكذا ترى أن الذي يتولى هذه المخالفات هو ممن لا حظَّ لهم من العلم والهدى، وإنما هو اتباع الهوى، لأن هذا البناء يُفضي إلى تعظيم المقبورين، والافتتان بهم، وصَرْف العبادة إليهم، كل ذلك باسم التبَرُّك بهم، وقد قال النووي في شرح مسلم: (قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّمَا نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ اتِّخَاذِ قَبْرِهِ وَقَبْرِ غَيْرِهِ مَسْجِداً خَوْفاً مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي تَعْظِيمِهِ وَالِافْتِتَانِ بِهِ فَرُبَّمَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى الْكُفْرِ كَمَا جَرَى لِكَثِيرٍ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ)[4].

وصيانةً لجَناب التوحيد تأتي تَعْمِيَةُ قبر دانيال التي أشار إليها ابنُ كثير آنفاً؛ لئلا يَفتَتِن به الناسُ بحجة التبَرُّك بقبره، وقد وجدوه ميتاً كما قال أبو العالية: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعمِّيَه على الناس؛ لا ينبشونه[5].

والحقُّ أبلج، لكن أمراً قد بدا للغالبين في إضلال العامة، فيحجبون نور الحق، ويُرْدُون أتباعَهم في المهاوي؛ فلا يسمعون لوعظ النصوص كما قال الأول:

كأنّي أُنادي صخرةً حين أعرضتْ
من الصُّمِّ لو تمشي بها العصمُ زلَّتِ

ثانياً: السنة والنكير على التبَرُّك الشركي:

لقد كان للمشركين سِدْرةٌ يتبَرَّكون بها، ويعلِّقون أسلحتهم عليها؛ رجاءَ النصر على أعدائهم، فعن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حُنين ونحن حديثو عَهْدٍ بكفر وللمشركين سِدْرةٌ يعكفون حولها ويَنُوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذاتُ أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يَا رَسُولَ الله اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فقال النبي ﷺ: (الله أكبر، هذا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)[6].

فهؤلاء بعض مُسلِمَة الفتح ممن لم يَفْقَهْ في الإسلام أراد أن يَنُوطَ السلاح بسدرةٍ تبَرُّكاً كما للمشركين نظيرها، فتعجَّب عليه الصلاة والسلام من هذا الجهل بالإسلام في مفهوم التبَرُّك المنحرف، وأنه مضاهاة للمشركين.

والعلة دائرةٌ مع معلولها فحيثما وُجِدَ هذا النوع من التبَرُّك بالقبور أو الأشجار أو الأحجار أو العيون التي ينوطون بها حاجاتهم؛ وُجِدَ النكيرُ على أصحابه، وعلى هذه الجادَّة مشَى كوكبة من الأعلام في الاستدلال بهذا النص نذكر أقوالهم

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور (١٣٣٠)، ومسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المسجد على القبور واتخاذ الصور فيها (٥٢٩).
(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ١٤٧).
(٣) فتح الباري لابن رجب (٦/ ٢٨٠).
(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٣).
(٥) وقد ذكر هذه القصةَ ابنُ كثير في البداية والنهاية، (٢/ ٤٠)، وقال: إسناده صحيح إلى أبي العالية، وذكر لها أيضاً طرقاً أخرى تؤكد أن القصة واقعة وصحيحة.
(٦) أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، باب لتركبن سنن من كان قبلكم (٢١٨٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢١٨٠).

على النحو التالي:

ـ قال الإمام أبو بكر الطُّرطُوشيُّ: انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس، ويعظِّمونها، ويرجون البُرْءَ والشفاء من قِبَلِها، ويضربون بها المسامير والخرق؛ فهي ذاتُ أنواطٍ فاقطعوها[1].

ـ وقال الحافظ أبو شامة: ومن هذا القسم أيضاً ما قد عَمَّ به الابتلاء من تزيين الشيطان للعامة تخليقَ الحيطان والعمد، وسرج مواضع مخصوصة من كل بلد يَحكِي لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شُهِرَ بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك، ويحافظون عليه، مع تضييعهم فرائضَ الله وسننَه، ويظنون أنهم متقرِّبون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم، فيعظِّمونها ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنَّذْر لها، وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر[2].

ـ وقال العلامة ابنُ القيم: فإذا كان اتخاذُ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعُكوف حولها اتخاذَ إلهٍ مع الله تعالى مع أنهم لا يعبدونها، ولا يسألونها؛ فما الظنُّ بالعكوف حول القبر والدعاء به ودعائه والدعاء عنده؟ فأيُّ نسبةٍ للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون!

ومَن له خبرةٌ بما بعَثَ الله تعالى به رسولَه وبما عليه أهل الشرك والبدع اليوم في هذا الباب وغيره؛ علِمَ أن بين السَّلَف وبين هؤلاء الخلوف من البُعد أبعدَ مما بين المشرق والمغرب، وأنهم على شيء والسَّلَف على شيء كما قيل:

سارَتْ مشرِّقةً وسرتُ مغرِّباً
شتانَ بينَ مُشَرِّقٍ ومغرِّبِ[3]

وهكذا نجد أنَّ مَن تأمَّل سيرة السلف التي تعكس التربية الصحيحة، رأى البَوْن الشاسع بينهم وبين من لم يُبالِ بمَوَاطِنِ الرِّيبة غروراً بنفسه؛ فأقام المشاهد والقباب والتوابيت والزيارات، وأدام العكوف عند ساكنيها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم (١ / ٢١١).
(٢) الحوادث والبدع، ثم ذكر ما صنعه بعضُ أهل العلم ببلاد إفريقية بهدم عين وقت السَّحَر تسمى عين العافية فُتِن بها العوام؛ فمن تعذَّر عليه نكاح أو ولد مضى إليها، وهدمها وأذَّن للصبح عليها ثم قال: «اللهم إني هدمتها لك فلا ترفع لها رأساً».
(٣) إغاثة اللهفان لابن القيم (١ / ٢٠٥).

ثالثاً: موقف الصحابة من التبَرُّك بشجرة الحُدَيْبِيَة:

لقد شهدت شجرةٌ بالحُدَيْبِيَة بيعة الرضوان، وذكرها القرآن؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وكان الصحابة يعرفونها حين يمرُّون بها في طريقهم للحج، وقد خُفِيت هذه الشجرة بعد ذلك، ووصف ابن عمر رضي الله عنهما حادثة خفائها بقوله: (كانت رحمةً من الله)، قال الحافظ ابنُ حجر: (وبيان الحكمة في ذَلِك وهو أن لا يحصل بِهَا افتتان لِما وَقع تحتها من الخير، فَلو بَقِيت لَما أُمِنَ تعظيم بعض الجهال لَها، حتى ربما أفضى بِهِم إلى اعتِقَاد أَن لَها قوةَ نفعٍ أَو ضُرٍّ كما نراه الآن مُشَاهَداً فِيمَا هو دونها)[4].

وقد روى البخاري في صحيحه عن ابْنِ عُمَرَ رَضِي الله عنهما قال: (رَجَعْنَا مِنَ العَامِ المُقْبِلِ فَمَا اجْتَمَعَ مِنَّا اثْنَانِ عَلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي بَايَعْنَا تَحْتَهَا، كَانَتْ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ)[5].

وروى البخاري أيضاً عن طَارِقِ بن عبد الرحمن قال: (انْطَلَقْتُ حَاجّاً، فَمَرَرْتُ بِقَوْمٍ يُصَلُّونَ، قُلْتُ: مَا هَذَا المَسْجِدُ؟ قَالُوا: هَذِهِ الشَّجَرَةُ حَيْثُ بَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، فَأَتَيْتُ سَعِيدَ بْنَ المُسَيِّبِ، فضحك فقال: حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ كَانَ فِيمَنْ بَايَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنَ العَامِ المُقْبِلِ نَسِينَاهَا، فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهَا، وفي رواية: فعميت علينا.

فَقَالَ سَعِيدٌ: إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ لَمْ يَعْلَمُوهَا وَعَلِمْتُمُوهَا أَنْتُمْ؟! فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ!)[6].

قَطْعُها:

وقد وردت بعض الروايات التي تفيد بأن عمر رضي الله عنه أمر بقطعها؛ منها ما رواه ابنُ سعد في الطبقات الكبرى قال: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَطَاءٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَوْنٍ عَنْ نَافِعٍ قَالَ: كَانَ النَّاسُ يَأْتُونَ الشَّجَرَةَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا شَجَرَةُ الرِّضْوَانِ فَيُصَلُّونَ عِنْدَهَا. قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَأَوْعَدَهُمْ فِيهَا وَأَمَرَ بِهَا فَقُطِعَتْ.

قال الحافظ في فتح الباري: «إِسْنَاده صَحِيح»[7].

(٤) فتح الباري لابن حجر (٩ / ١٣٦).
(٥) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، بَابُ البَيْعَةِ فِي الحَرْبِ أَنْ لاَ يَفِرُّوا، (٢٩٥٨).
(٦) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحُدَيْبِيَة، (٤١٦٣).
(٧) انظر الطبقات الكبرى (٢ / ١٠٠)، فتح الباري (١١ / ٤٩٠).

ورواه ابنُ أبي شيبة في المصنَّف: قال حدثنا معاذ بن معاذ قال: ثنا ابن عون عن نافع قال: بلغ عمرَ بن الخطاب أن ناساً يأتون الشجرة التي بُويع تحتها. قال: فأمر بها فقُطعت، ورجاله رجال الصحيح[1].

قال الألباني: فلعلَّ الواسطة بينهما عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، لكنه أشار إلى ضَعْفِ الرواية لهذا الانقطاع[2].

قلتُ: وفي الطبقات الكبرى لابن سعدٍ ما يشير إلى الجمع بين روايتَيْ قطع الشجرة وخفائها، فعن نافع قال: خرَج قوم من أصحاب رسول الله ﷺ بعد ذلك بأعوام، فما عرَفَ أحدٌ منهم الشجرة، واختلفوا فيها؛ قال ابن عمر: كانت رحمة من الله[3].

فالتعبير بالأعوام هنا يجمع بين الروايتين، حيث لا يبعُد أن القطع كان أولاً فخفيت، والله أعلم.

ومن عَجَبٍ في هذا المقام استغلالُ بعض الشيعة هذا الخبر للنيل من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والغَمْزِ في الحطِّ من فضله؛ لأن هذا الخبر يتنافى مع دعوتهم لتعظيم المشاهد والصلاة عندها، والتبَرُّك بترابها، وظنُّوا أن ذاك قدح، وإنما هو مدح، وتفرَّدوا بزيادةٍ زعموا أن عمر رضي الله عنه قال: (أراكم أيها الناس رجَعتم إلى العُزَّى، ألا لا أوتى منذ اليوم بأحدٍ عاد لمثلها إلا قتلتُه بالسيف كما يُقتل المرتدُّ، ثم أمر بها فقُطعت)[4].

وتلك شَكَاةٌ ظاهرٌ عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه عارُها، وصدَق مَن قال:

عيَّرتني بالشَّيْبِ وهو وقار
ليتها عيَّرتْ بما هو عَارُ

وبهذا يتبيَّنُ لنا حَسْمُ مادة الشر الداخلة من بوابة التبَرُّك المنحرف، وما أجمل ما قاله ابنُ القيِّم في كلامه القيِّم ونصُّه: فإذا كان هذا فعلَ عمر رضي الله عنه بالشجرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن، وبايع تحتها الصحابةُ رسولَ الله ﷺ؛ فماذا حكمه فيما عداها من هذه الأنصاب والأوثان التي قد عظمت الفتنة بها واشتدت البلية بها؟!

وأبلغ من ذلك: أنَّ رسول الله ﷺ هدَم مسجد الضِّرار؛ ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فساداً منه كالمساجد المبنية على القبور، فإن حكم الإسلام فيها: أن تُهدَمَ كلُّها حتى تُسوَّى بالأرض وهي أولى بالهدم من مسجد الضرار، وكذلك القباب التي على القبور يحب هدمها كلها؛ لأنها أُسِّست على معصية الرسول؛ لأنه قد نَهَى عن البناء على القبور كما تقدم، فبناءٌ أُسِّس على معصيته ومخافته بناءٌ غير محرم، وهو أولى بالهدم من بناء الغاصِب قطعاً[5].

رابعاً: تصدي الفقهاء للغالطين في التبَرُّك:

إن تحذير الأمة من التبَرُّك المنحرف قطْعٌ للشرك ومادته، وقد صاغ فقهاء الإسلام هذه التعاليم في متون الأحكام، وشروحها، وزادوا الحواشيَ عليها، والفروع والفتاوى، مما تُغني شهرتُه عن التفصيل فيه، ونعطِّر المقام بشواهد يُستدَلُّ بها على غيرها.

فالشافعيُّ – رحمه الله – يجيب عَنْ قَوْلِ مَنْ قَالَ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْبَيْتِ مَهْجُوراً! بِأَنَّا لَمْ نَدَّعِ اسْتِلَامَهُمَا هَجْراً للبيت، وَكَيْفَ يَهْجُرُهُ وَهُوَ يَطُوفُ بِهِ وَلَكِنَّا نَتَّبِعُ السُّنَّةَ فِعْلاً أَوْ تَرْكاً وَلَوْ كَانَ تَرْكُ استلامهما هجراً لَهما لَكَانَ تَرْكُ اسْتِلَامِ مَا بَيْنَ الْأَرْكَانِ هَجْراً لَهَا وَلَا قَائِلَ بِهِ[6].

وما أجملَ عبارةَ الشافعيِّ (وَلَكِنَّا نَتَّبِعُ السُّنَّةَ فِعْلاً أَوْ تَرْكاً)، ومن أصحابه الفقيهُ أبو موسى القائل: (وَلَا يَمْسَحُ الْقَبْرَ وَلَا يَمَسُّهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ عَادَةُ النَّصَارَى).

قال النووي: (وَمَا ذَكَرَهُ صَحِيحٌ؛ لِأَنَّهُ قَدْ صَحَّ النَّهْيُ عَنْ تَعْظِيمِ الْقُبُورِ وَلِأَنَّهُ إذَا لَمْ يُسْتَحَبَّ اسْتِلَامُ الرُّكْنَيْنِ الشَّامِيَّيْنِ مِنْ أَرْكَانِ الْكَعْبَةِ لِكَوْنِهِ لَمْ يُسَنَّ مَعَ اسْتِحْبَابِ اسْتِلَامِ الرُّكْنَيْنِ الْآخَرَيْنِ فَلَأَنْ لَا يُسْتَحَبَّ مَسُّ الْقُبُورِ أولى، والله أعلم)[7].

ومن أصحاب الشافعيِّ أيضاً الشَّيْخُ أَبُو مُحَمَّدٍ الْجُوَيْنِيُّ القائل بتحريم شدِّ الرِّحال إلى غير المساجد الثلاثة عملاً بظاهر حديث: (لا تُشَدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد...)[8]،

(١) مُصنف ابن أبي شيبة (٢/ ٣٧٥). وبهذا يتبين ما في الرواية المعضلة عند الفاكهي في أخبار مكة (٧/ ٤٣٤)، قال: حدثنا حسين بن حسن المروزي قال: ثنا إسماعيل بن إبراهيم قال: ثنا ابن عون قال: «بلغ عمر رضي الله عنه أن الشجرة التي بويع عندها تؤتى، فأوعد في ذلك وأمر بها فقُطعت».

(٢) تحذير الساجد للألباني (ص: ١١٢).

(٣) الطبقات الكبرى (٢/ ٢٠٥).

(٤) انظر هذا في شرح نهج البلاغة (١/ ٥٩، ٦٠)، وشرحه لابن أبي الحديد (٣/ ١٢٢).

(٥) إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/ ٢١٠).

(٦) انظر: فتح الباري لابن حجر (٣ / ٤٧٤). وذكر الحافظ رواية ابن عباس أنه طاف مع معاوية فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْبَيْتِ مَهْجُوراً. فَقَالَ لَهُ ابن عَبَّاسٍ: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: صَدَقْتَ. ولله در عمر في قوله وهو يُقبِّل الحجَر الأسود: «إنك حجَر لا تَضُرُّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله قبلك ما قبلتك».

(٧) شرح المهذب للنووي (٥ / ٣١١).

(٨) متفق عليه: البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧).

فيحرم شد الرحال لزيارة القبور، وإلى المواضع الفاضلة لقصد التبَرُّك بها والصلاة فيها.

وَأَشَارَ الْقَاضِي حُسَيْنٌ إِلَى اخْتِيَارِهِ، قال الحافظُ ابنُ حجر: (وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَاهُ أَصْحَابُ السُّنَنِ مِنْ إِنْكَارِ بَصْرَةَ الْغِفَارِيِّ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ خُرُوجَهُ إِلَى الطُّورِ وَقَالَ لَهُ لَوْ أَدْرَكْتُكَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مَا خَرَجْتُ وَاسْتَدَلَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَرَى حَمْلَ الْحَدِيثِ عَلَى عُمُومِهِ وَوَافَقَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ)[1].

وبالجملة فيتضح مما سبق أهميةُ الفرقان بين التبَرُّك المشروع والتبَرُّك المنحرف الذي يُفضي إلى الإشراك، ومن سوَّى بينهما فقد نادى على نفسه بالجهالة، ورعَى حول حِمَى الشِّرك فيوشك أن يقع فيه.

فالقرآن حذَّر من اقتفاء سبيل أهل الغَلَبة من الجهَلة بشرع الله في تعظيم قبور أصحاب الكهف، وأوضحت السنةُ خطورة اتخاذ القبور مساجدَ أتمَّ إيضاح.

كما أوضحت السُّنة خطأ أنَّ أهل الجاهلية كانوا يتبرَّكون بسدرةٍ، وضلوا في ثلاثة أمور هي: التعظيم والعُكوف والتبَرُّك، وبهذه الأمور الثلاثة يُعبد أصحاب القبور، وتُعظَّم الأشجار والأحجار والآبار، فمن طلب البَرَكَة فمَثَلُه كمَثَل بني إسرائيل حين طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً، فأقسم ﷺ أن مقالةَ هؤلاءِ كمقالةِ أولئك سواءً بسواء.

فالقبور والأشجار والأحجار والعيون ونحوها مما يَنذُر لها العامَّةُ، ويعلِّقون بها خِرَقاً، ويأخذون منها شيئاً تبَرُّكاً، ويرجون قضاء حوائجهم وشفاءَ مرضاهم، ويتمسَّحون بها؛ هو من عمل أهل الجاهلية ومن أسباب الشرك بالله.

خامساً: دمعةٌ على التبَرُّك:

ومَن نَظَر إلى ما أصاب المسلمين في بلادٍ شتَّى من رواج هذا التبَرُّك المنحرف، لا يستطيع أن يُغالبَ الأسى، ويدفع البكاء، من جراء المهالك التي يتعاطاها الجهَلَةُ، فما أسرَعَهم إلى الإتيان إليها سعياً حثيثاً، ثم يُفيضون منها، بعدما علَّقوا عليها الحاجات، وعقَدوا عليها الآمال.

ومما هالني الوقوفُ عليه مما نحن بصدده ما اختُصَّتْ به بلادُ حَضْرَمَوْتَ مثلاً مما طفَحَتِ الكتب بذكره، مِن تعظيم المَشاهد والزيارات والأودية التي شهدت خلوات أقطاب الطريقة، وتراب القبور، والعيون، وآثار الموتى، وغير ذلك مما يعلقونه على التبَرُّك.

وتُفْرَدُ فصولٌ من هذه الكتب في ذكر شعاب تريم، وأوديتها، وتربها، ومساجدها، ومقابرها المشهورة بالبَرَكَة كما يزعمون، ويقول القائل:

تريم بها منهم ألوفٌ عديدةٌ
بساحة بشار شموس الهُدى قل
زيارة كل منهم صَحَّ أنها
لما شئتَ مِن نفعٍ وجلب محصل
وإن قيل ترياق ببغداد جُربا
ففي ربع بشار شِفا كلِّ معضل

ويُفرِدون فصلاً فيما يتعلق بفضل وبركة الجموعات العامة عند قبور الأولياء المشهورين، وقراء المولد عند ضرائحهم، وما الحديث عن زيارة قبر النبي هود عز وجل المزعوم بحَضْرَمَوْتَ بالحديث المُرَجَّم، وإنما أشرنا إلى هذا حتى لا تصير المعالم مُعطَّلةً من ذكر الشواهد، ويكون المقام خِلْواً من الفوائد، وليس مقصودنا الاسترسال[2].

فيا ليت هؤلاء القوم يعلمون بما جرَّه التبَرُّكُ المنحرف على التوحيد، ويَفيئون إلى الحق؛ فإنَّ للحقِّ نوراً يُعرف به، وعسى القيود التي وضعها الغالبون في أعناق الأتباع قد وهَنت، فيسهل حلُّها، وينطلقون بعدها إلى رحاب السنة كما قال كثيِّر:

فليتَ قلوصي عندَ عزَّةَ قيِّدتْ
بحبلٍ ضعيفٍ غرَّ منها فندَّتِ

ولا بد إذن من بيان سبيل المنحرفين في التبَرُّك حتى تَستبينَ لكل أحد، كما شدَّ رسول الله في النكير على بعض مسلمة الفتح مع أنهم كانوا معه قبل حنين، إذ إن توحيد الكلمة إنما يكون على كلمة التوحيد، وغضُّ الطَّرْف عن الانحراف يجعله يتسلل لِوَاذاً إلى أفراد المجتمع.

واللهَ نسألُ أن يُرينَا الحقَّ حقّاً ويرزقنا اتباعه، ويرينَا الباطلَ باطلاً ويرزقنا اجتنابه، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

(١) فتح الباري لابن حجر (٣ / ٦٥).

(٢) تُطلب هذه الفصول من: المشرع الروي والنور السافر والفوائد السنية وغيرها من تراث التصوف في حضرموت.

جديدنا

صدر حديثاً

جديد ..

جديد ..

جديد ..

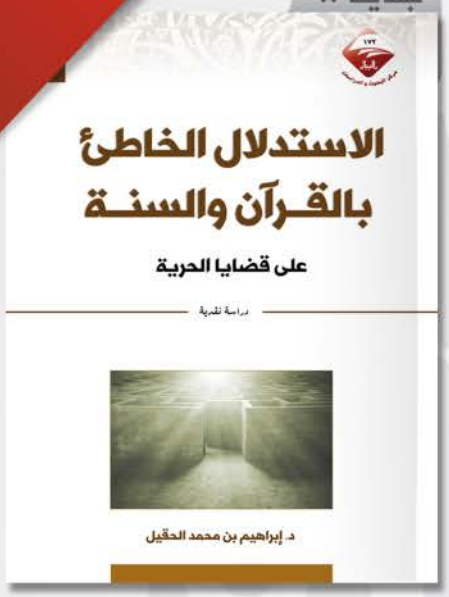

جديد ..

جديد ..

جديد ..

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
جدة: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

مستندات التبَرُّك الممـــنوع والجواب عنها

محمـــد فـريـد

مـــا لحقَ نبيُّنا ﷺ بالرفيق الأعلـــى حتى تركَنا على البيضاء لا يَزيغُ عنها إلا هالكٌ.

ولم تكن تلك البيضاءُ ســـوى القرآن الكريم والسُّنة الصحيحة.

فآثر قومٌ اتباع الأمم السابقة في المغالاة المقيتة التي يخرجون بها عن وَسَطية العقيدة الإسلامية.

لكنَّ الله، بعظيم رحمته، لا يزال يَغْرِسُ في هذا الدِّين غرســـاً؛ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولَهُ؛ يســـتخدمهم في طاعته، ويســـتعملهم في الدعوة لدينه، والذبِّ عن شرعه؛ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ.

نســـأله تعالى بأسمائه الحُســـنى وصفاته العُلا أن يجعلنا برحمته من هذا الغرس الطيب المبارك مخلِصين له الدِّين. آمين يا أرحم الراحمين.

وقضيـــة «التبَرُّك» كغيرها مـــن القضايا التي ابتدع المغالون فيها كثيراً من الصور غير المشروعة.

وأما مســـتنداتهم في هذا «التبَرُّك غير المشـــروع» فمع كثرتها لم تخرج عن ســـتة أنواع؛ نستعين بالله على اختصارها، والجواب عليها.

أولاً: نصوص بلا أسانيد:

وهذا نـــوع لا يُلتَفَت إليه أصلاً، ورحم الله ابْنَ الْمُبَارَكِ إذ يَقُولُ: «لَوْلَا الْإِسْنَادُ لَقَالَ كُلُّ مَنْ شَاءَ كُلَّ مَا شَاءَ»[1].

فلو ســـمِعنا لكلِّ أحدٍ ينقل عن الرسول ﷺ؛ إذن لصدَّقْنا كلَّ مبتدع فيما يختلقه من نصوص تأييداً لبدعته.

ثانياً: نصوصٌ موضوعة:

ومثال ذلك: استنادُهم على جواز التبَرُّك بآثار الصالحين بالحديث الذي يُروَى عَنِ ابْنِ عُمَرَ؛ قَالَ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! الْوُضُوءُ مِنْ جَـــرٍّ جَدِيدٍ مُخَمَّرٍ أَحَبُّ إِلَيْـــكَ أَمْ مِنَ الْمَطَاهِرِ؟ فَقَالَ: لَا، بَلْ مِنَ الْمَطَاهِرِ، إِنَّ دِينَ اللهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ. قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبْعَثُ إِلَى الْمَطَاهِرِ، فَيُؤْتَى بِالْمَاءِ، فَيَشْرَبُهُ، يَرْجُو بَرَكَةَ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ)[2].

وهذا الحديثُ «موضوعٌ» أنكره أبو عَرُوبة[3]، وابنُ عدي[4]، وابنُ حبَّان[5]، والعراقي[6]، والشوكاني[7]، والمعلمي اليماني[8]، وغيرهم.

وهو حديثٌ اتفقتْ كلمةُ أهل الحديث ســـلفاً وخلفاً على نكارته، وسقوط الاحتجاج به.

(١) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي (١/٢٠٩).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٧٩٤)، وغيره.
(٣) الكامل في ضعفاء الرجال (٣/٢٥٧).
(٤) الكامل في ضعفاء الرجال (٣/٢٦١).
(٥) ميزان الاعتدال (٢/٦٢٨).
(٦) تخريج أحاديث الإحياء (١/٦٩٠).
(٧) الفوائد المجموعة (١/١٢).
(٨) الفوائد المجموعة (١/١٢).

ثالثاً: استدلالٌ باطلٌ بأدلةٍ صحيحة:

وذلك بأن يهجموا علـــى الحديث الصحيح فينتزعوا منه تأويلاً متعسّفاً لا يؤيده نص، ولا تقبله لغة، ولا يرضاه منطق، ولا تَستَسيغه فطرة.

فمن ذلك موقفُهـــم من التبَرُّك بآثار الصالحين، وثيابهم، وفضلاتهم، اســـتناداً لما فعله الصحابـــةُ رضي الله عنهم مع النبي ﷺ.

أما فعلُ الصحابةِ رضي الله عنهم مع النبي ﷺ فلن نذكر منه شـــيئاً؛ إذ هو موضع اتفاق لا خلاف عليه بين الأمة سلفاً وخلفاً؛ إذ أجمعوا على مشروعية التبَرُّك بمتعلقات النبي ﷺ حيّاً وميتاً، وقد وردت في ذلك النصوص الصحيحة.

أما الإنكار فعلى قياس التبَرُّك بآثار الصالحين على تبَرُّك الصحابة به ﷺ، فمن ذلك: قـــول النووي: «فيه التَّبَرُّك بِآثَارِ الصَّالِحِينَ»[1].

وقال النووي أيضاً: «فِيهِ التَّبَرُّكُ بِآثَارِ الصَّالِحِينَ وَاسْتِعْمَالِ فَضْلِ طَهُورِهِمْ وَطَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ وَلِبَاسِهِمْ»[2].

إلا أن القـــوم قد بالغوا في التبَـــرُّك بآثار غيرِ النبيِّ ﷺ مبالغةً فَجَّةً.

فمن ذلك ما حكاه الشاطبي: «وَلَقَدْ حَكَى الْفَرْغَانِيُّ مُذَيِّلُ» تَارِيخِ الطَّبَرِيِّ «عَنِ الْحَلَّاجِ: أَنَّ أَصْحَابَهُ بَالَغُوا فِي التَّبَرُّكِ بِهِ، حَتَّى كَانُوا يَتَمَسَّحُونَ بِبَوْلِهِ، وَيَتَبَخَّرُونَ بِعَذِرَتِهِ! حَتَّى ادَّعَوْا فِيهِ الْإِلَهِيَّةَ، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً»[3].

وهذا استدلال باطلٌ شرعاً وعقلاً.

أمَّا شـــرعاً؛ فلأنه لم يَرِد في الكتاب ولا السُّـــنة ما يبيح ذلك. كما لـــم يفعله الصحابةُ مع أحدٍ بعـــده ﷺ؛ مع وجود المبشَّـــرينَ بالجنة، وعلى رأسهم الشيخان، وسيدا شباب أهل الجنة، وغيرُهم كثير.

وقال الشـــاطبي مبيِّناً خطأ القوم: «لَـــمْ يَتْرُكِ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَهُ فِي الْأُمَّةِ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَلَا عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، فَهُما كَانَا خَلِيفَتَيْنِ، وَلَمْ يُفْعَلْ بِهِما، ولا بغيرهما شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ. بَلِ اقْتَصَرُوا فِيهِمْ عَلَى الِاقْتِدَاءِ بِالْأَفْعَالِ، وَالْأَقْوَالِ، وَالسِّـــيَرِ الَّتِي اتَّبَعُوا فِيهَا النَّبِيَّ ﷺ، فَهُوَ إِذاً إِجْمَاعٌ مِنْهُمْ عَلَى تَرْكِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا»[4].

وأما رَدُّ ذلك عقـــلاً؛ فلأمور منطقية، أهمها: أنه لا يَعلم ما ســـيُختَم به للعبد إلا الله عـــز وجل؛ فقد يكون العبدُ على طريقةٍ حسَنةٍ من العبادة ثم لا يلبث أن ينقَلِبَ على عقبَيْه قبل موته عياذاً بالله.

أو: أن يكـــون في ظاهره الصلاحُ، بينمـــا هو يعمل طلباً للدنيا؛ من المال، والرِّياء، والسُّمْعة عياذاً بالله، ولا يَعلم حقيقةَ نية العبد إلا هو وَحْدَه لا شريك له.

فقـــد يُعجب الناس برجل، ويظنـــون أنه في أعلى عِلِّيين، بينما هو في أسفل سافلين عياذاً بالله.

وقـــد حدث هذا مع الصحابة رضـــي الله عنهم، كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه؛ قَالَ: (افْتَتَحْنَا خَيْبَرَ، وَلَـــمْ نَغْنَمْ ذَهَباً وَلاَ فِضَّةً، إِنَّمَا غَنِمْنَـــا البَقَرَ، وَالإِبِلَ، وَالمَتَاعَ، وَالحَوَائِطَ، ثُمَّ انْصَرَفْنَا مَعَ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ إِلَى وَادِي القُرَى، وَمَعَهُ عَبْدٌ لَـــهُ يُقَالُ لَهُ مِدْعَمٌ، أَهْدَاهُ لَـــهُ أَحَدُ بَنِي الضِّبَابِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَحُطُّ رَحْلَ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ سَـــهْمٌ عَائِرٌ[5]، حَتَّى أَصَابَ ذَلِكَ العَبْدَ.

فَقَالَ النَّاسُ: هَنِيئاً لَهُ الشَّهَادَةُ!

فَقَالَ رَسُـــولُ اللهِ ﷺ: بَلْ؛ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ المَغَانِمِ، لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ، لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَاراً.

فَجَـــاءَ رَجُلٌ حِينَ سَـــمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِشِـــرَاكٍ أَوْ بِشِرَاكَيْنِ، فَقَالَ: هَذَا شَيْءٌ كُنْتُ أَصَبْتُهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: شِرَاكٌ - أَوْ شِرَاكَانِ - مِنْ نَارٍ)[6].

فهذا رجل نالَ شرف عدة أمور:

١/ شرف الإسلام.

٢/ شرف الصُّحْبة للنبي ﷺ.

٣/ شرف خدمة النبي ﷺ.

٤/ شرف الجهاد في سبيل الله تعالى.

٥/ شرف الشهادة في سبيل الله تعالى.

ومع كل هذا لم يشـــفع له شيءٌ من ذلك في معافاته من

(١) شرح النووي على مسلم (١/ ٢٤٤).

(٢) شرح النووي على مسلم (٤/ ٢١٩).

(٣) الاعتصام للشاطبي (١/ ٤٨٤).

(٤) الاعتصام، للشاطبي (١/ ٤٨٢) بتصرف.

(٥) عائر: لا يُعلم مَن رماه.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، (٤٢٣٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بَابُ غِلَظِ تَحْرِيمِ الْغُلُولِ، (١١٥).

العذاب؛ بسبب خيانته، وسرقته العباءة من الغنائم قبل أن توزع.

فقارن بين حكم الصحابة رضي الله عنهم على الرجل؛ إذ قالوا بما علموا: «هنيئاً له الجنة!».

وإعـــلان النبي ﷺ لحكم الله عليه إذ أُوحـــى إليه: «أنه في النار». عياذاً بالله!

وليعلمنا ربُّنا بذلك عدة أمور:

منها: أننا لا يجوز أن نحكم على أحد حكماً جازماً؛ لأن العالِمَ بعباده على الحقيقة هو خالقهم وحده لا شريك له!

فإذا كان ذلك كذلك: فلا يجوز لنا أن نتبرك بأحد على نحو ما فعل الصحابة رضي الله عنهم برسول الله ﷺ من التبَرُّك بمتعلقاته ﷺ.

أولاً/ لعـــدم ورود الدليل على ذلك، ولعدم فعل الصحابة هذا بأحد من المشهود لهم بالجنة.

ثانياً/ لعدم معرفة حقيقة العباد عند الله، طبعاً هذا خلاف التبَرُّك الجائز بالصالحين من خلال مجالستهم، والأخذ من علمهم، وصحبتهم، والاقتداء بهم، إلى غير ذلك من أنواع التبَرُّك المشروع الوارد في الكتاب والسنة.

رابعاً: استدلال بالمُدرَج الموضوع على الدليل الصحيح:

ومثال ذلك ما فعله الخازن، إذ أورد في تفسيره أثراً عن أبي أيوب، ثم عقَّب قائلاً: «رواه الترمـــذي، وقال: حديث غريب صحيح، مات أبو أيوب في آخر غزوة غزاها بأرض قســـطنطينية، ودُفن في أصل سورها فهم يتبركون بقبره، ويستسقون به»[1].

فانظر فِعْلَ الخازن حيث أضاف من عنده لفظاً مُدرَجاً لا ســـند له ألبتة، وهو قوله: «فهم يتبرَّكون بقبره، ويستسقون به».

خامساً: الاستدلال بأقوال وأفعال من لا حُجَّة في قولهم وفعلهم:

ومن ذلك ادعاؤهم أن الشافعيَّ غسَلَ قميص أحمد، وتبرَّك به[2].

وهذا باطلٌ من وجوه، منها:

أولاً/ فعل الشافعي – رحمه الله – ليس بحُجَّة، ولو فعل ذلك لما كان دليلاً على مشروعية الفعل، ولكان مخطئاً فيه.

ثانياً/ الشافعي – رحمه الله – بريءٌ من هذا الأثر براءةَ الذئب من دم ابن يعقوب؛ إذ كذَّبَ هذا الأثرَ شيخُ الإسلام ابنُ تيمية[3]، والذهبيّ[4].

سادساً: الاستدلال بالكلام المُرْسَل:

وذلك بإطلاق أحكام بلا دليل.

فمن ذلك: ما قاله الحافظ العراقي: «وَأما تَقْبِيل الْأَمَاكِن الشَّـــرِيفَة على قصد التَّبَرُّك، وَكَذَلِكَ تَقْبِيل أَيدي الصَّالِحين وأرجلهم، فَهُوَ حسن مَحْمُود بِاعْتِبَار الْقَصْد وَالنِّيَّة»[5].

وليس في الكلام مستند نُجيب عليه؛ إذ لا حجة في قول أحد بعـــده ﷺ، وصدَقَ الله إذ يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ومـــع ذلـــك فهو مناقـــض لما جاءت بـــه الأدلة الصحيحة.

كما جـــاء عَنْ طَارِقِ بْـــنِ عَبْدِ الرَّحْمَـــنِ؛ قَالَ: انْطَلَقْتُ حَاجّاً، فَمَرَرْتُ بِقَوْمٍ يُصَلُّونَ!

قُلْتُ: مَا هَذَا الْمَسْجِدُ؟

قَالُوا: هَذِهِ الشَّـــجَرَةُ، حَيْثُ بَايَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ.

فَأَتَيْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيِّبِ فَأَخْبَرْتُهُ.

فَقَالَ سَـــعِيدٌ: حَدَّثَنِي أَبِي: «أَنَّـــهُ كَانَ فِيمَنْ بَايَعَ رَسُـــولَ اللهِ ﷺ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، قَالَ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ نَسِـــينَاهَا، فَلَمْ نَقْدِرْ عَلَيْهَا. فَقَالَ سَعِيدٌ: إِنَّ أَصْحَـــابَ مُحَمَّـــدٍ ﷺ لَمْ يَعْلَمُوهَـــا، وَعَلِمْتُمُوهَا أَنْتُمْ؟! فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ!)[6].

قال ابنُ حَجَر: «قَالَ سَـــعِيدٌ هَذَا الْكَلَامَ مُنْكِراً. وَقَوْلُـــهُ: «فَأَنْتُمْ أَعْلَمُ» هُوَ عَلَى سَـــبِيلِ التَّهَكُّم. وَفِي رِوَايَةِ قَيْسِ بْنِ الرَّبِيعِ: «إِنَّ أَقَاوِيلَ النَّاسِ كَثِيرَة»[7].

بمعنى: أن شـــجرة الحُدَيْبِيَة لم يعظمها الصحابة الذين يعرفون قدرها، وبايعوا تحتها، وقد نسُوها تماماً.

---

(١) تفسير لباب التأويل، (١/ ١٢٣).

(٢) منازل الأئمة الأربعة (١/ ٢٥٤)، تاريخ دمشق (٥/ ٣١١)، طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٣٥: ٣٦)، مرآة الجنان (٢/ ١٠٠).

(٣) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ٢٤).

(٤) سِيَر أعلام النبلاء (١٢/ ٥٨٧).

(٥) ()عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني الحنفي (٩/ ٢٤١).

(٦) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحُدَيْبِيَة، (٤١٦٣).

(٧) فتح الباري لابن حجر (٧/ ٤٤٧).

وأما قول نافع: «بَلَــغَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَنَّ نَاســاً يَأْتُونَ الشَّجَرَةَ الَّتِي بُويِعَ تَحْتَهَا، قَالَ: فَأَمَرَ بِهَا فَقُطِعَتْ»[1].

فالصحابة رضي الله عنهم قد نسُــوا الشــجرة كما قال ســعيد بن المســيب رضي الله عنه في الأثــر الصحيح، لكن الشــيطان أوْهَمَ قوماً بشجرة أنها شــجرة البيعة، لكن عمر رضــي الله عنه قد قطعها حفاظــاً على جناب التوحيد بمنع الناس من التبَرُّك بالصلاة تحتها.

سابعاً: الاستدلال بمستندات جَدَلِيَّةٍ لا فقه فيها ولا عقل:

ومــن ذلك قولهم: «مِــن أدلة جواز التبَــرُّك عدمُ وجود دليلٍ مانعٍ من ذلك، وعدم اعتبار التبَرُّك مُندرِجاً تحت اســم العبادة...»[2].

نقــول بحمد الله: أما قوله: «عدم وجــود دليل مانع من ذلك»! فالأصل فــي العبادة التوقُّف. بمعنــى أن الذي يأمر النــاسَ بعبادة هو المطالَب بالدليــل الصحيح على ثبوت هذه العبادة، وليس النافي لها هو المطالَب بدليل نفي جواز التعبد بذلك.

أما قوله: «عدم اعتبار التبَرُّك مندرجاً تحت اسم العبادة»، فهذا جهل تام، وذلك أن التبَرُّك يشــتمل طلب المنفعة، ودفع المضرة، وطلب النفع ودفع الضُّرِّ صلب العبادة، فمن ادعاهما لغير الله فقد عبده من دون الله عياذاً بالله.

وقد أخبــر الحقُّ عز وجل عن ذلــك بمواضع كثيرة من القرآن، منها قوله تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُــنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِــفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِــكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ [الزمر: ٣٨].

وبعد.. فهذه إطلالةٌ ســريعة على مجمل مستندات القوم في تبَرُّكهم غير المشــروع، مع الاســتعانة بالله على الجواب عليها شرعاً وعقلاً.

واللهَ نســألُ بأسمائه الحســنى وصفاته العُلا أن يردَّنا للحق ردّاً جميلاً، فهو وليُّ ذلك والقادر عليه.

(١) [صحيح] رواه ابن أبي شيبة (٧٥٤٥)، وابن سعد (٢/ ١٠٠).

(٢) راجع: (٥٢) سؤال وجواب في المسائل التي تنشرها الوهابية). من موقع د. محمود صبيح.

التبَرُّك في ميزان الشريعة

أدارالندوة: عبدالرحمن أبو عوف

يُعدُّ تبيينُ حقائق الديانة وكشف الشبهات عنها من واجبات العصر وفروض العين على علماء الأمة، وذلك لتجلية غموض عددٍ من القضايا الإسلامية التي شابَها نوع من الغموض واللَّغَط، ومن المسائل التي عانت الارتباك وخلط الأوراق مسألة «التبَرُّك»، فقد غالى فيها أقوام فجعلوا ما لا يصح التبَرُّك به في رتبة المشروع جهلاً واتباعاً للهوى، وجفا آخرون فلم يعترفوا بهذا المعنى، وضاع الحق بين غُلوِّ أولئك وجفاءِ هؤلاء.

ولتجلية هذا الغموض والوصول إلى كلمةٍ سواءٍ في المسألة؛ سعينا لاستطلاع رأي كوكبة من علماء الإسلام في ندوة عُقدت حول المفهوم الإيجابي للتبَرُّك ووسائل تفعيله في حياة المسلم، والعروج إلى المفهوم المنحرف لهذه المسألة، وإلقاء الضوء على واقع الأمة في مسألة التبَرُّك، ومحاولة إيجاد معالجات شرعية معاصرة للمفهوم الصحيح للتبَرُّك، وكذلك المفهوم المنحرف للتبَرُّك، وهو ما سنعرضه بالتفصيل في السطور التالية.

في البداية يحاول الدكتور عمر بن عبد العزيز تأصيلَ الأمر من الزاوية الشرعية عبر التأكيد بأن القرآن الكريم ذَكَرَ كلمة التبَرُّك في مواضع عديدة، حين وصف المسجد الحرام بالبَرَكَة بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ

ندوة عن «البَرَكة في الشريعة» شارَكَ فيها كلٌّ من:

- الدكتور عمر بن عبد العزيز
  (رئيس قسم مقارنة الأديان بكلية الدعوة الإسلامية جامعة الأزهر)
- الدكتور عامر الباسل
  (أستاذ الأديان والمذاهب بكلية الدعوة الإسلامية جامعة الأزهر)
- الدكتور محمد إمام
  (رئيس مجلس أمناء السلفية وأستاذ السياسة الشرعية بجامعة الأزهر)
- الدكتور محمد عبد المنعم البري
  (أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر)

بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٦ – ٩٨]، وهو ما تكرر فيما يتعلق بالمسجد الأقصى بالبَرَكة هو ومن حوله ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١]، ولا يبارك حوله إلا ما حفته البَرَكة وفاضت.

وطالت البَرَكةُ كذلك نفراً كبيراً من الأنبياء ومنهم المسيح ابن مريم حين كان أولَ من نطق في المهد ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠ – ٣١].

وقد وصف الله عز وجل كتابه الكريم بالبركة، فقال تعالى: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وذُكرت البَرَكة في ماء السماء ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ [ق: ٩]، وكذلك حازت بقاع جغرافية بعينها البَرَكة مثل ما قاله الله في سورة الأنبياء: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧١]، وهنا المقصود بلاد الشام وما حولها.

تبَرُّك مشروع

وفي هذا المقام، والكلام ما زال لرئيس قسم الأديان، يصعُب علينا إنكارُ أن البَرَكة موجودةٌ في كل زمان ومكان، ومن ثَمَّ فلا يجب إغلاقُ هذا الباب بشكل كُلِّيٍّ بحجة أن هناك مَن أساء إليه أو استعمله في غير المنظور الشرعي المحدَّد لخطاه، بل علينا معرفة المشروع منه والممنوع والصحيح والخطأ، فمثلاً حديث رسولنا الكريم: (لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِي هَذَا وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى)[1] يثبت هذا المنهج.

ونحن نتبرك من المسجد بزيارة المسجد الحرام حَجّاً وعُمرةً واعتكافاً وصلاةً وطوافاً وتقبيلاً للحجر الأسود، والشرب من ماء زمزم؛ وكل هذا نوع من أنواع التبَرُّك المشروع الذي دلت عليه الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة، فمثلاً الصلاة في المسجد الحرام بأكثر من مائة ألف صلاة فيما عداه[2]، وكذلك بركة تتكرر في المسجد النبوي بألف صلاة فيما عداه[3]، حيث نصلي ونتعبد ونزور قبر النبي ﷺ، ونسلِّم عليه وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

غير أن هذه البَرَكة لا يجب أن تدفعَنا إلى الوقوع في مخالفات والخروج على إجماع الأمة، حيث يُشرعُ أن تُشدَّ الرِّحال إلى المسجد الأقصى، لكننا لا نزوره وهو تحت الاحتلال ووطأة الصهاينة المعتدين عليه، إنما علينا أن نتبارك به بتطهيره من دنسهم، ونحن نتبارك بالمساجد الأخرى بعمارتها والصلاة والاعتكاف: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨].

والتبَرُّك كذلك، كما يؤكد د. عبد العزيز، بالأنبياء وذلك بالاقتداء والتأسِّي بهم كما في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ونتبرك به ﷺ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وهذا التبَرُّك

(١) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب أبواب التطوع فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، (١١٣٢)، ومسلم، كتاب الحج، باب لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، (٣٤٥٠).

(٢) مسند أحمد برقم (١٥٢٧١)، ط. الرسالة، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

(٣) السابق نفسه.

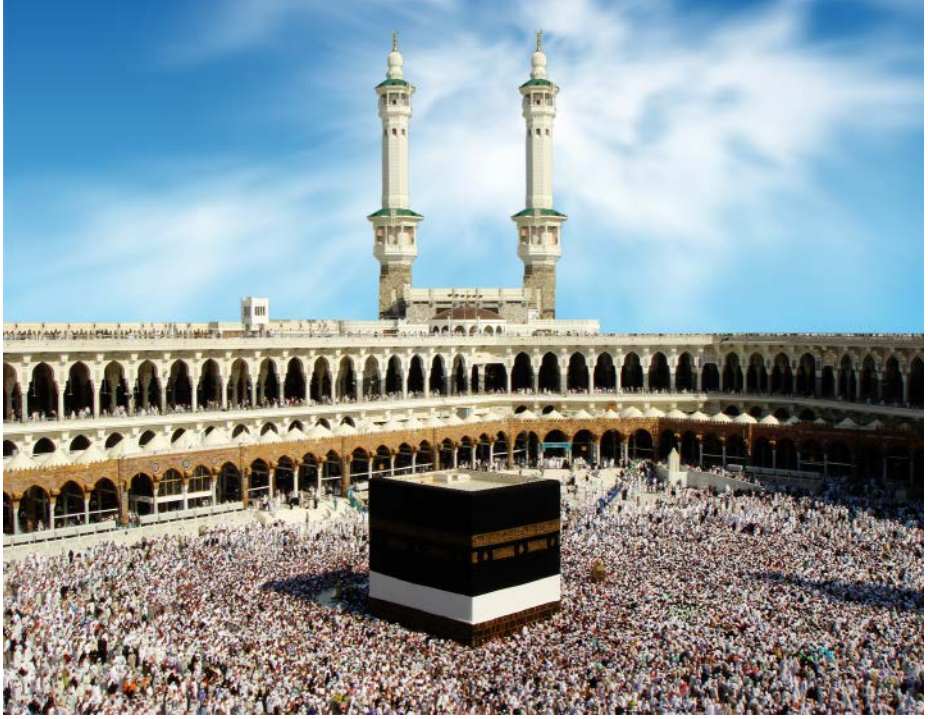

يكون باتباع تعاليمه والاقتداء بسنته مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ﴾ [آل عمران: ٣١].

التبرُّكُ بالصَّالحين:

بل إن التبَرُّك بالأولياء ورغم كل ما يُثار حوله يمكن أن يسير في إطار كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، حيث يمكن أن نتبرك بالأولياء تشبُّهاً وتأسِّياً، فهم من خير خلق الله بعد الأنبياء ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٤]، ولا نقصد هنا إمكانية الوصول بهم لمرحلة العِصْمة، فهم ليسوا معصومين؛ فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله، بل إن التأسِّي بهم يأتي من باب

فَتَشَبَّهوا إن لَم تَكُونوا مِثلَهُم
إنَّ التشبُّه بالرِّجال فلاحُ

ومع هذا، وبحسب تأكيدات د. عبد العزيز، فإن هذا التبَرُّك بالأولياء لا يكون تمسُّحاً بالأبواب، ولا سجوداً على الأعتاب، ولا تبَرُّكاً بالأخشاب، ولا تمسحاً بالتوابيت، ولا طوافاً بالأضرحة، ولا نذْراً بالصناديق، على نحو ما يفعله العامَّةُ والدَّهماء والبسطاء فيما لا تجد عليه دليلاً من كتابٍ أو سنةٍ أو إجماعِ أئمةٍ ولا اجتهاد علماء؛ فهذا تعسُّف في التأويل وخطأ في التدليل وليس من جنس التبَرُّك الصحيح في شيء.

فالتبَرُّك بالعلماء مثلاً بطلب الدعاء منهم، وتلقِّي العلم بين يديهم، وبحضور مجالسهم التي تعد روضة من رياض الجنة، والتزاحم عند مناكبهم، والاقتداء بسلوكياتهم الطيبة، أو حتى بزيارتهم للاستزادة من علمهم، طبقاً لتعاليم الله وسنة رسول الله ﷺ وعمل السلف الصالح باجتهاد العلماء.

وأطلق رئيس قسم الأديان في نهاية إيجازه طلقةَ تحذيرٍ بالإشارة إلى أن باب التبَرُّك ليس مفتوحاً على مصراعيه، لكنه محصور في أوجه معينة، لا سيَّما أن التوسع في هذا الأمر دون ضوابط قد يوصل الإنسان إلى الشرك والعياذ بالله؛ فيعبد غيرَ الله باسم التبَرُّك، وكم عُبِدَ أولياء باسم التبَرُّك، فالركوع عبادة، والسجود عبادة، والطواف عبادة، والدعاء عبادة، هذه أمثلة من العبادات التي يُتوجَّهُ بها إلى الله، ولا يُتوجَّهُ بها إلى غيره باسم التوسل أو التبَرُّك والتشفُّع أو بالدعاء، وهذا هو التبَرُّك المحمود.

أما باب التبَرُّك المذموم فنحن أمام بابِ شرٍّ فُتح على الأمة حتى وقع الناس في الشرك؛ صغيره وكبيره، ونحن في هذا الدين مقيَّدُون بالدليل من غير تعسف ولا وضع للكلام في غير موضعه، وما نتحدث عنه هو تبَرُّك مذموم، ونحن في هذا المقام مرتبطون بالدليل: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١١١].

أصل شرعي:

إذا كان الدكتور عمر بن عبد العزيز قد حاول تأصيل التبَرُّك كمفهوم، وتطرَّق إلى خطورة سيطرة التبَرُّك المذموم، واعتبره باباً للشر فُتح على الأمة؛ فإن الدكتور عامر الباسل

– أستاذ الأديان والمذاهب بجامعة الأزهر – قد سار على نفس الدرب، وإن استشهد بأحاديثَ وأحداثٍ في العصر النبوي وعصور التابعين وتابعي التابعين، بإشارته إلى أن التبَرُّك أصلٌ من الأصول المنصوص عليها في ديننا الحنيف، والتي فُهمت خطأ بعيداً عن كليات هذا الدين.

فذكر أن القرآن الكريم كتاب مبارك، وذكر عن بقاعٍ من الأرض أنها أودية مباركة، وذُكر كثيرٌ من هذا اللون على لسان نبينا محمد ﷺ يوم مروره بعد عودته من العمرة على بئر حذيفة حين خاطبه جبريلُ وقال له: (انزل هنا من على راحلتك وصل ركعتين فهذا واد مبارك)[1]، والبَرَكَة هنا خيرٌ وضعه الله ولا يعلمه إلا هو، ولا يستطيع أي بشر كائناً من كان أن يوضح أسرار البَرَكَة في هذا المكان.

مندوب وليس فرضاً:

وتابع الدكتور الباسل: لا بد في هذا المقام من أن نؤكد أن التبَرُّك أمرٌ مندوب وليس شيئاً واجباً يأثم صاحبه، لا سيَّما أن موطن البَرَكَة في أي زمان أو مكان يُحدِثُ نوعاً من راحة النفس وعُلوِّ الهمة وتهذيب العزيمة، وهو أمر يصعب تفسيره أو الوقوف على كُنهه والوصول لأسبابه المستنبطة، فلسنا ندرك الأسباب التي أدت بهذا الوادي مثل بئر حذيفة ليكون مباركاً، ولسنا نَفْقَهُ الدافع لرسول الله ﷺ حين أمر أصحابه عند المرور ببئر ثمود بالمرور سريعاً باعتباره وادياً ملعوناً، وهو لا يريد لهم مصيراً مثل مصير ثمود، وهو ما ينطبق على زمزم.

ومن هنا فالمساجد أبْرَكُ أرض الله، مثل: المسجد الحرام والمسجد الأقصى الذي باركنا حوله، والأسواق شرُّها؛ لما يتأتَّى بها من المعاصي والأيمان الفاسدة؛ لذا فمندوب لنا أن نتبرك بهذه الأبواب؛ وذلك لدواعٍ نفسية، والتي أمرنا الله أن نتبرك بها، فمثلاً عندما يدنو المسلم من بيت الله الحرام ينتابه الإحساس أنه في وادٍ مبارك، ويشعر براحة النفس لارتياده هذا المكان، وحالة المسلم في المسجد تختلف عن خارجه.

وطرَح الباسلُ معالجةً شرعية لهذا التبَرُّك بالتشديد على ضرورة أن ندرك أن كتاب الله كتاب مبارك، وبركته تتم بتلاوته وحُسْن تدبر معانيه وتوريثه لأجيالنا من بعدنا حتى تبقى البَرَكَة في النفوس والصدور، فالبيت الذي يُقرأ فيه القرآن يختلف عن البيت الذي لا يستمع فيه، والتبَرُّك هنا له بُعْدٌ نفسي، فليس معنى البَرَكَة وأن الكتاب مبارك أن أضعه في ديباجة قيمة، أو الاحتفاء بوضعه في السيارة أو العمل أو المنزل بشكل مميز، رغم أن هذا يعد نوعاً من الاحترام والتوقير؛ بل بتدبر معانيه والعمل بها وإحسان تلاوته.

بل إنه طالب المسلمَ بالسعي لتحصيل البَرَكَة الكاملة من القرآن حتى إن لم يكن يجيد تلاوته، فقال: «إذا كنتُ أقرأ القرآن ولا أحسن تلاوته فلا مانع من العودة إلى إذاعة القرآن الكريم أو الفضائيات الإسلامية حتى نحسن تلاوته، ونشنِّف أذاننا بحسن الاستماع إليه، باعتبارها نوعاً من التربية وتوثيق الارتباط بين الأجيال القادمة بكتاب الله حفظاً وتبَرُّكاً به، وأن نحسن سلوكياتنا ونربي أولادنا وأزواجنا وبناتنا على تلك المعاني».

تبَرُّك عَمَلي:

وحاول د. الباسل إعطاءَ التبَرُّك المشروع طابعاً عمليّاً بالإشارة إلى ضرورة تنوع أسباب التبَرُّك فيما يتعلق بالأماكن المقدسة، فلا مانع أن تكون لنا سياحة إليها؛ فهذه السياحة وهذه الألوان من التجوال لهذه الأماكن المباركة تعلو بالنفس، فالإنسان عندما تكون له سياحة لتلك الأماكن فإنه يربط نفسه وأهله وأولاده بهذه الأماكن، بشكل يُحدث لوناً من كنايات الفضل ومعالم الهُدى عبر الوقوف على آثار السابقين ومعرفة جهدهم، مما تعلو معه النفس وتستقيم قناته وتستقيم أموره؛ مما يجعله يتفضل على غيره بهذه الألوان من السياحة، تأسياً بالرسول ﷺ الذي كان يداوم على زيارة مسجد «ذو القبلتين» لِمَا كان يشعر داخله بالراحة النفسية والطمأنينة.

السياحة التبَرُّكية:

بل إن الدكتور الباسل يذهب بعيداً حين يضيف لهذا النوع من التبَرُّك بُعداً تربويّاً، لا سيما فيما يخص زيارة الأماكن التي لها قُدسيَّةٌ معينة وطبيعة خاصة، ولها بُعدٌ خاص في التربية؛ بالقول: ألا ترى أن الناس والعوالم والحضارات

(١) أصل الحديث رواه البخاري، كتاب الحج، باب قول النبي ﷺ: (العَقِيقُ وَادٍ مُبَارَكٌ)، (١٥٣٤)، ونصه: (أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتٍ مِنْ رَبِّي، فَقَالَ: صَلِّ فِي هَذَا الوَادِي المُبَارَكِ، وَقُلْ: عُمْرَةً فِي حَجَّةٍ).

تشجع السياحة الداخلية في تلك المناطق لتُعلي شأنها بين الأمم، فنجد مثلاً ميادين السياحة في العالم إنما توقف السائح على هذه الأماكن كي يتعرف على معالمها وآثارها حتى تتعلق بها الأذهان، ولعل هذا نوعٌ من أنواع التبَرُّك الإيجابي نحو الأماكن المقدسة التي أمرنا الله أن نتبرَّك بها كنوع من العبادة والتبَرُّك الإيجابي.

لكن هذا التبَرُّك لا يمكن أن يسير بنا إلى المخالفات الشرعية، فهذا التبَرُّك لا يمكن أن يكون لدفع الضُّرِّ أو جلب المنفعة، وهذا ما لا يجوز شرعاً، بل إن مقتضى الأمر الذي يجب أن نفهمه ونعقله مفاده أنه «لا أحد يملك نفعاً ولا ضرّاً ولا يُستغاث ولا يُستعاذ إلا الله تعالى».

دلالات تربوية:

ويعدِّد الباسل الدلالات التربوية والشرعية لهذا النوع من التبَرُّك المشروع الذي يجب أن نلتصق به وأن نقف على آثاره ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [الروم: ٥٠]، فهذا هو المراد، وهذا هو المعنى الإيجابي للتبَرُّك؛ لذا فالعالم الإسلامي مُطالَبٌ بأن يُحييَ هذا النوعَ من السياحة التبَرُّكية التي تستقيم وتنطلق من مفهوم التوحيد، فذهابنا إلى هذه الأماكن نوع من التربية والتصفية والوقوف على آثار السابقين وعلو الهمم، لا أننا ندفع بها ضرّاً ولا أن تأتي إليها من لا تحمل كي تحمل، أو من وقع في مصيبة كي ترفع عنه.

بل إن التداعيات الإيجابية لتلك السياحة التبَرُّكية أن الإنسان يجب عليه أن يصلي فيها ويقوم الليل ويكثر من الطاعات، ولا مانع من ذكر الله بالدعاء والاستعاذة به، ويرتبط فيها بأنواع من الطاعات ويتعبد؛ كما هو حالنا في سفرنا نحو المسجد الحرام حجّاً وعمرة، وزيارة مسجد النبي ﷺ والسؤال له الوسيلة والفضيلة وأشياء أخرى مما ندَبَنا إليه اللهُ ورسولُه ﷺ.

ويعدِّد معالم البَرَكَة بالإشارة إلى الزمان المبارك الذي ينبغي أن نلتصق به، فهناك أزمنة معينة ندبنا القرآن لأن نكون فيها على وفق الطاعة، فالتبَرُّك فيها نوع من التربية والتصفية، فهذا شهر رمضان شهر مبارك، وأشهر الله الحُرُم أشهرٌ مباركة، نجتمع فيها بنفوسنا وأفئدتنا وقلوبنا، ونقترب من الله ونبتعد عن معصيته، ونستثمر في هذه الأوقات التي تكثر فيها الرحمات والخير والمغفرة، ويَبسُطُ الله فيها يديه للمسيئين، وعلينا أن نستثمر هذه الأوقات المباركة لنكون أكثر إنتاجاً وأكثر عطفاً وصلة للرحم، فهذه مقومات من مقومات تعديل السلوك؛ لكي نظل على معنى التبَرُّك، وعلى الاجتماع على أسمى الأخلاق والعقائد والتشريعات، وحبّ الله ورسوله وكتابه، وحب الأئمة وحب الأوطان، وعلى إقامة الحق والعدل.

تحسُّن نسبي:

أما عن واقع التبَرُّك في أغلب بلدان العالم الإسلامي، فيرى الدكتور الباسل أنه وبفضل الله ومع بداية الصحوة التي نشأت فيها الأجيال الحالية، نجد أن بعض السلوكيات التبَرُّكية بدأت بالتحسن والاقتراب من المنظور الشرعي.

أصلُ التوحيد:

وفي هذا السياق يجدر أن ندرك أنه لا يجوز للإنسان أن يذهب إلى وليٍّ ولا حجَرٍ ولا شجر ليسأله النفع أو جلب الخير أو دفع الضر؛ فهذه ليست من مقتضيات الإيمان بالله، ولم يندب لنا التبَرُّك لننصرف به عن التوحيد، أو لننصرف عن الله النافع الضار وحده، وهو مَن يملك أن ينفع ومن يملك أن يضر، وأنه الأول والآخر وبيديه كل شيء، ألا له الخلقُ وله الأمر.

وحين نفهم التبَرُّك في ضوء مضامين هذه الكُليَّات الكبرى، فالله هو الإله، وهو المعبود، وهو الذي يُسأل ويُستغاث به ويُستعان به، وغير ذلك من الكليات المعروفة، وما ينبغي أن تتضبط معه معاني التوحيد، وهذه المعاني لا يمكن أن تخلط ببعضها، فإذا انحرفت سلوكيات بعض المتبرِّكين بشكلٍ يهدم إحدى هذه الكليات؛ فلا شك أن هذا تبَرُّك لا يريده الله ولا رسوله ولا كان عليه الإسلام الصحيح.

السَّلَف عُمدة:

وطالب الباسل مَن يريد أن يتوسَّع في مسألة التبَرُّك بألا ينجرَّ إلى ذلك إلا إذا كان معه مستندٌ ودليلٌ شرعي، مشدداً على ضرورة أن يكون سلفنا الصالح عُمدةً في هذا السلوك، فلا يمكن لشخص أن يُقبِّل شجرة أو يُقبِّل حجراً أو يطوف بضاحية، فهل له إلى ذلك من سبيل؟ وهل له في ذلك قدوة؟

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فلا بد من أن نقتديَ بهم، فخير القرون من ربَّاهم رسول الله ﷺ، وفهموا معنى الدين، فما كان في زمنهم ديناً فهو في زماننا دين، وما لم يكن في زمنهم ديناً فلا يكون في زمننا ديناً، وما وسِعهم يسَعنا، وما لم يسَعْهم لا يسَعنا، فلا يجوز التوسع في أمور لم يفعلوها ولا أن نفعل أموراً لم يفعلوها؛ فإن النجاة من وراء ذلك؛ لأن ما فعلوه لا بد أن يستند إلى تعاليم من الله ورسوله، فقد كانوا بحقٍّ واقفين على مراد الدِّين وأوامره ونواهيه.

طريق للشرك:

أما الدكتور محمد إمام - رئيس مجلس أمناء السلفية وأستاذ السياسة الشرعية بجامعة الأزهر - فقد تَبَنَّى موقفاً جديداً من قضية التبَرُّك، الذي شاع في هذه الآونة وفي أفعال العامة وكلامهم، ومنها التبَرُّك بآثار الصالحين أو زيارة قبورهم أو التمسح بأضرحتهم وما شابه ذلك، وهذا النوع من التبَرُّك مذموم منهي عنه شرعاً، ولعظم الخطر الذي يشكله هذا النوع من التبَرُّك على عقيدة المسلم آثَرْنا أن نتحدث عنه في البداية، لا سيما أن هذا النوع من التبَرُّك قد يُوصِلُ أصحابه إلى الشرك، خاصةً إذا اعتقدوا أن أحداً غير الله ينفع أو يضُرُّ باعتبار أن هذا نوع من التوسل المذموم.

وفي المقابل، هناك نوع من التبَرُّك المشروع، وفي مقدمة هذا النوع التبَرُّك بالقرآن الكريم والسنة النبوية عبر قراءة القرآن والعمل بسنة النبي ﷺ، فهذه عبودية لله تعالى ذات نفع عظيم ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وكذلك التبَرُّك بآثار النبي ﷺ، فقد ثبت هذا التبَرُّك عن الصحابة في سنته الشريفة بإسناد صحيح، فذكر أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يأخذون من عَرَقِه ﷺ فيستعملونه مسكاً في قواريرهم[1]، وكانوا يأخذون ماء وُضوئه فيدلكون به أجسادهم[2]، بل ثبت أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أخذت من ريقه ﷺ تبَرُّكاً به[3].

وأقدَمَ عددٌ من الصحابة على التبَرُّك بسواك النبي ﷺ، وآخرون تعلقوا بخُصلة من شعره على نفس النحو، وهذا تبَرُّك مشروع بآثار النبي ﷺ إذا ثبت يقيناً أنها آثارُه عبر إسناد متصل وسليم، أما إذا كان الأمر قائماً على الشكِّ والتخمين فالأولى تركه.

ومع هذا يرى رئيس مجلس أمناء السنة أن التبَرُّك بالكتاب والسنة يأتي باتباع تعاليم القرآن والسَّيْرِ على سنة رسول الله ﷺ، فمثلاً رأينا مَن يقوم بتحنيك المولود عبر وضع التمرة في فمه، وتحنيك جسده، فهذا ليس تبَرُّكاً بالمحنِّك، إنما تبَرُّكاً بسنة النبي ﷺ، واتباع هَدْيه في هذا الفعل الذي ثبت عنه[4].

وما نتحدث عنه هنا، والكلام ما زال لرئيس مجلس أمناء السلفية، يعد نوعاً من التبَرُّك المشروع الذي ندعو الناس للسير على نهجه والعمل به، وتجنب التبَرُّك المحرم؛ فهو من البدع المستحدثة والمنكرات الفظيعة التي شاعت بين العوام، فمثلاً من أنواع التبَرُّك المذموم ما عُرف عن التمسح بالقرآن الكريم أو بصحيح البخاري أو بوضع المصحف في السيارة وكتب العلم في المنزل والسيارة والعمل والنظر إلى ذلك باعتباره من أفضل طرق تحصيل البركة؛ فهذا تبَرُّك مذموم ومنهي عنه.

لكن التبَرُّك المشروع يأتي بالاستجابة لأوامره والبعد عما نهى عنه، ومن العظيم جدّاً أن يتبَرَّك المسلم بكتاب الله وقراءة القرآن باعتباره من أفضل وسائل تحصيل البركة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٨١)، ومسلم (٢٣٣١) و(٢٣٣٢)، كلاهما عَنْ أَنَس بْن مَالك: «أَنَّ أُمَّ سُلَيْم كَانَتْ تَبْسُطُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِطَعاً، فَيَقِيلُ عِنْدَهَا عَلَى ذَلِكَ النِّطَعِ» قَالَ: «فَإِذَا نَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَتْ مِنْ عَرَقِهِ وَشَعَرِه، فَجَمَعَتْهُ فِي قَارُورَةٍ، ثُمَّ جَمَعَتْهُ فِي سُكٍّ»، وهذا لفظ البخاري، وفي رواية مسلم: فَفَزِعَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا تَصْنَعِينَ؟ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ نَرْجُو بَرَكَتَهُ لِصِبْيَانِنَا، قَالَ: «أَصَبْتِ».

(٢) في صحيح البخاري (٥٨٥٩) عَنْ عَوْنِ بْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ، عَنْ أَبِيه، قَالَ: «أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ فِي قُبَّةٍ حَمْرَاءَ مِنْ أَدَم، وَرَأَيْتُ بِلاَلاً أَخَذَ وَضُوءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالنَّاسُ يَبْتَدِرُونَ الوَضُوءَ، فَمَنْ أَصَابَ مِنْهُ شَيْئاً تَمَسَّحَ بِه، وَمَنْ لَمْ يُصِبْ مِنْهُ شَيْئاً، أَخَذَ مِنْ بَلَلِ يَدِ صَاحِبِه».

(٣) أخرج البخاري (٥٠١٦)، و مسلم (٢١٩٢) عن عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِه نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيه، جَعَلْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُهُ بِيَدِ نَفْسِه، لأَنَّهَا كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْ يَدِي» وَفِي رِوَايَةٍ: بِمُعَوِّذَاتٍ. وهذا لفظ مسلم.

(٤) أخرج البخاري (٣٩٠٩) و (٥٤٦٩)، ومسلم (٢١٤٦) عَنْ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا حَمَلَتْ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَتْ: فَخَرَجْتُ وَأَنَا مُتِمٌّ فَأَتَيْتُ المَدِينَةَ فَنَزَلْتُ بِقُبَاءٍ فَوَلَدْتُهُ بِقُبَاءٍ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَضَعْتُهُ فِي حَجْرِه، ثُمَّ «دَعَا بِتَمْرَةٍ فَمَضَغَهَا، ثُمَّ تَفَلَ فِي فِيه، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ دَخَلَ جَوْفَهُ رِيقُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ حَنَّكَهُ بِتَمْرَةٍ ثُمَّ دَعَا لَهُ، وَبَرَّكَ عَلَيْهِ وَكَانَ أَوَّلَ مَوْلُودٍ وُلِدَ فِي الإِسْلاَمِ».

ملاحقة الدراويش:

وشاطَرَه القول الدكتور محمد عبد المنعم البري - أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر -، والذي اعتبر أن من علامات الانحدار والانزلاق إلى المهاوِي ما يشيع بين العامة من ملاحقة الدراويش وأدعياء الولاية والوصال، وهي أمور شركية أو مدخل كبير نحو الشرك، فلا يليق بمؤمن أن يهدِمَ أعظم عِمادٍ من أعمدة التوحيد، فالنافع والضار والمُعِز والمُذِل هو اللهُ الواحد لا شريك له، ومن ثَمَّ فلا يصح للمسلم الحصيف صافي الإيمان الصادق الثقة أن تنزلق قدمه إلى مثل هذه السلوكيات، وأن يرى نافعاً غير الله أو ملجأ أو ملاذاً غير الله، أو ينزلق بفكره أو أمله أو رجائه إلا لله، وهذه أمور ينبغي العدول عنها.

جَهَالاتٌ وكوارث:

إن ما نراه من تبَرُّكٍ بشجرةٍ أو بمسجدٍ وبوليٍّ أمورٌ شِركيَّةٌ تنقطع تماماً عن التبَرُّك المشروع الذي وضع الشرع أُسُسَه، فالنافع الضار هو الله، والله وحده هو المعز المذل لا شريك له، ومن يتوهم غير ذلك فهو على حافة الشرك والهاوية، ونسأل الله أن ينجِّينا من هذه المزالق السيئة، والكوارث التي أنتجتها الجهالات والبعد عن جوهر الدين ولُبِّ الإسلام، والتي لا يجنى منها إلا ما يجني منها المشركون والمشوِّهون للعقيدة الصافية التي يعد التوحيد أبهى صورها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣]، وهذه هي القاعدة الشرعية التي لا ينبغي لقدم مسلم أن تنزلق إليها مهما كان الواقع الذي يعيشه والضغوط التي يتعرض لها.

أدوار في المعالجة:

ونبَّه إلى وجود دور كبير للعلماء في وضع قواعد المعالجة الشرعية لهذه السلوكيات الشركية عبر تفعيل دور الدعاة عبر ما أسماه «المدارسة وإبلاغ كلمة الحق والتوحيد وتنقية العقيدة من الشوائب والشبهات ومحاربة البدعة بكل الوسائل، فليس من الإسلام أن يطلب المسلم المدَدَ من شجرة أو من حيوان أو غير ذلك، وهذه سلوكيات تدل على قصور الدعاة وعدم اهتمامهم بأمور العقيدة، وتأكيد على انحراف الفضائيات ووسائل الإعلام عن الطريقة الصحيحة بشكل أنتج الكوارث الشركية والبدعية التي تحاصرنا».

وكذلك على وسائل الإعلام دورٌ كبير في هذا الصدد، عبر الحرص على استضافة العلماء أهل الفهم والوعي، على أن يضعوا في الاعتبار ضرورة توعية المسلمين بالفكر الإسلامي الصحيح؛ لذا فمن المهم المراهنة على بعض الفضائيات الإسلامية الجادة لتعديل هذه المعوجات التي أصابت الكثيرين بخلل في عقيدتهم، ومن سيطرة مفاهيم خاطئة على العامة بعيدة عن جوهر الإسلام.

ومن المهم كذلك - بحسب الدكتور البري - العملُ على إصلاح مناهج التعليم، وإزالة ما بها من كوارث شرعية وسلوكيات بدعية، والتركيز على محْوِ هذه البدعيات من سنوات الدراسة الأولى حتى لا نرى مناهج تعليمية تهلِّلُ للتبَرُّك بأصحاب القبور وتطرب لأصحاب الأضرحة.

ونبَّه إلى أنه لا يصح أن تسيطر هذه السلوكيات على حياتنا مع التفوق التكنولوجي العالمي والارتقاء الأدبي، في ظل ما نمتلكه من تراث خالد ومواريث راقية، فنبينا ﷺ وسلفنا الصالح لم يكونوا يتمسَّحون بقبر ولا يطوفون بشجرة باعتبار أنها مدخل إلى الشركيات، بل إن هناك من يرفضون أيَّ تبَرُّك بأعمال الصالحين والأولياء، فالتبَرُّك لا يكون إلا بالله ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

ولفت البري إلى ضرورة التركيز كذلك على الأهمية القصوى للتركيز على دور قوافل العلماء للمناطق النائية في استئصال شأفة هذا المرض العُضال من جسد المسلمين، وأتذكر هنا أن قوافلَ من العلماء ذهبت إلى مناطق نائية ونجحت في وَأْدِ مِثْلِ هذه الفتن، والعودة بعدد كبير من المسلمين إلى الجادَّة، وتنقية عقيدتهم من الشوائب، وهو ما نرجو أن يداوم عليه العلماء والمؤسسات الدينية حتى نستطيع التصدي لهذه العقائد الشركية والبدع المستنكرة.

[المسلمون.. والعالم]

الحراك العراقي وصراع الهوية
د. عبد الرحمن سلوم الرواشدي

ثورة سورية والبحث عن ممثل سياسي
هيثم بن محمد الكناني

أطفال فلسطين.. هدف للاعتقال والتعذيب
منجي بن مصباح تونس

ماذا لو فقدنا الثورة المصرية؟!
د. طارق الزمر

الأبعاد الإقليمية لأزمة مالي
محمد سليمان الزواوي

مرصد الأحداث
عمرو عبد البديع

الحراك العراقي وصراع الهوية

د. عبد الرحمن سلوم الرواشدي(*)

يقول رسول الله ﷺ: لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ(١).

فالرسول – عليه الصلاة والسلام – يبعث في الأمة تفاؤلاً وأملاً بالظهور والعلو، وإن كان من قبل طائفة، مع إحاطة ذلك الظهور بخذلان المقربين وطغيان المتجبرين والظالمين، فكيف إن كانت الطائفة أمة من المسلمين تكالب عليها أعداء اختلفوا في مرجعياتهم الفكرية والسياسية، لكن جمعهم طمس هوية أهل السنة واستئصال شوكتهم، وقد هيمن على أمرهم نظام طائفي دموي ظالم.

إن إزالة الظلم مطلوب شرعاً، وقد تكون بالكلمة الحقة الجريئة التي تقال للظالم الجائر، يقول عليه الصلاة والسلام: أَفْضَلُ الجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، وفي رواية كلمة عدل (أخرجه أصحاب السنن).

فإن لم تنفع، فتكون الإزالة بكل وسيلة يجوّزها الشرع، ومن هذه الوسائل خروج أهل الحق (المعتصمين) وتجمّعهم واستمرارهم على الاعتصام حتى بلوغهم هذه المطالب المشروعة، فقد جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يَشْكُو جَارَهُ فَقَالَ: اذْهَبْ فَاصْبِرْ. فَأَتَاهُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا فَقَالَ: اذْهَبْ فَاطْرَحْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ. فَطَرَحَ مَتَاعَهُ فِي الطَّرِيقِ فَجَعَلَ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ فَيُخْبِرُهُمْ خَبَرَهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَلْعَنُونَهُ فَعَلَ اللَّهُ بِهِ وَفَعَلَ وَفَعَلَ، فَجَاءَ إِلَيْهِ جَارُهُ فَقَالَ لَهُ: ارْجِعْ لاَ تَرَى مِنِّي شَيْئًا تَكْرَهُهُ. وفي رواية: فجعلوا يقولون اللهم العنه اللهم اخزه. فبلغه فأتاه فقال ارجع إلى منزلك فوالله لا أؤذيك(٢).

فالرسول – عليه الصلاة والسلام – أمر رجلاً بالخروج إلى الشارع مع متاعه ليعلن للناس ظلم جاره، فتتجاوب معه الجماهير، فكيف إذا ظُلمت أمة بأسرها من قبل طاغية ظلوم؟ وإذا ندم الظالم تحت ضغط الجماهير الغاضبة حدّ الجهر باللعن فرجع عن ظلمه بتطبيع الأمر مع من ظلمه، فكيف بحاكم يتمادى بظلمه، ويتمرد في طغيانه، ويتصاعد في تعسفه وجوره وانتقامه وانتهاكاته للحقوق المشروعة؟

وهكذا أظهر أهل السنة في العراق حقهم في نصرة هويتهم ووجودهم وحقوقهم المشروعة والمسلوبة، وأعلنوا على الملأ قضية ظلمهم وإقصائهم في حراك شعبي غصت به ساحات الاعتصام وميادين التظاهرات وباحات المساجد والمصليات في جمع موحدة.

ومن الطبيعي أن ينطلق الحراك الشعبي في المناطق السنية؛ كونها الأكثر تضرراً وتعرّضاً للقمع والقهر والإقصاء التاريخي، فالمحرك الأساس لهذا الحراك كما يقول أحد قادته: هو (الشعور بالظلم)، وأن أهل السنة يعاملون في العراق وكأنهم مواطنون من الدرجة الأدنى، أو أنهم يشكلون عبئاً غير مرغوب فيه بالعراق الجديد.

(*) المشرف العام على وكالة حق الإخبارية.

(١) رواه البخاري (٦٨٨١) ومسلم (٥٠٥٩).

(٢) رواه أبو داود (ح ٥١٥٥) والبخاري في الأدب المفرد (ح ١٢٤).

نحو هوية سنية

رغم أن الحراك الشعبي السني دخل شهره الثاني ولم ينجز هدفه الكبير في تغيير النظام أو إصلاحه وما يندرج تحته من مطالب مشروعة جاءت على لسان قادة الحراك؛ إلا أنه حقّق بعض المكاسب المرحلية فيما يتعلق بالهوية السنية، منها:

أولاً: أعاد الحراك الشعبي السني للشارع صبغته الإسلامية، وقلب الموازين على ما تشدق به العلمانيون وسعوا مع بعض أبناء جلدتنا إلى ترسيخه بادعاء فشل الإسلاميين في المشهد العراقي، وإذا كان هذا ينطق على مدعي الإسلام من الأحزاب الحاكمة أو المشاركة، فإن تصدر العلماء والخطباء لمنصات الحراك الشعبي أعاد إلى الشارع بصمته الإسلامية الصادقة، فكان الحراك بحق انتفاضة العمامة البيضاء، لتزيده طهراً ونقاء وصلابة وشرعية.

ثانياً: شكل الحراك خطوة في تعزيز الهوية السنية وجعلها القضية المحورية، ليصبح مرحلة التقاء واجتماع لأهل السنة في العراق، بعد أن مزقتهم العملية السياسية، وتجاذبتهم الخطوب والأهواء وغلبة التصدر والاستعلاء عند بعض رموزه، والاجتماع على الحق لا يأتي إلا بخير، (فالاجتماع رحمة والفرقة عذاب).

ثالثاً: عزّز الحراك الشعبي السني في العراق الخطوات العملية في تشكيل مرجعية شاملة لأهل السنة في العراق، فقد تعرّض هذا المشروع الكبير لانتكاسات منذ أن وقع العراق تحت احتلال أمريكي ونفوذ إيراني صفوي، وباءت جميع المحاولات لتشكيل مرجعية لأهل السنة بالفشل على الرغم من مشاركة قوى متعددة في ذلك، ويمكن رصد تجربة مجلس شورى أهل السنة الذي عقد مؤتمره الأول في عام ٢٠٠٣، لكنه سرعان ما انفض ممزقاً النسيج السني، ولم ترقَ هيئة علماء المسلمين لتكون مرجعية موحدة لأهل السنة، وكانت الأجواء مهيأة لذلك، كما أن التجربة السياسية المتمثلة في تشكيل جبهة التوافق العراقية، سرعان ما انهارت بعد مرحلة انتخابية واحدة (٢٠٠٥ - ٢٠١٠)، في المقابل تأتي تجربة المجلس السياسي للمقاومة العراقية الذي ضم أغلب الفصائل المسلحة السنية، ليكون إطاراً مرجعياً لهذه الفصائل، لكنه تعرض لضغوطات أضعفت المسؤولية لأغلب قادته في تحقيق تلك المرجعية، ولسنا هنا في موضع بحث الأسباب وتحليل بيئة الفشل على أهميته.

واليوم يأتي الحراك الشعبي ليكمل مثلث مرجعية أهل السنة بعد انسحاب قوات الاحتلال الأمريكي، فقد تشكّل المجمع الفقهي العراقي لكبار العلماء للدعوة والإفتاء، ليكون مرجعية شرعية مستقلة لأهل السنة والجماعة، كما نص على ذلك في نظامه الداخلي، وبلغ مشروع المؤتمر الوطني لسنة العراق مراحله النهائية والذي يسعى ليكون مظلة جامعة لمكونات أهل السنة (العرب والكرد والتركمان)، واشترط في عضويته أن يكون سنياً يعتز بهويته السنية.

وإذا كان الحراك الشعبي السني قد شكل مرجعية جماهيرية شعبية لأهل السنة في العراق، فإنه أسهم في تعزيز المشروعين السابقين، إذ عقد المجمع الفقهي مع علماء محافظة صلاح الدين مؤتمراً موسعاً للعلماء والأئمة والخطباء تجاوز عدد المشاركين فيه ١٠٠٠ شخصية علمية، كما أعطى القائمون على المؤتمر الوطني لسنة العراق مساحة واسعة في تشكيله لقادة ورموز الحراك الشعبي السني، وعقدت مؤتمرات مصغرة لقادة الحراك برعاية المؤتمر الوطني لسنة العراق أو بتنظيم من بعض مكوناته الرئيسة.

رابعاً: ترسيخ مبدأ المفاصلة بين الجماهير والقادة الأدعياء، وفق الهوية السنية، ومدى العمل لها، وأخذ استحقاقاتها، ورفض كل من يعتمد الازدواجية في الولاء لهويته والتلوّن في المواقف المصيرية والجوهرية، فعندما أراد أحد قادة القائمة العراقية الصعود إلى المنصة سألته الجماهير أنت مع مَن؟ فقال: أنا معكم ومع المالكي؛ فطردته ورمته بالأحذية والحجارة، وأرسل أحد العلماء من قادة الحراك الشعبي رسالة شفوية إلى رئيس ديوان الوقف السني، مفادها: إن لم تكن معنا في الاعتصام فليس لك مستقبل معنا. وطالبت الجماهير المعتصمة في سامراء في بيان لها (النواب والوزراء السنة في حكومة المالكي، بالانسحاب والالتحاق بالمعتصمين)، واستجاب أكثر البرلمانيين والوزراء السنة، فشاركوا إخوانهم ميادين الحراك.

كما كشف الحراك الشعبي حقيقة المواقف للقوى السياسية

التي تجيد التصعيد الإعلامي في نقد أداء الحكومة من دون استعمال الأساليب التي قد تذهب بها، وحالهم كحال من يضع رِجلاً في الحراك وأخرى في الحكومة، بل إنه ارتضى لنفسه شغل الحقائب الوزارية التي امتنع وزراؤها السنة عن حضور مجلس الوزراء.

خامساً: الخروج ضد الحكومة الطائفية وإشعارها بقوة الشارع السني، أمر ضروري لتعرف الحكومة حجمها الطبيعي، وإنها ما وصلت لسدة الحكم إلا بالتزوير وترويع الأهالي، لتنهب وتسرق وتقتل وتعتقل باسم الديمقراطية الأمريكية المؤطّرة بالفوضى الخلّاقة، والمادة (٤ - إرهاب) المثقلة بالحقد الصفوي، وقد دفعتها في الانتفاضة الأولى على لسان رئيسها بإعلانه عدم الترشح للدورة الانتخابية القادمة، والآن بإقرار البرلمان قانون تحديد ولاية الرئاسات الثلاث بدورتين فقط وبأثر رجعي.

كما رسخ الحراك الشعبي وتداعياته ازدواجية الحكومة في التعامل مع مكونات الشعب، ففي الوقت الذي يهاجم فيه رئيسها وزبانيته الحراك الشعبي رغم سلميته، ويصفه بأشنع العبارات، ويتهم قادته بقطع الطرق والتأثير على مؤسسات الدولة، ويصدر أوامر باعتقال بعض قادة الحراك ومنعت آخرين من دخول بغداد بمن فيهم مفتي الديار العراقية الشيخ الدكتور رافع العاني، وأغلقت الطرق، وقامت بحملات اعتقال وتفتيش شديدة، لا سيما عندما أعلن قادة الحراك التوجه إلى جامع أبي حنيفة في الأعظمية لإقامة جمعة موحدة؛ فإن حكومة المالكي ترتضي لأمين حزب الله في العراق واثق البطاط أن يتصدر وسائل الإعلام ويعلن حربه على شريحة واسعة من أبناء الشعب، بل ينطلق في خطوات عملية بتشكيل جيش المختار، ويتحدى الحكومة بأنه موجود في بغداد، ولم تحرك ساكناً، بل إن المشهد يعود بنا حينما أعلن مجلس محافظة ديالى بأغلبيته تشكيل إقليم محافظة ديالى، فقامت الميليشيات بالانتشار المسلح في شوارع المحافظة والاستيلاء على مقر المحافظة وتدمير بعض الممتلكات العامة، ومهاجمة أعضاء مجلس المحافظة، وقامت بقطع الطريق الدولي بين بغداد وكركوك، فبادرت حكومة المالكي باعتقال بعض أعضاء مجلس المحافظة، وأثنت على فعل الميليشيات.

سادساً: شكل الحراك الشعبي السني خطوة في تفكيك التحالف الاستراتيجي المقدس بين الكرد والشيعة، وينبغي أن يلحق بخطوة أخرى يقوم بها قادة أهل السنة في بناء تحالف استراتيجي بين الكرد والسنة، لا سيما بعد أن صرح رئيس إقليم كردستان مسعود البرزاني باعتزازه بسنيّته، ووجه دعوة لزيارة الإقليم إلى رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين الدكتور يوسف القرضاوي، فالهوية السنية خير ما يجمعنا في صراع الهويات والإرادات الذي يدور في رحى العراق.

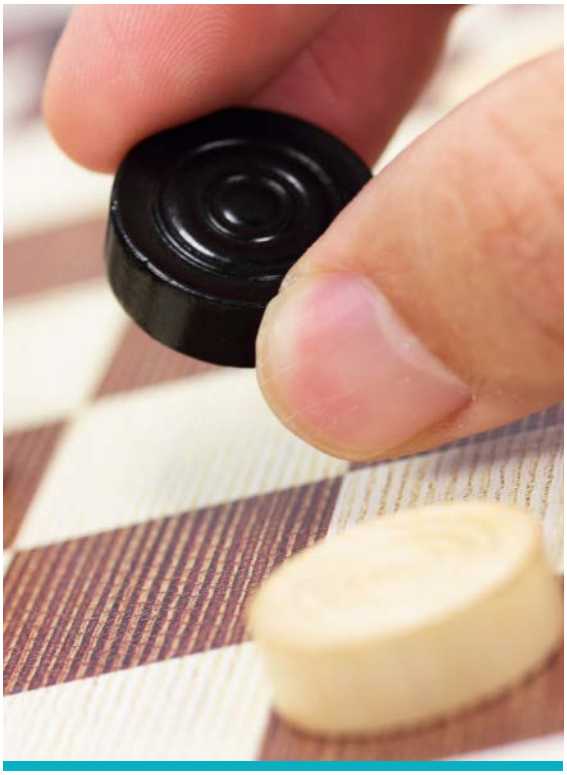

مقومات الغايات

إن التجارب العملية للمشروع السني في العراق لطالما تقطع شوطاً في الإنجاز، لكنها تفتقر إلى البصمة النهائية التي تحقق الغاية المرسومة أو المنشودة، ومن هنا فإننا نحاول الإحاطة بما يحتاج إليه الحراك الشعبي السني في العراق ليحقق مقاصده، ويتجلى بعد توفيق الله تعالى وتأييده في التالي:

١. إن أهل السنة في العراق الذين قدموا تضحيات عظيمة على مدى سنوات الاحتلال، لا يحتاجون إلى حراك ثوري مجرد، وإنما إدارة صراع توازي التحديات التي تواجههم، والقوى الإقليمية التي تجثم على صدورهم، على أن تكون

هذه الإدارة مدعومة بصورة إيجابية من قوى أخرى تؤمن بأن الصراع في العراق وفي المنطقة صراع هوية ووجود.

٢. شـــيوع الاختلاف عند العراقيين! ما أدى إلى فقدان القضيـــة المحورية لأهل الســـنة، ولذا علينـــا تحرير قضية العراق قبل تحريره، فالثورات العربية كانت واضحة ومحددة المقاصـــد، أما العراق فلا تزال بعض قضاياه الاســـتراتيجية بحاجة إلى تحرير علمي ودقيق، منها:

– ما طبيعة النفوذ الأجنبي في العراق؟ وما طبيعة النزاع الداخلي (طائفي، قومي، سياسي)؟

– ما طبيعة النظام السياســـي المقبول الذي يحقق العدل والحكم الرشيد؟ وما موقفنا من الرؤية الشيعية (تغيير الحاكم لا تغيير الحكم، وبمعنى أوضح بقاء الحكم شيعياً بغض النظر عمن يحكمه)؟

– ما الخطوات المرحلية التي يمكن أن تضبط مسار أهل السنة، وما ينبغي أن تكون عليه الخيارات المفتوحة التي تحقق ولو الحد المقبول من طموحات أهل الســـنة؛ ولذا ينبغي عدم التعجل في إصدار فتاوى ومواقف مبدئية تجاه أي خيار يمكن أن يندرج ضمن هذه المرحلية، ومنها المطالبة بتشـــكيل إقليم ســـني يجمع المحافظات السنية ضمن مبدأ تقاسم السلطة لا تقسيم البلد.

وغيرها من القضايا المصيرية والجوهرية والاستراتيجية، وهذا التحرير يستلزم البلورة والإبراز والتنفيذ.

٣. معالجـــة أزمة قيادة أهل الســـنة، لا لعدم وجود القادة، وإنما لعدم وجود مساحة تفاهم كافية بين قادة البلد وفي جميع الاتجاهات (سياسيين ودينيين ومقاومين ومتظاهرين)؛ وإن عدم وجود مرجعية واضحة لهذا الحراك أو الجهات المنظمة له، وقبل ذاك وجود مرجعية ســـنية؛ يســـهم في إضعافه، ولذا لا بد من وجود قيادة سنية حقيقية شاملة ومعارضة في هذا الوقت تتمتع بوجود رســـمي وحرية العمل، لتستثمر طاقات الناس، وتحرك الجماهير، وتبلور مشروع الثورة وتديمه، ولتكون مراقباً حقيقياً لأداء الحكومـــة وأجهزتها، ولتقف بحزم أمام تجاوزاتها وقمعها للحراك الشعبي، ولتحشيد الدعم والتأييد العربي والدولي له، وقد سبق أن سلّطنا الضوء على هذه الفقرة.

وعلـــى هذه القيادة المخلصة تحمّل مســـؤوليتها بشـــكل جاد ومتزن بعيداً عـــن الأمجاد والتغنـــي بالماضي، والمثالية في الطروحـــات أو الإغراق في الواقعية، والنأي عن المصالح الشخصية والحزبية.. يقابله تحمّل الدول العربية والإسلامية مسؤوليتها في جمع هؤلاء القادة، لا سيما مع وجود الخلاف بينهم (كما قامـــت مصر بجمع قادة فتح وحماس، ودور قطر بجمع الأطراف اللبنانية وكذلك جمع قادة السودان ودارفور). وأمـــا الخطوات الخجولة التي قامت بهـــا بعض الدول فإنها لا ترقى إلى مســـتوى أداء أهل الســـنة منذ عام ٢٠٠٣ حتى اليوم، ولا مع طموحات أبناء الشعب العراقي، والعمق العربي والإسلامي والإقليمي للعراق.

٤. ضرورة تكاملية الأداء عند القوى السياسية والمعارضة والمتظاهرة لأهل الســـنة، وحســـن توزيـــع الأدوار أمام تعدد التحديات والخطوب التي تواجه الشعب العراقي، والمكر الذي تتبعه الحكومة في التلاعب بمشاعر أبناء الطائفة التي تنتمي إليها لتحشيدها أمام هذه المشاريع.

٥. الانتقال بعمل الجماعات السنية، لا سيما التي لها دور في الحراك الشعبي، من مبدأ التنافس إلى مبدأ التعاون، فإن اللـــه تعالى أمر بالتعاون ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِـرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، ونهى الرســـول – عليه الصلاة والســـلام – عن التنافس المذموم بقوله: (لاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا وَلاَ تَنَافَسُـــوا وَكُونُوا عِبَـــادَ اللَّهِ إِخْوَانًا)[1]، وفي علم الإدارة إن الجماعات المتعاونة أكثر عطاء من الجماعات المتنافســـة، ولطالما أذهب التنافس المذموم – الـــذي دافعه الانفراد – بالخيـــر وضيّع كثيراً من النتائج المرسومة التي قاربت أن تؤتي أُكلها.

٦. إن صراع الهوية في العـــراق ليس بمنعزل عن صراع الهويات في الدول العربية والإسلامية، لا سيما دول الجوار؛ ففي ســـورية بلغ الصراع أوجه ودخلت إيران بثقلها فيه حتى صرح أحد ساســـتها بأن الدفاع عن دمشق دفاع عن طهران، ومعلوم أن نظام الحكم في سورية أصبح قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، ما يدفع إيران لأن تقدم أضعاف دعمها للحكومة الطائفيـــة في بغداد لضمان بقائهـــا، في حين لا يزال العرب غائبين عن الصراع في العراق؛ ولذا فإن المشروع السني بكل أبعاده بحاجة إلى دعم عربي سياســـي وإعلامي ومادي جاد ومتواصل من أجـــل ديمومته وتطويره وترشـــيده وإخضاعه للتخطيط الاستراتيجي ليرقى إلى مستوى الطموح والنجاح.

(١) (متفق عليه).

ماذا لو فقدنا الثورة المصرية ؟!

د. طارق الزمر

لم يعد هناك شك بأن الثورة المصرية العظيمة قد فتحت أمام المصريين أبواب الأمل في غد أفضل على كل المستويات وعلى كل الأصعدة، وأن هذه الثورة قد رفعت سقف طموحات المصريين بشكل لم يحدث من قبل، لا سيما بعد أن كشفت عن حجم الفساد اللامحدود الذي كان يمارسه النظام السابق وكل رموزه.

لهـذا يصبح من أهـم أولويات الحكـم الحالي والنخبة السياسية المعاصرة، العمل على استكمال هذه الثورة العظيمة حتى تستكمل كل فصولها وحلقاتها وتحقق جميع أهدافها، كما يجب أن يكون معلوماً أنه لو حدث – لا قدر الله – وفشلت هذه الثـورة أو أجهضت؛ فإن المصير الـذي ينتظر الأجيال القادمة سـيكون أسوأ من المصير الذي تعرض له هذا الجيل الذي عاش كل عصـر مبارك بكل ما فيه والذي حقق أرقاماً عالمية في كل مظاهر الفساد.. ولعل هذا الداعي من الدواعي المهمة لكي نستشعر المسؤولية التاريخية الملقاة على عاتقنا.

كمـا أن التاريخ والأجيال القادمة لـن تعفي هذا الجيل الذي شـهد مولد هذه الثورة من مسؤولية إجهاضها أو حتى معاصرة هذا الإجهاض، وذلك بغض النظر عن التوجهات التي يحملونها أو الانتماء السياسـي الذي ينتمون إليه أو التنظيم الذي يعملون من خلاله؛ فالجميع سيكون حينئذٍ مسؤولاً عن فشـل هذه الثورة، أو بالأحرى تضييـع أثمن فرصة لإصلاح النظام السياسـي المصري والأوضاع السياسية المصرية التي شهدت استبداداً وترديات ربما لم يشهدها أي بلد ديكتاتوري فـي العالم، كما أن هذا الجيل سـيكون مسـؤولاً أيضاً عن تضييـع أهم فرصة لتغيير وجه الحيـاة في مصر على مدى عقود طويلة قادمة.

إن أهمية الحفاظ على الثورة المصرية ترجع إلى الأهداف السياسية والاستراتيجية بل والإنسـانية التي ارتبطت بها.. فليس من قبيل المبالغة أن نتصور أن الشـرفاء في العالم ما زالوا يتصوّرون أن هذه الثورة يمكن أن تكون نقطة التقاء بين كل المهمّشـين والمظلومين في عالم اليوم، فهذه الثورة بالذات تصلح لكي تكون أساسـاً لثورة عالمية تخلص إنسـان القرن الحادي والعشـرين من حالة البؤس الاجتماعي والاقتصادي والقيمي التي وصل إليها في ظل تحكم وسـيطرة الرأسمالية الجشعة.

ومن هنا يمكن أن نتصـور حجم ومدى المخطط المركزي الذي يهدف لإيقاف تأثير هـذه الثورة، والذي يعمل على أن يتم إجهاضها قبل أن تبلـغ أياً من الأهداف التي تعلقت بها؛ وذلك لإدراكه بأن إجهاض هذه الثورة سـيصيب كل الشرفاء فـي العالم باليأس من إمكانيـة التغيير أو الإصلاح، ومن ثمّ تواصل الرأسـمالية البشعة سيطرتها على الأجساد والعقول في مسلسل متصاعد لقمع الإنسان وتعذيبه وتنميطه بأحدث وسائل التنميط والسيطرة.

إن حجم المسؤولية الملقاة على الجيل المصري الحالي يمكن إدراكها بشكل حقيقي إذا وقفنا بدقة على الخسائر والترديات المتوقعة حال فشل أو إجهاض الثورة المصرية العظيمة، والتي يمكن الوقوف على أهمها كالتالي:

أولاً: يجـب أن يكون معلوماً أن فشـل الثورة المصرية سـيلقي بظلاله بشكل مباشـر على ثورات الربيع العربي؛ فالثـورة المصرية، كما كل شـيء في مصـر، لها أثر كبير على أوضاع العرب وحالتهم، فإذا فشـلت هذه الثورة فلا تتوقـع غير ذات المصير للثـورات العربية. ومن هنا يمكن أن نـدرك لماذا أصبح إجهاض الثـورة المصرية في القلب من المخطط الدولـي والإقليمي لإجهاض الثورات العربية، وذلك لأن إجهاض الثورة المصرية سـيصب في النهاية في بقاء أوضاع المنطقة كما كانت وبالأخص بالنسـبة لمصالح أمريكا وإسرائيل.

ثانيـاً: كما أن إجهاض الثـورة المصرية يعني بين أهم وأخطر ما يعني عودة نظام مبـارك مرة أخرى، أو بمعنى أدق وأخطر عودة كل سياساته التي غرست في مصر على مدى عقود أربعة، والتي تشـربت بها العديد من المؤسسات وصنعت معها شـبكة مصالح وعلاقات لا يمكنها أن تعيش دون هذه السياسـات.. وفي هذا يجب أن نعلم أن الولايات المتحدة وهي تسعى لتأسيسـها وبنائها الأنظمة التي تدور في فلكها وتعمل لصالحها وتأتمر بأمرها؛ فإنها تؤسـس معها هذه الشـبكة من العلاقات والمصالح التي لا تسـمح بسـقوط تلك النظم، بـل تعمل على حمايتهـا، كما تعمل تلقائياً إلى عودتها حال سقوطها.

ثالثاً: من بين أهم الأجهزة المرة التي زرعها نظام مبارك في أرضنا والتي أهانت الشعب المصري بشكل لم يحدث من قبل، والتي تركت خلفها ذكريات مريرة لا يمكن أن تنساها مصر؛ هو جهاز مباحث أمن الدولة، ذلك الجهاز الذي عاد يتهيَّأ من جديد للعودة على أنقاض الثورة المصرية، ومن ثم فقد عاد يتهيَّأ لاستئناف مهمته التدميرية، بل الانتقام من كل من أيَّد الثورة ورضي عنها أو حتى استفاد منها!

رابعاً: لم يعد خافياً أن إمبراطورية رجال الأعمال التي ترعرعت في عهد المخلوع هي من أكثر المناطق التي تأثرت بسقوط ذلك النظام الفاسد، ورغم أنها لا تزال تعمل بذات الكفاءة إلا أنها تنتظر حال نجاح الثورة أن تحرم تلقائياً من ذلك المركز المتميز الذي تمتعت به على مدى أربعة عقود؛ لهذا فهي وحتى إشعار آخر لا تزال مستفيدة بقوة من المراكز التي استفادتها، ولا تزال تمتص دماء أهلنا وفقرائنا الذين لم تصلهم ريح الثورة أو حتى رائحتها بعد.

خامساً: من أهم مساوئ نظام مبارك التى ورثها من نظام السادات وأمعن فى تعميقها، هي تلك التبعية المهينة للسياسات الأمريكية الإسرائيلية، وهي السياسات التي لا تزال متربعة على عرش السياسة المصرية والتي لا يتصور أحد أن يتم التخلص منها بين عشية أو ضحاها؛ لأنها تحتاج إلى خطة طويلة المدى حتى تكون عميقة الأثر.. هذه السياسات ستعود بشكل أخطر وأسوأ إذا - لا قدر الله - فشلت الثورة المصرية أو لم تستكمل بشكل صحيح.

سادساً: كما أن عودة السياسات الداعمة للمشروع الإسرائيلي في المنطقة والتي تعدت كل الحدود وفاقت كل تصور؛ ستكون من أهم الثمار المرة لإجهاض الثورة المصرية.. وهنا يجب أن نلاحظ أن «كامب ديفيد» قد أورثتنا وضعية سياسية واستراتيجية وأمنية لا تليق بمكانة مصر ولا بدورها التاريخي القائد، وبالأحرى لا تليق بمصر الثورة! فالثورة تعني بين أهم ما تعنيه التخلص من كل القيود، وبالأخص قيود التبعية.

سابعاً: كما أن تسليم أبنائنا لاستباحة صحتهم وتدمير عقولهم وإنهاء أي إمكانية لتعليمهم تعليماً جيداً؛ سيكون نتيجة منطقية لعودة نظام مبارك، أو بالأحرى سياساته.. ولا يجب أن ننسى ونحن نعالج هذا الملف المهم أن نظام مبارك قد حقق لأجيالنا أكبر أرقام قياسية في أعداد المصابين بعدد من الأمراض الخطيرة، مثل فيروس سي والفشل الكلوي والسرطان!

في الختام: فإنني أهمس في أذن كل غيور على الثورة وحريص على مستقبل الأجيال القادمة، أن يدقق هذه الأيام في كل تصرفاته بل وكل أقواله؛ وذلك حتى لا يكون سبباً في هدم الثورة التي أصبحت مصدر عِزة المصريين وعِزة وكرامة أبنائهم.. كما يجب أن يكون معلوماً أنه - لا قدر الله - لو سقطت الثورة اليوم فإنها لن تسقط إلا في حجر التنظيم الأكثر استعداداً لاستقبالها، وهو «تنظيم الحزب الوطني» الذي يعد الأكثر تنظيماً والأكثر استعداداً، سواء على مستوى استمرار سيطرته على كثير من مفاتيح البلاد داخل المؤسسات، أو على مستوى سيطرة رجال أعماله على ثروة مصر، أو على مستوى التأهل للقبول الخارجي لا سيما من القوى والدول التي كانت تعد نظام مبارك كنزاً استراتيجياً بالنسبة لها!!

والبحث عن ممثل سياسي

هيثم بـن محمد الكناني

طوال ما يقرب من عامين عانت الثورة السورية غياباً شبه كامـل في الجانب السياسـي من حراكها، وغيـاب من يمثلها تمثيلاً حقيقياً ويعبّر عن جماهيرها ويتبنّى تطلعاتهم، وإنَّ مما لا شـك فيه أن وجود جناح سياسـي للثورة يعبّر عنها ويناور باسمها ويسعى إلى تحقيق مصالحها؛ أمرٌ في غاية الأهمية، لا سيما مع طول عمر الثورة بما لم يُسبق له مثيل في الدول التي شهدت ثورات الربيع العربي.

وقد كانت الفرصة كبيرة ومواتية للائتلاف الوطني برئاسة الشيخ معاذ الخطيب ليمثل هذا الجناح، بعد فشل كل الكيانات التي تشـكَّلت سابقاً في تحقيق هذا الهدف، فبرغم بَدء نشاط المعارضين السياسيين في وقت مبكر من عمر الثورة عبر عقد اللقاءات والاجتماعات داخل سـورية وخارجها؛ إلا أن النخب السياسية ذات المرجعيات الفكرية المختلفة لم تكن مؤهَّلة للعب هذا الدور لأسباب كثيرة؛ فالقوى المنظمة والمتجمعة في أحزاب أو جماعـات كانت محظورة طوال حكـم البعث منذ منتصف السـتينيات الميلاديـة - إلا مجموعة من الأحـزاب الصورية المنضويـة مع حزب البعث الحاكم في جبهة واحدة هي الجبهة الوطنية التقدمية -؛ لذا كان عمل الأحزاب المعارضة ونشاطها يتم في السـر، وفي إطار نخبوي ضيـق، بحيث لا يزيد عدد أعضاء كل حـزب مهما كبر على المئات، وأما جماعة «الإخوان المسلمين» فقد كانت الضربة التي تلقتها في الثمانينيات خلال المواجهة مع نظام الأسد الأب قوية لدرجة أخرجتها بشكل شبه كامل من الساحة السياسية الداخلية، فكثير من القادة خرجوا من البلاد، وبعضهم قُتل أو اعتُقل ثم مات في السجن، وبعضهم فـي عداد المفقودين، وخـلال ما يقرب من ثلاثـين عاماً من الجمود وعدم القدرة على الحركة في الداخل، فقدت الجماعة كوادرها وقواعدها إما بالقتل أو الاعتقال أو الموت أو النكوص والتراجع، فاقتصر نشـاط الجماعة علـى العمل خارج البلاد

بشـــكل لم يكن له كبير أثر لا على الواقع السياسي السوري ولا على شـــعبية الجماعة التي وصلت إلى أدنى مستوياتها بسبب ما تقدم، وبســـبب الضخ الإعلامي الكبير من الإعلام الرسمي والمناهج التعليمية التـــي تربى عليها مَن كان طفلاً وصار اليوم قريباً من الأربعين من عمره، وقد كان لهذا أثره الســـلبي على قـــدرة الجماعة على العمل في الداخل بعد الثورة، ســـواء من حيث المشـــاركة في الحراك الســـلمي في البداية، أو من حيث وجود جناح عسكري كبير بعد بداية العمل المسلح.

ومع اندلاع الثورة وانتشـــارها وتجاوزها مرحلة الانتفاضة المحدودة، وجد السياسيون المعارضون من كل الاتجاهات – سواء كانوا منظمين أو مستقلين –؛ وجدوا أنفسهم أمام تحدٍّ لم يعدوا له العدة، وليست عندهم مساحات واسعة ليتحركوا من خلالها فـــي الداخل، فالجماهير التي خرجت ليســـت منظمة ولا تتّبع فكـــراً أو تنظيماً محدداً ليتم التأثير عليها أو توجيهها، بل إنها في انقطاع شبه تام عن الجماعات والأحزاب. وهذه الجماهير لم تخرج تلبية لدعوة بعض الشباب السوري الناشط على شبكة الإنترنت من مختلف التيارات والتوجهات الفكرية والسياســـية، إســـلامية وغير إســـلامية، الذي أراد أن يستلهم تجربة تونس ومصر؛ لأن دعوة هذا الشـــعب للتظاهر عبر الشبكة لم تلقَ إلا تجاوباً محدوداً جداً، ولم يتحرك الناس إلا بسبب حادثة أطفال درعا الشهيرة.

جزء من معارضة الداخل، وهو ما يسمى «هيئة التنسيق»، لم يكن مؤهَّلاً للعب هذا الدور، بل لم يســـعَ له أصلاً؛ لأنه كان يلعب السياســـة بالقواعد القديمة التي تجعل المحرك للحدث هو النخب السياسية، بينما تكون الجماهير تبعاً، فلم تستوعب الهيئة التغيـــرات الكبيرة التي حصلت مع هبـــوب رياح الربيع العربي، فـــأرادت أن تلعب اللعبة مع النظـــام عبر المفاوضات والحوار والتغيير التدرجي بهدف الإصلاح، وكان هذا مناســـباً جداً للنظام ولداعميه في روســـيا وإيران، لكنه عزل الهيئة عن الجماهير بشكل كامل.

الجزء الآخر من معارضة الداخل – لا ســـيما المستقلين – كان له نوع من المشـــاركة في الحراك السلمي في بدايات الثورة عبر إلقاء الكلمات في مناســـبات العزاء فيمن سقط برصاص النظام، وكان من أشـــهر هؤلاء الشيخ معاذ الخطيب، وميشيل كيلو، وفايز سارة، وعارف دليلة... وغيرهم، وقد دخل هؤلاء في حوارات مع ممثلين عن النظام واعتقل عدد منهم أكثر من مرة ثم خرجوا جميعاً من سورية.

أما معارضة الخارج فقد شـــكل «الإخوان المسلمين» الجزء الأهم فيها؛ نظراً لكونهم الفصيل الوحيد المنظم، وبعد كثير من اللقـــاءات والمؤتمرات بين قوى المعارضة الخارجية المختلفة، تم التوصـــل إلى صيغة المجلس الوطني، لكن مرور الزمن أثبت أنه لم يغيّر كثيراً وفشل في تحقيق المرجو منه.

بنـــاءً على ما ســـبق، فقد كان الائتلاف الجديد برئاســـة الخطيب مرشحاً أكثر من غيره لحمل هذا العبء، ويمكن إرجاع ذلك لأمور:

أولها: أن الائتلاف مثل الجامع الأكبر للقوى السياسية المعارضة، فبالإضافة للمجلس الوطني الســـابق ضـــمّ مجموعةً من التكتلات وعدداً من المستقلين.

ثانيها: أنه لم يلقَ اعتراضاً من المجموعات التي لم تمثل فيه.

ثالثها: أن الداخل الثائر بشـــقه السلمي قد رحب بتشكيله وإن جعله ترحيباً حذراً ومشروطاً.

رابعهـا: أن الكتائب الرئيســـة في الداخل لـــم تعترض عليه أو تطعن فيه رغم ما لديها من مخاوف وشكوك.

خامسها: دخول شخصيات وطنية تحظى بشيء كبير من القبول في الداخل.

سادسـها: اختيار الشيخ معاذ الخطيب رئيساً للائتلاف، والذي كان اختياره للرئاسة مبعث تفاؤل كبير لدى كثيرين.

سـابعها: الاعتراف الدولي الســـريع والواسع بالائتلاف كممثل شرعي للشعب السوري.

التفـــاؤل الذي رافق الإعلان عن الائتـــلاف بدأ يتبدّد في الأســـابيع التالية، حيث بدا وكأنه يســـير على طريق ســـلفه «المجلـــس الوطني»، وبدأت تتســـرب معلومات عن تذمر رئيس الائتلاف مما يجري داخله من قبل بعض الأطراف التي تسعى للمحاصصة ومحاولة تحصيل مكاســـب خاصة تتعلق بمرحلة ما بعد ســـقوط النظام.. وأيضاً، فقد صرح هو شـــخصياً بأن المجتمع الدولي يدعم الشعب السوري بالألفاظ لا غير، وأنه لا يوجد تصوّر لدى هذا المجتمع عن أي حل، ومن ثم دعا الشعب السوري «لقلع شوكه بيده»؛ لأن أحداً لن يساعده، وصاحب ذلك أنباء ترددت عن عزمه تقديم استقالته التي كان قد ألمح إليها.

عند هذه النقطة بالذات كانت الفرصة مواتية جداً للشيخ معاذ الخطيب كي يخطو إلى موقع متقدم في الثورة، وكان يمكن

أن يصبح ضميرها الحي المتكلم باسمها المعبر عن همومها، وكان يمكن أن يسعى - بفضل شخصيته التوافقية والصريحة - ليكون واجهة مقبولة لقوى الثورة الفاعلة على الأرض، عبر التواصل المستمر والمعمق مع الجماعات المقاتلة ومع القوى الثورية المدنية الداعمة للكتائب؛ لكن الخطيب فاجأ الجميع، فبدل إعلان استقالته أعلن مبادرته الفردية للتفاوض مع النظام بشرط الإفراج عن ١٦٠ ألف معتقل وتجديد جوازات سفر السوريين في الخارج، وقد كانت هذه المبادرة سبباً في كثير من الجدل والخلاف داخل وخارج الائتلاف، وعدها البعض نكوصاً عن قواعد عمل الائتلاف المتفق عليها، وتراجعاً عن ثوابت الثورة التي منها عدم التفاوض مع النظام.

فهل ما زال الائتلاف يصلح أن يكون ممثلاً سياسياً لقوى الثورة؟

الجواب عن هذا السؤال يحتاج بداية إلى تحليل مواقف أنصار الثورة من المبادرة ومن صاحبها:

أما الطرف الأول فهم غالبية السوريين في الداخل، سواء في المناطق المحررة أو غيرها، وهؤلاء هم من دفع الجزء الأكبر من تكلفة الثورة، من دمائهم وأرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم وتعطل أعمالهم، إلى غير ذلك من التضحيات، لكنهم لم يشاركوا في العمل الثوري بشقيه السلمي والعسكري؛ فهؤلاء بلا شك يريدون زوال النظام لكنهم معنيون بدرجة كبيرة بمسألة إنهاء معاناتهم، وإلى هؤلاء بالدرجة الأولى كان يتوجه معاذ الخطيب بخطابه للسوريين مُسَوِّقاً مبادرته، فهؤلاء شعروا بالارتياح للمبادرة وطالبوا بإعطائها الفرصة، ولا شك أن معاذ الخطيب ونهجه هذا قريب منهم ويلقى قبولاً عاماً وارتياحاً.

الطرف الثاني: وهم الناشطون وقادة الحراك السلمي الداخلي والناشطون في الخارج، وقد انقسم هذا الفريق كما انقسم المعارضون السياسيون.

الطرف الثالث: ويمثله المجاهدون في مختلف الألوية والكتائب المقاتلة على أرض سورية، وقد رفض هؤلاء جميعاً المبادرة، وإن اختلفت المواقف من معاذ الخطيب ما بين طاعن فيه يعده «كرزاي أو شيخ شريف أحمد» سورية، وما بين متوقف عن هدم الرجل.

ولئن كان الخطيب قد راعى إلى درجة كبيرة الوضع الإنساني الصعب لعامة الشعب السوري ممثلاً في الطرف الأول واعتمد على ما توقّعه من تأييد هذه الكتلة الكبيرة لمبادرته؛ إلا أنه أخطأ خطأ كبيراً بتجاهل القوى المؤثرة حقيقة في المشهد، فلئن كان الشعب قد ثار وبات لا يرضى ببقاء النظام، إلا أن القوى الفاعلة هي بالدرجة الأساس كتائب وألوية المجاهدين، فعدم استشارتها وعدم مراعاة مخاوفها من الائتلاف بسبب الظروف التي أحاطت بتشكيله، وبسبب اختيار الخطيب رئيساً خشية أن يكون جسراً لتمرير مشروع ما اعتماداً على مرجعيته الإسلامية؛ لم يكن تصرفاً صائباً، لا سيما أن الخطيب لم يستشر حتى رفاقه في الائتلاف مما يعزز الشكوك والمخاوف.

لقد أعطت المبادرة مزيداً من الثقل الدولي للخطيب عبر ترحيب مختلف العواصم، لكن أخطاءه كانت تزيد مع كل خطوة يخطوها وتباعد بينه وبين القوى الفاعلة على الأرض، فبعد أن كان يرفض الحوار مع روسيا حتى تتوقف عن المشاركة في سفك الدم السوري وتعتذر عن ذلك، وبعد أن كان يأخذ موقفاً قوياً من إيران؛ إذا به يقابل مسؤولين من البلدين ويسعى بكل قوته لإيجاد حل سياسي بأي شكل كان، الأمر الذي جعله يشترط شروطاً أقل بكثير مما كان مطلوباً من النظام في مبادرة الجامعة العربية ومبادرة كوفي عنان على سبيل المثال.

إننا لا يمكن أن نشكك في نزاهة ووطنية الشيخ معاذ، فمواقفه من النظام قبل الثورة بسنين واضحة معروفة، وقد دفع ثمنها بإيقافه عن الخطابة في المسجد الأموي أولاً، ثم بالمنع من الخطابة مطلقاً، ثم بالاعتقال أكثر من مرة، فضلاً عن استدعائه للتحقيق من قبل الأجهزة الأمنية مرات عديدة، وقد تابع نهجه هذا بعد الثورة، وقد كان الرجل في كل ذلك يتحرك في حدود الممكن والمتاح.

لكننا في الوقت نفسه لا نملك إلا أن ندعو الشيخ الخطيب لمراجعة خطواته، فالانفصال عن المجاهدين والعمل بمعزل عنهم وعدم مراعاة مخاوفهم؛ لا يمكن أن يأتي بخير أو بحل قابل للتطبيق، فالمجاهدون قد عقدوا العزم على المضي في طريقهم لا يمنعهم من ذلك كيد الكائدين ولا تآمر المتآمرين، وأي حل يتم إقراره أو محاولة فرضه عليهم دون موافقتهم لن يكون له نصيب من النجاح.

الوقت لم يفت بعد، وأمام الشيخ معاذ فرصة تاريخية لم تتح لأحد غيره طوال عامين، ليكون واجهة الثورة السياسية، والمنافح عن مطالبها المشروعة في المحافل الدولية، لكن الأمر يتطلب منه أن يغير اتجاه بوصلته، وأن يجعل سنده بعد الله سبحانه وتعالى هو المجاهدون على أرض الشام المباركة، ولا بد للشيخ الخطيب أن يعلم أنه لا يمكن أن يحصل المرء في السياسة على أبعد مما تصل إليه مدافعه.

فهل يفعلها الشيخ معاذ؟!

الأبعاد الإقليمية لأزمة مالي

محمد سليمان الزواوي(*)
zawawy@yahoo.com

بعد أن تمكّنت القوات الفرنسية من محاصرة مقاتلي الشمال المالي وانحيازهم إلى الجبال، تدخل الحرب في البلاد مرحلة جديدة بسيطرة فرنسية وبمعاونة قوات الاتحاد الإفريقي من الدول المجاورة لإعادة تشكيل البيئة السياسية والاجتماعية في البلاد، بقيام فرنسا بإعادة مركز الثقل إلى الأفارقة على حساب الطوارق العرب الشماليين، الذين لديهم قضاياهم العادلة بتطبيق الشريعة الإسلامية والحكم الذاتي لمناطقهم التي تتميز بطبيعة ديموجرافية وثقافية مغايرة لجنوب البلاد ذي الغالبية السمراء.

فالخطوة التالية لفرنسا هي إعادة تشكيل البيئة السياسية الداخلية بما يسمح بإجراء انتخابات ثم إعادة تحديث وتقوية الجيش المالي ليتمكّن من بسط سيطرته على البلاد، التي ترى فرنسا أن من مصالحها العليا أن تظل موحدة من أجل أن يستمر احتكارها للسيطرة على منطقة غرب إفريقيا وتشكيل نظامها الإقليمي طبقاً لمصالحها القومية. فبعد أن شنت فرنسا عمليات عسكرية ضد معاقل الإسلاميين شمال البلاد، استطاعت السيطرة على مدن ديابلي وونا ودوينتزا، واستطاعت السيطرة على المطارات الحيوية في جاو وتمبكتو وكيدال؛ لاستمرار قدرتها على شحن المعدات العسكرية واللوجستية لعملياتها في مالي، واستطاعت صدّ هجمات الإسلاميين القادمين من الشمال، كما سمحت الهجمات الفرنسية بتقدم القوات الإفريقية من الدول المجاورة وانتشارها في شمال البلاد، والتي سيصل قوامها إلى سبعة آلاف جندي من قوات الاتحاد الإفريقي المخطط لها أن تسيطر على الشمال بعد انسحاب القوات الفرنسية وحصولها على الدعم اللوجستي من فرنسا، ويصل قوام تلك القوات الإفريقية حتى الآن إلى ٣٨٠٠ جندي.

(*) مدير وحدة العلاقات الدولية، المركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة.

فقد تدخلت قوات من بوركينافاسو من العاصمة باماكو وتقدمت نحو سيجاو، في حين تم إنزال قوات من النيجر وتشاد المجاورتين من نيامي في مطار جاو وسيطرت عليه ثم تقدمت القوات التشادية باتجاه كيدال وسيطرت على مطارها أيضاً، في حين سيطرت قوات النيجر على أنسونجو؛ لينحاز الإسلاميون إلى جبال كيدال التي تعد معاقلهم الرئيسية ويعتقد أنهم يحتجزون فيها سبعة رهائن فرنسيين. وتخطط فرنسا الآن لأن تتحول العملية العسكرية من حرب شاملة على معاقل الإسلاميين إلى عملية إحلال استقرار لتتمكن من سحب قواتها وتمكين القوات الإفريقية من بسط سيطرتها على الأرض للبدء بعملية سياسية تحت إشراف فرنسي.

وقد دخلت الحرب في مالي مرحلة حرب العصابات بعد أن أثبت المسلحون أنهم قادرون على تنفيذ عمليات ضد القوات الفرنسية والإفريقية، ما ينبئ بدخول البلاد مرحلة حرب استنزاف طويلة الأمد، وهو ما لم تخطط له باريس منذ البداية، كما أن هناك مخاوف إقليمية من تسلل المسلحين إلى المناطق التي تسيطر عليها جماعة بوكوحرام النيجيرية، لشن مزيد من الهجمات في شمال نيجيريا، حتى إن المتحدث باسم الجيش النيجيري حدد الخطوط العامة لسياسة بلاده بأن مسلحي بوكوحرام يجب أن يتعظوا مما يحدث في مالي، في إشارة إلى إمكانية توسيع أمد نطاق الحرب جنوباً، وقال إنهم يجب أن «يستمعوا إلى صوت العقل القادم من رئيس أركان الجيش النيجيري الذي يطالبهم بوقف هجماتهم لمدة شهر إذا كانوا مخلصين في دعواهم لهدنة، وأن ذلك هو «الخيار الأفضل المتبقى أمامهم».

فنيجيريا لديها ١٢٠٠ جندي منتشرين في شمال مالي حالياً وتلقوا أوامر برصد تواجد جماعة بوكوحرام العاملين في تلك المنطقة، كما قامت حرس الحدود النيجيرية برفع درجة التأهب بنشر فرق مدرعة على حدودها الشمالية لمنع اختراق المقاتلين الهاربين من مالي. وصرّح رئيس أركان الجيش النيجيري بأن كثيراً من مقاتلي بوكوحرام المنتشرين في نيجيريا تلقوا تدريبات من إسلاميي مالي، وأنه تم العثور على أسلحة في أيدي بوكوحرام جاءت عن طريق مالي تم نهبها من مخازن السلاح الليبية بعد سقوط نظام القذافي، وأن بعض تلك الأسلحة «متقدمة»، بالرغم من أن المقاتلين يفتقدون التدريب على استخدامها.

كما تقول مصادر إن هناك تقارباً بين تنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي وبين جماعة أنصار الدين وكذلك جماعة بوكوحرام مع الطوارق في المنطقة، ليشكلون معاً حزاماً يدور حول مالي يهدد سيطرة الدول الغربية على المنطقة ونهب ثرواتها ودعمها الميليشيات المسيحية هناك، ويهدد كذلك بانتشار رقعة المطالبين بتطبيق الشريعة الإسلامية لتصل إلى قطاع يمتد بعرض منطقة الساحل الإفريقي وصولاً إلى غرب إفريقيا.

كما تخشى سلطات النيجر ـ التي لديها خمسمائة جندي في شـــمال مالي ـ انتقال الصراع إليها أيضاً بعد اشـــتراكها مع الجيش الفرنســـي في حرب مسلحي مالي، فالنيجر فيها سكان من الطوارق يمثلون ٩ ٪ من السكان البالغ عددهم ١٥ مليون نســـمة وشـــنوا عدة انتفاضات في البلاد، بالرغم من عقد اتفاقات سلام معهم من حكومتي النيجر ومالي، وتخشى النيجر قيام ثورة داخلية في أعقاب عمليات الذبح التي شنتها العناصر الإفريقية ضد الطوارق فور دخول الجيش الفرنسي معاقلهم في مالي، لذا قامت بتشديد الحراسة على المنشآت الحيوية والســـفارات الأجنبية وكذلك على حدودها مع مالي البالغ طولها ٨٠٠ كيلومتر، وقد شـــهدت العاصمة نيامي هي الأخرى حالات اختطاف لفرنســـيين، سواء من السياح أو من العاملين في منجم اليورانيوم الـــذي تديره المجموعة النووية الفرنســـية «أريفا» في مدينة أرليت بشمال البلاد، وهو منجم معزول داخل الصحراء ويمثل الدخل الأساســـي للنيجر، فيما لا تـــزال القاعدة في المغرب الإســـلامي تحتجـــز أربعة من الفرنسيين المختطفين حتى الآن.

لذا تخشـــى الدول المجاورة ـ بما فيها الجزائر وموريتانيا ـ شـــن عمليات اختطاف واســـعة وعمليـــات احتجاز رهائن في المنشـــآت الحيوية في المنطقة، على غـــرار ما حدث في الأزمة الجزائرية في موقع عين أميناس الذي شـــهد مذبحة راح ضحيتهـــا ٣٧ أجنبياً و٢٩ خاطفاً، وأثبتت العملية فشـــل تكتيـــكات الـــدول المجاورة لمالي فـــي التعامل مـــع عمليات الاختطاف المسلحة، ووصفت الصحافة الغربية العملية بأنها كارثة، ومن المتوقع أن تحدث عمليات مشـــابهة في كل الدول المجاورة لمالي، ما ينذر بتحول المنطقة برمتها إلى فوهة بركان وحرب عصابات طويلة الأمد كانت تخشـــى فرنسا منذ فترة مواجهتها، لكنها اضطـــرت لخوض تلك الحرب بعد أن تقدم مسلحو شـــمال مالي باتجاه العاصمة باماكو وسيطروا على أهم المطارات الاستراتيجية في البلاد.

كمـــا تدخلت الولايات المتحدة على الخط لنصرة حليفتها فرنسا، والتي تتقاطع مصالحها معها في المنطقة رغم الهيمنة الفرنســـية في المجمل على الغرب الإفريقي، إلا أن للولايات المتحدة مصالح نفطية أيضاً في غرب إفريقيا في الكاميرون ونيجيريا، وأرسلت واشنطن طائرات مسيّرة دون طيار لمراقبة المنطقة، خاصة فوق ســـماء النيجر؛ لمراقبة تحركات القاعدة في منطقة الساحل الممتدة، كما أن الطوارق يلعبون دوراً مهماً في سياســـات المنطقة والحركة القوميـــة لتحرير أزواد التي تمكن مقاتلوها من الســـيطرة على شمال مالي قبل أن تتدخل القاعدة والمقاتلون الموالون لها وتهميش دورهم.

لذلك؛ فإن الصراع في منطقة الســـاحل مرشح للتصعيد فـــي الفترة القادمة مـــع دخول القوات الفرنســـية حرباً مع المســـلحين وتحول الصراع إلى حرب عصابات ربما تغرق فيه فرنسا لفترة ليست بالقصيرة كما كانت تتمنى في السابق، لا ســـيما مع الظروف الاقتصادية الصعبة التي تعيشها باريس، وتمثل لها منطقة غرب إفريقيا كنزاً اســـتراتيجياً لا يمكن لها التخلي عنه، حيث كان من أهم أسباب قيادة فرنسا للإطاحة بالقذافي هو تدخله في شـــؤونها وتهديده سيطرتها ونفوذها في منطقة الساحل وفي غرب إفريقيا، إلا أنها الآن تدفع ثمن تداعيات ذلك بتهديد شـــامل لمصالحها الاقتصادية في حرب من غير المتوقع أن ينقشع غبارها قريباً.

صدر حديثاً

مجلة البيان

موسوعة أحاديث الشمائل النبوية الشريفة

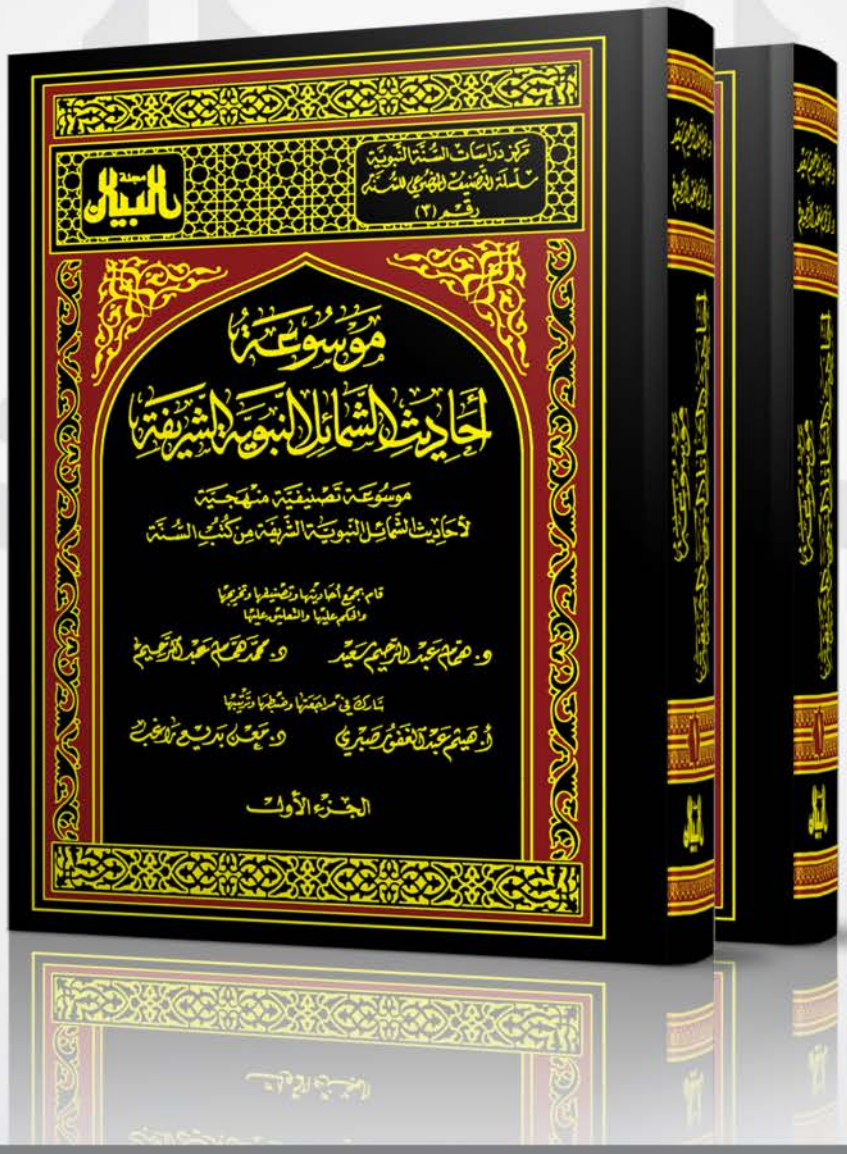

الرياض: ـ هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس: ٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات: ٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ ٠٥٠٢٢١٠٩٢٠ ـ ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ ـ ٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ ـ ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
مكة والمدينة: ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠ المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

أطفال فلسطين..
هدف للاعتقال والتعذيب

منجي بـن مصباح تونس

اعتقلـت قـوات الاحتلال الإسـرائيلي منذ بدايـة انتفاضة الأقصى لغاية شـهر آب ٢٠١٢، أكثر من ٩٠٠٠ طفل، وبحسـب موقع «فلسـطين خلف القضبان» فإنه ما زال يقبع إلى اليوم في سـجون الاحتلال ٢٢٠ طفلاً، وفي الحقيقة فإن الاسـتهداف المسـتمر لاعتقال الأطفال الفلسطينيين إنما هو هدف أساسـي من سياسـة الاستهداف للطفل الفلسـطيني باعتباره عنوانَ التحدي والصمود، وهـذه السياسـة تهدف إلـى تحطيم معنويات الأطفـال وحرمانهم من طفولتهـم؛ لأنهم هم عماد المستقبل للدفاع عن أرض فلسطين.

إن المئات من الأطفال الفلسطينيين انقطعوا عن دراستهم بسبب حجزهم لسنوات في غياهب السجون، وغالبيتهم تم حجزهم بجانب سجناء جنائيين، وهذا مخالف للأعراف الإنسانية، الأمر الذي يجعل الأطفال في خوف دائم من مكوثهم لفترات طويلة في السجن بجانب المجرمين.

وبحسب تقارير دائرة إعلام الطفل في فلسطين، فإن ٩٣٪ من الأطفال تعرضوا لأساليب مختلفة من أشكال التعذيب الجسدي والنفسي، وغالباً ما تنتزع منهم الاعترافات بالقوة. ويعتقل الأطفال عادة من بيوتهم في منتصف الليل، ويتم عصب أعينهم وتقييد أيديهم ونقلهم إلى أماكن الاستجواب والتحقيق دون إعطائهم فرصة للنوم.

وفي كثير من الحالات يعمل الاحتلال الصهيوني على الإيقاع بالأطفال في شرك العمالة من خلال ابتزازهم للعمل لصالح أجندته، والتي تهدف إلى إركاع الشعب الفلسطيني، وكثير من الأطفال تعرضوا وما زالوا لتحرشات جنسية من قبل السجانين، وأحياناً يقومون بتصويرهم وهم عراة لانتزاع اعترافات منهم.

ويرى الفرع الفلسطيني للمنظمة الدولية للدفاع عن الطفل، أنه يتم اعتقال أطفال وشباب في معظم الحالات في تلك الأماكن التي تحصل فيها نزاعات مع إسرائيليين من المستوطنين وجنود الجيش وموظفي السلطات، أي أن اعتقالهم يتم بالقرب من المستوطنات والجدار الفاصل بين إسرائيل والضفة الغربية، ويهدف ذلك إلى تخويف الفلسطينيين ومنعهم من المشاركة في مظاهرات ضد قوات الاحتلال.

ومنذ سنة ٢٠٠٠ تم اعتقال أكثر من ٧٥٠٠ طفل وشاب فلسطيني، أي أن عدد المعتقلين منهم يبلغ سنوياً ٧٠٠ طفل وشاب تقريباً. ويقول معظم المعتقلين إنهم عانوا أثناء القبض عليهم واعتقالهم في السجن من سوء المعاملة. وتوضح دراسة حول وضع السجناء من الأطفال في النظام القانوني العسكري، قامت بها المنظمة الدولية للدفاع عن الطفل في السنة الماضية؛ أن ٧٥ في المائة من الشباب المعنيين يتعرّضون لاستخدام العنف البدني. ويتحدث أكثر من نصفهم عن تعرضهم لتهديدات مختلفة، وهذا يعد انتهاكاً لميثاق جنيف الرابع، وهذا يؤكد أن هناك نظاماً داخل مؤسسات الكيان الصهيوني لسوء معاملة الفلسطينيين دون السن القانونية أثناء اعتقالهم ونقلهم واستجوابهم.

لا بد من العمل على منع كل تلك الانتهاكات بحق أطفال فلسطين وإلزام دولة الاحتلال بمعاملة الفلسطينيين دون السن القانونية مثل نظرائهم الإسرائيليين. وتؤكد منظمة «بتسيلم» الإسرائيلية المدافعة عن حقوق الإنسان، أن قانون الشباب الإسرائيلي الذي صدر عام ٢٠٠٨ والذي أصبح بعد سنة من ذلك ساري المفعول؛ يعد قانوناً تقدمياً جداً ينسجم مع جميع المبادئ الدولية، إلا أن المشكلة أنه لا يطبق إلا على الشبان اليهود.

وتشير المنظمة أيضاً إلى أنه على إسرائيل كسلطة احتلال أن تحترم حقوق الطفل الفلسطيني. وتؤكد أن هناك قصوراً ملحوظاً في هذا المجال؛ فاعتقال الشباب يتم في معظم الحالات في الليل، ورغم أن هذا أسهل بالنسبة للجيش لأنه ليس من المحتمل أن يتلقى أي مقاومة في هذه الحالة؛ إلا أن هذا ليس سبباً يبرر إيقاظ شباب في الليل من النوم لنقلهم إلى السجن، كما يتعين على جيش يسيطر كسلطة احتلال على الضفة الغربية منذ سنة ١٩٤٥، أن يكون قادراً على البحث عن إمكانات أخرى للحفاظ على النظام بدلاً من العمليات الليلية لاعتقال الأطفال.

إن أطفال فلسطين كانوا وما زالوا هدفاً لقوات الاحتلال التي تتذرع دائماً بأنهم يشكلون خطراً على أمن دولة إسرائيل، ولهذا يتم تجهيز التهم لهم مسبقاً، ومعظم التهم الموجهة للأطفال تكون إلقاء الحجارة على قوات الاحتلال والمستوطنين، ويتم اعتقال شباب في حالات كثيرة، خاصة أثناء المظاهرات.

إن الممارسة اللاإنسانية من قبل قوات الاحتلال الصهيونية المستمرة بحق الأطفال الفلسطينيين، تخلق أجيالاً أكثر ميلاً للعنف والانتقام من قوات الاحتلال، والتي تفقدهم الأمل في المستقبل، خاصة بعد أن تمنعهم من مواصلة دراستهم وتحصيلهم العلمي وتعمل على تعذيبهم وقهرهم داخل السجون.

مرصد الأخبار

عمرو عبد البديع(*)
amro@albayan.co.uk

ارتفاع نسبة المعاداة لليهود في بلجيكا

ذكرت الوكالة اليهودية في بلجيكا أن معدل الشكاوى التي يتقدم بها أبناء الجالية اليهودية في بلجيكا من سوء المعاملة وأحداث عنف بحقهم؛ قد ارتفعت خلال العام الماضي بنسبة ٣٠٪.

وذكر التقرير الصادر عن الوكالة أنه خلال عام ٢٠١٢م قُدمت ٨٨ شكوى للسلطات البلجيكية، مقارنة بـ ٦٢ في عام ٢٠١١م، وشملت الشكاوى ١١ حالة تخريب، ١٥ اعتداء لفظياً، ١٣ حالة إنكار «للهولكوست»، و٢٨ هجوماً عبر الإنترنت.

وكانت صحيفة «معاريف» قد ذكرت في تقرير لها أن العام الماضي يعتبر من أكثر الأعوام التي شهدت حالات قتل واعتداءات ضد أبناء الجالية اليهودية في مختلف أنحاء العام، حيث قتل خلال العام الماضي وحده نحو ٦ يهود في أحداث متفرقة.

وأوضحت الصحيفة أنه في مدينة فرنسا لوحدها تم رصد ٣٨٦ حادث اعتداء ضد اليهود خلال العام الماضي، ونقلت الصحيفة عن «يعقوب حغوئيل»، رئيس قسم مناهضة «المعاداة للسامية» – وهو مصطلح يعطى للإشارة إلى أي عملية اعتداء أو إساءة لليهود حول العالم –، قوله إن «فرنسا باتت من أخطر الأماكن في العالم بالنسبة لليهود».

وأوضح «حغوئيل» أنه في أعقاب الهجوم على مدرسة «تسور هتوراة» اليهودية في مدينة تولوز جنوب غرب فرنسا في شهر مارس من العام الماضي، والتي قتل فيها أربعة إسرائيليين وجرح أربعة آخرون؛ تزايدت أعمال العنف ضد اليهود في فرنسا.

وبيَّن «حغوئيل» أن الجالية اليهودية في فرنسا تتعرض لاعتداءات مختلفة، أهمها: «التحريض ضد اليهود، وكتابة شعارات على الجدران أو على قبور اليهود، إضافة إلى الاعتداء عليهم لفظياً أو جسدياً». (مركز عكا: ٢٠١٣/٢/٢٤)

تدنيس مقبرة مأمن اللّه بشعارات ضد الرسول والعرب

قالت مؤسسة الأقصى للوقف والتراث إن متطرفين يهوداً قاموا بانتهاك حرمة مقبرة مأمن الله الإسلامية في القدس وقاموا بكتابة شعارات عنصرية بحق العرب والنبي الأكرم محمد ﷺ، وذلك على نحو ٣٠ قبراً من القبور، ووجد في الموقع عدد من زجاجات الخمر، بعد ذلك قدم وفد من بلدية الاحتلال في القدس وقام بإزالة الشعارات العنصرية.

ونددّت «مؤسسة الأقصى» بهذه الجرائم النكراء، ودعت الأمة الإسلامية للتحرك العاجل للدفاع عن مقبرة مأمن الله وجميع المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس والداخل.

(موقع «فلسطينيو ٤٨»: ٢٠١٣/٢/١٤)

٨٥ ألف دولار تعويضات لإجبار مسلمة على خلع الحجاب

قضت محكمة «أورانج كوينتي» بإلزام مقاطعة «أورانج» في جنوب ولاية «كاليفورنيا» الأمريكية، بدفع ٨٥ ألف دولار تعويضات ومصروفات القضاء وأتعاب المحاماة، ومنع قوات تنفيذ الأحكام من إجبار المسلمات على خلع حجابهن داخل قاعات المحكمة، وذلك بعد استمرار النزاع القضائي حول إجبار مسلمة على خلع حجابها بالقوة داخل المحكمة منذ ٦ سنوات.

(الألوكة: ٢/١٧)

(*) نرحب بمقترحاتكم البنَّاءة في باب مرصد الأحداث على بريد الكاتب.

مرصد الأخبار

انتخاب مفتي مصر .. للمرة الأولى في تاريخ مصر الحديث

انتخبت هيئة كبار العلماء التابعة الدكتور شوقي عبد الكريم علام، رئيس قسم الفقه في كلية الشريعة في جامعة الأزهر – فرع طنطا، وهو وسطي بلا انتماءات سياسية؛ لشغل منصب المفتي، خلفاً للشيخ علي جمعة، وتم رفع اسم المفتي المنتخب إلى الرئيس محمد مرسي للتصديق على انتخابه.

وقبل ثورة ٢٥ يناير/كانون الثاني ٢٠١١ كان يتم تعيين كل من شيخ الأزهر والمفتي بقرار مباشر من رئيس الجمهورية، فيما ينص الدستور الجديد على اختيار هيئة كبار العلماء مرشحاً يصدق الرئيس على تعيينه. (وكالة الأناضول: ٢٠١٣/٢/١٢)

علامة تعجب

رجل دين إيراني يصف سورية بالمحافظة الإيرانية الـ ٣٥!

وصف رجل الدين الإيراني مهدي طائب سورية بالمحافظة الإيرانية رقم ٣٥، ومَنَحَها أهمية استراتيجية قصوى بين المحافظات الإيرانية، قائلاً «لو خسرنا سورية لا يمكن أن نحتفظ بطهران، لكن لو خسرنا إقليم خوزستان «الأهواز» سنستعيده ما دمنا نحتفظ بسورية»، كما شدد على ضرورة دعم النظام السوري في إدارة حرب المدن، مشيراً إلى أن الحكومة الإيرانية اقترحت تكوين قوات تعبئة قوامها ٦٠ ألف عنصر من القوات المقاتلة لمساعدة قوات النظام في سورية.

(العربية: ٢٠١٣/٢/١٥)

فرنسا تستخدم طائرات إسرائيلية في مالي!

كشفت صحيفة «وورلد تريبيون» الأمريكية عن أنَّ فرنسا تستخدم طائرات إسرائيلية دون طيار «هارفانج» لشن غارات جوية على مسلحين في مالي. وذكرت الصحيفة أنَّ وزارة الدفاع الفرنسية نشرت الطائرات في عدة مدن مالية يسيطر عليها المسلحون الإسلاميون.

ونقلت الصحيفة عن البيان الذي أصدرته وزارة الدفاع الفرنسية «أن طائرات «هارفانج» قامت بأول طلعة لها في مالي يوم ١٨ يناير الماضي بهدف توفير الدعم اللازم للعملية العسكرية التي تشارك فيها القوات الفرنسية في مالي».

(الإسلام اليوم: ٢٠١٣/٢/١٧)

«الحزب الجمهوري التركي»: أردوغان «ديكتاتور يقود البلاد إلى كارثة دستورية»!

وصف رئيس حزب الشعب الجمهوري التركي المعارض كمال كليتشدار، رئيسَ وزراء بلاده رجب طيب أردوغان بالديكتاتور، محذراً من قيادة البلاد إلى كارثة دستورية. وأشار كليتشدار إلى أن رئيس الوزراء التركي «أصبح سلطوياً على نحو متزايد وسيادة الخوف تنتشر في كل مكان ولا أحد يستطيع التحدث بسهولة عبر الهاتف».

(الحياة: ٢٠١٣/٢/١٥)

دراسة إسرائيلية: التدخُّل الفرنسي في مالي يفتح الباب على مصراعيه أمام الدولة العبرية لإعادة علاقاتها مع الدول الإفريقية وصد التغلغل الإيراني في القارة السوداء

دراسة صادرة عن (معهد بيغن السادات) في تل أبيب أشارت إلى أن التدخل الفرنسي العسكري في مالي ضد القوى الإسلامية المتطرفة في هذه الدولة الإفريقية، يفتح الباب على مصراعيه أمام الدولة العبرية لتحسين علاقاتها مع باريس من ناحية، ومع الدول المسلمة وغير العربية واستعادة نفوذها في القارة السمراء، كما كان في الماضي، من الناحية الأخرى، لافتةً إلى أن هذا الهدف يجب أنْ يكون على رأس سلم أولويات وزير الخارجية الإسرائيلية في الحكومة الجديدة.

وتابعت: تدخلت فرنسا في مالي لحماية مصالحها الحيوية، خصوصاً أن تنظيم القاعدة وضع هذه الدولة كهدف رئيسي للسيطرة عليها، تليها نيجيريا، التي تعتمد فرنسا عليها اعتماداً كبيراً لاستيراد اليورانيوم حتى الآن، ومع أن الهدف هو المحافظة على المصالح الفرنسية، إلا أن الدراسة رأت أن التدخل الفرنسي أوجد فرصة دبلوماسية لإسرائيل.

ولفتت الدراسة إلى التصريحات التي أدلى بها الرئيس المؤقت لمالي والتي وجهها للأعضاء العرب في الاتحاد الإفريقي في اليوم الختامي للقمة المنظمة في أديس أبابا في ٢٧ كانون الثاني (يناير) ٢٠١٣، وبشكل خاص للدول العربية التي أدانت الهجمات الجوية الفرنسية ضد الإسلاميين، مثل مصر وتونس، معبّراً عن غضبه من عدم إدانة الدول العربية للإجراءات المروعة التي تسبّب بها الإسلاميون للشعب المالي، مشدداً على أن ما يهم الدول العربية هو إدانة التدخل الفرنسي، كما أشارت الدراسة إلى أن العديد من صناع القرار في هذه الدولة الإفريقية تحدثوا علناً عما أسموه خيانة الدول العربية لبلادهم، وتحديداً الدول العربية التي تحكمها أنظمة إسلامية، لافتين إلى أن بلادهم قطعت العلاقات مع الدولة العبرية بسبب طلباتهم المتكررة منها وضغوطهم الجمة، وبالتالي توقع صناع القرار أنْ تقوم الدول العربية بمساعدتهم في محنتهم، وليس الوقوف على الحياد وإدانة التدخل الفرنسي فقط.

وأشارت الدراسة إلى أن غضب صناع القرار في مالي كان بالتحديد ضد السفير الفلسطيني المعتمد هناك، مشيرين إلى أنه بحسب طلبه فقد تم رفع القضية الفلسطينية على رأس الأجندة في مالي، وبات المواطنون يعرفون عن ظهر قلب أن الشعب الفلسطيني مظلوم، كما أن الحكومة قررت إطلاق اسم ساحة عامة في باماكو العاصمة على اسم الشهيد الفلسطيني محمد الدرة، لكن بالمقابل لم يُسمِع السفير الفلسطيني ولو مرة واحدة إدانة ضد الأعمال التي يقوم بها الإسلاميون المتطرفون هناك، وبالتالي يرى القادة في هذه الدولة الإفريقية أنه يتحتم على هذه الدولة تغيير سياستها الخارجية.

وتطرقت الدراسة إلى تأثير إيران في إفريقيا، وقالت إنه في عام ٢٠٠٨ أعلن الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد أن بلاده تهدف إلى تطوير العلاقات مع إفريقيا، وبعد عام واحد زار العديد من البلدان الإفريقية برفقة دبلوماسيين وجنرالات إيرانيين، وتم التوقيع على صفقات تجارية واتفاقيات دبلوماسية وفي مجال الدفاع، في حين فقدت إسرائيل مشروع الصرف الصحي في السنغال بعد وعد إيران بتنفيذ نفس العمل بتكلفة أقل، لكن على الرغم من التغلغل الإيراني قالت الدراسة إنه مع فوز الإسلاميين في مصر وتونس وتقريباً استيلاء تنظيم القاعدة على مالي، باتت المزيد والمزيد من البلدان الإفريقية تخشى من إيران وحلفائها الإسلاميين، وأكبر مثال على ذلك أن الصومال أصبحت واحداً من أقرب حلفاء إسرائيل في إفريقيا، وكذلك مشترياً رئيسياً للأسلحة الإسرائيلية، كما أن كينيا، التي تواجه أيضاً الإرهاب الإسلامي من الصومال المجاورة، مهتمة بتعزيز علاقاتها العسكرية مع إسرائيل، ونيجيريا أنفقت نحو ٥٠٠ مليون دولار على شراء معدات عسكرية من الدولة العبرية في السنوات القليلة الماضية.

وتابعت أن الغضب في مالي من الدول العربية، خصوصاً مصر، هو جزء من الخوف على نطاق أوسع من النفوذ الإسلامي الإفريقي والتدخل الإيراني في القارة، وعلى الرغم من أن التدخل العسكري الفرنسي في هذه الدولة هو للمحافظة على المصالح الفرنسية، إلا أنه يفتح نافذة الفرص التي ينبغي على إسرائيل اغتنامها لتحسين علاقاتها مع إفريقيا ومع فرنسا على حد سواء.

مرصد الأرقام

عدد السوريين الذين لجأوا إلى الأردن حتى الآن بلغ ٣٧٩ ألفاً و٧٨٥ شخصاً، نحو ٨٣ ألف لاجئ سوري منهم يقطنون في مخيم الزعتري.

(الحياة: ٢٠١٣/٢/١٧)

أعلنت مجموعة «البنك الدولي» تمويل ثلاثة مشاريع في اليمن كلفتها ٢٠٦ ملايين دولار.

(الحياة: ٢٠١٣/٢/١٧)

انخفض معدل البطالة في تونس إلى مستوى ١٦,٧٪ نهاية العام الماضي مقارنة بمستوى ١٨,٩٪ الذي كان مسجلاً في نهاية عام ٢٠١١.

(الجزيرة: ٢٠١٣/٢/١٥)

كشف وزير الزراعة واستصلاح الأراضي المصري صلاح عبد المؤمن، عن أن بلاده تستورد ٧٠٪ من احتياجاتها الغذائية، وطالب بالعمل على تضييق الفجوة بين الإنتاج والاستهلاك.

(الجزيرة: ٢٠١٣/٢/٧)

أشار تقرير لمنظمة التعاون الإسلامي إلى أن خسائر الفلسطينيين الناجمة عن الاحتلال الإسرائيلي لأراضيهم تبلغ نحو ٧ مليارات دولار سنوياً، وذلك للسيطرة الإسرائيلية على الموارد الطبيعية الفلسطينية، حيث تسيطر إسرائيل على معظم المياه الجوفية في غزة والضفة الغربية البالغ حجمها ٧٣٤ مليون متر مكعب، بينما يحصل الفلسطينيون على ٣٢٪ فقط من هذه المياه.

(الشعب: ٢٠١٣/٢/١٢)

تغريدات

د. طه حامد الدليمي

@tahadulaimi

لا تعاني ثقافتنا قلة الأفكار الجيدة، وإنما شح الأفكار التجديدية الرائدة، فعندما يكثر الجيد من الأفكار يكون سبباً في نكران أو إهمال البديع منها.

عزام التميمي

@AzzamTamimi

قادة إيران وحزب الله أشبه بمن كدح دهراً يجمع ثروة ثم بدّدها في ليلة واحدة على طاولة القمار.

ياسر الزعاترة

@YZaatreh

إيران مع استمرار التدمير؛ أولاً لأن الدويلة العلوية لم تغادر عقلها، وثانياً لاعتقادها أن سورية مدمرة لن تؤثر على مكتسباتها في لبنان والعراق.

عصام مدير

@emudeer

أيها الإخوة والأخوات: الإسلام اقتحم قلب الفاتيكان وأطاح برأسه وسرّب بعضُ المسلمين الجدد من قساوسته وثائق مع غيرهم ممن يريد تغيير الكاثوليكية.

أحمد الصويان

@Asowayan

من اللطائف أن الجماعة الإسلامية في مصر كانت تتهم في عهد مبارك بالإرهاب، وها هي الآن تبادر بدعوة الشعب إلى جمعة لا للعنف، فمن الأحق بوصف الإرهاب؟

أ. د. حاكم المطيري

@DrHAKEM

الشعب السوري لا يواجه نظام بشار الذي سقط منذ بداية الثورة، وإنما يواجه النظام الدولي ومشاريعه التي تتنازع العالم العربي وستسقط كلها في سورية.

الصهاينة يشجِّعون الوطن البديل

د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com
@adnanabuamer1

في ذروة انسداد أفق التسوية بين الفلسطينيين والإسرائيليين في ظل الحكومة الحالية، والتقدير السائد بألا يحدث اختراق جدي مع الحكومة القادمة؛ يتداول الجانبان أفكاراً «من خارج الصندوق» لإيجاد حلول مؤقتة للوضع القائم في الضفة الغربية وقطاع غزة.

ولئن كانت بعض هذه الأفكار تعتبر بنظر كثير من صناع القرار في المنطقة من أرشيف الماضي، لكن الوقائع المستجدة يومياً تجعلهم يلجأون لمحاولة استعادتها من كتب التاريخ، ومحاولة تهيئتها لتكون سياسة واقعة، في ظل تهاوي السلطة الفلسطينية، وفقدانها لمزيد من الأدوار والمهام.

الحديث يدور بصورة واضحة عن فرضية العودة بالأراضي الفلسطينية لما قبل حرب عام ١٩٦٧، حيث كانت مصر تدير قطاع غزة، فيما الأردن يشرف على شؤون الضفة الغربية، ورغم أن نتائج الحرب «أزاحت» البلدين إلى حدودهما، وجاء الاحتلال الإسرائيلي للقيام بهذا الدور، لكن مياهاً كثيرة جرت تحت الجسور خلال السنين الـ ٤٠ الماضية، وبات الجميع أمام مفترق طرق قد يؤدي إلى مسارين جديدين، أولهما إعادة تشكيل خريطة فلسطين، وثانيهما فرض إسرائيل لحدودها الأمنية مع دول الجوار.

الفكرة ليست وليدة اللحظة، فقد دعا إليها «أريئيل شارون» من حزب الليكود و«يغآل ألون» من حزب العمل في سبعينيات القرن الماضي، ولئن كانت جميع الأطراف تبدي رفضها «العلني» لها، لكنها في لقاءات مغلقة بعيدة عن وسائل الإعلام تطرحها للنقاش، وتجري مفاضلة بين سلبياتها وإيجابياتها، مكاسبها وخسائرها، وقد اتضح ذلك عبر جملة من التصريحات الضمنية لمسؤولي الأطراف ذات العلاقة.

ففي حين طالب رئيس السلطة محمود عباس في لقاء خاص جمعه مؤخرا بمستشاريه وقادة حركة فتح، بالاستعداد لسيناريو الكونفدرالية مع الأردن، في ظل عدم وجود طرف إسرائيلي شريك في عملية السلام؛ التقى الأمير حسن ولي العهد الأردني السابق وفداً فلسطينياً رفيع المستوى من الضفة الغربية، وأوحى لهم أن الأردن أخرج منها تحت ضغط حرب ٦٧، ما فهم على أنه رغبة منه في العودة إليها مجدداً.

لكن التسريبات الإسرائيلية كانت أكبر من أن يتم إخفاؤها حين كشف النقاب عن زيارة سرية قام بها رئيس الحكومة

(*) كاتب فلسطيني.

«بنيامين نتنياهو» في الأيام الأخيرة إلى عمان، ولقائه الملك عبد الله الثاني، وطرح معه مسألة الكونفدرالية مع الفلسطينيين، ورغم عدم تلقيه موافقة أو رفضاً على الفور، لكن ذلك اعتبر في تل أبيب موقفاً مطمئناً قد يشجعها على اتخاذ مزيد من المواقف ضد السلطة.

وطالما أن الوضع الإداري والسياسي للسلطة الفلسطينية في الضفة الغربية يأخذ منحى تهميشياً بصورة تدريجية، فإن الإسرائيليين يتعاملون مع فرضية إلقاء الضفة في حضن الأردن على أنها باتت قابلة للتحقق أكثر من أي وقت مضى، طارحين في سبيل ذلك مصطلحات جديدة على غرار «الدولة الأردنية الهاشمية الفلسطينية الموحدة»، و«الجمهورية الاتحادية فلسطين – الأردن».

بل إن عضو الكنيست «آرييه إلداد»، أحد أبرز قادة اليمين الإسرائيلي، جمع تواقيع ٦ آلاف يهودي حول العالم يطالبون بإعلان الأردن دولة فلسطينية، وبلغ عدد أعضاء الكنيست الداعمين للفكرة ٤٢ نائباً ووزيراً من أصل ١٢٠، من كافة كتل الائتلاف الحاكم، على اعتبار أن ٧٥ ٪ من مواطني الأردن فلسطينيون، ويشكلون النخبة الأولى في المجالات الثقافية والاقتصادية والسياسية.

في المقابل، هناك جو عام في إسرائيل مؤيد لخطوة مفادها «أعطوا غزة لمصر»، خاصة بعد تَدخلها الأخير في الحرب السابقة، والرغبة في إيصال رسالة لها بتولي مزيد من المسؤوليات عن احتياجات الفلسطينيين من الغاز والماء والكهرباء، لعدد من الأسباب، أهمها: أنه لم يعد هناك شيء في غزة تبحث عنه إسرائيل بعد مرور أكثر من ٧ سنوات على الانسحاب أحادي الجانب، ولا يوجد مستوطنون تدافع عنهم، ولا تحتاج قافلات لحراستهم.

كما أكد تقرير الأمم المتحدة الأخير أن غزة مع حلول عام ٢٠٢٠ لن تكون صالحة للعيش الآدمي، فضلاً عن كون السلطة الحاكمة فيها، وهي حماس، تعتبرها إسرائيل غير قانونية!

كل هذه الأسباب وسواها دفعت بارتفاع مزيد من الأصوات الإسرائيلية المطالبة بتوسيع قطاع غزة جنوباً نحو مناطق سيناء والعريش والشيخ زويد، تطبيقاً للانفصال النهائي عنه، وإقامة حدود ثابتة غير قابلة للاختراق، والتعامل معه كسورية ولبنان، وما يتطلبه ذلك من تفعيل لمعبر رفح قدر الإمكان ليستجيب لاحتياجات الغزيين.

الاعتبار الأمني لدى إسرائيل بدفع غزة نحو مصر هو الأكثر تشجيعاً، وهو ما عبّر عنه الجنرالان «غيورا آيلاند»، رئيس مجلس الأمن القومي السابق والمنظر الاستراتيجي لخطة الانسحاب من غزة، و«يعكوف عميدرور»، مستشار الأمن القومي الإسرائيلي الحالي؛ بالقول إن مصر لا تحب إسرائيل صحيح، لكنها تريد هدوءاً على حدودها، تماماً كما هو الحال مع سورية، حيث يسود الهدوء هضبة الجولان منذ أكثر من ٤٠ عاماً وليس بينهما اتفاق سلام!

كما يعتبر وجود أكثر من ١.٥ مليون فلسطيني في غزة مشكلة ديموغرافية لإسرائيل ما زالت محلقة في سمائها، ما قد يعني أن الوقت المناسب للتخلص منها حالياً؛ إما بقيام دولة منفردة في القطاع تقودها حماس، أو دفعه نحو مصر وتحويله إلى جزء منها، حينها لن يتعامل العالم مع إسرائيل كدولة محتلة، وإذا واصل الفلسطينيون إطلاق الصواريخ من هناك، يحق لها أن ترد عليهم بقوة، إلى حين التوصل معهم لما يعتبره الجانبان هدنة لفترة طويلة جداً!

العودة للتاريخ قد تبدو مفيدة عند نقاش قضية آنية، بالإشارة إلى أن مثل هذه الخطة الإسرائيلية وضعت عام ٢٠٠٤ عندما اتبعت سياسة «الضم الزاحف» لقطاع غزة باتجاه مصر، إما بإلحاقه كاملاً بها، أو تخصيص بعض أراضيها لحلّ مشاكله الاقتصادية والاجتماعية والسكانية.

ويتمثل ذلك بإضافة ٦٠٠ كم من شمال سيناء لقطاع غزة لبناء ميناء ومطار ومدينة يسكنها مليون فلسطيني، مقابل منح مصر ١٥٠ كم من النقب الجنوبي، وتقديم مساعدات دولية لها، وفتح نفق يمرّ عبر إيلات لربط الأردن بمصر برياً، فيما تمنح إسرائيل ٦٠٠ كم من الضفة الغربية لاستقرار حدودها والدفاع عنها.

ومما قد يجعل إسرائيل تنجح بتسويق خطتها تجاه غزة الآن ترديد مزاعم بأن حماس تستطيع الحصول على ما تريده من أسلحة وذخيرة ومتفجرات وتدريبات، ومع ذلك، فإن بعض المحاذير الأمنية لهذه الخطة من شأنها تقييد وتقليص حرية التحرك الإسرائيلي ضد غزة، بفعل تسلم مصر أي دور مباشر على أراضي القطاع، ما سيحرمها من القدرة على مراقبة حركة الحدود بين غزة ومصر.

حنين نصف عقد

هشام بنشاوي(*)

أنزوي تحت شجرة التين الهرمة والوحيدة، أرنو بحزن فادح إلى الأشجار، والعشب الذي علته النفايات والأوراق المتساقطة. أشير إلى صاحبة العربة، ذات الملامح القاسية «قهوة سوداء». أغوص في أعماقي، وأتابع شريطاً سينمائياً لا يراه سواي..

وجدتني طفلاً في ربيعه العاشر يركض، ذات مغيب، خلف قطيع غنم ممتلئاً بالحياة، في قرية يخيل إلي - هنا والآن- أنها صارت بعيدة، بعيدة جداً..!! أحسست بأنني في أمسِّ الحاجة إلى أن أتوسد ساقها، وأسألها عن حيواناتها ودواجنها، وعن الأشجار والنباتات.

أزف الغروب، فتضاعف حزني المشوب بحنين موجع..

❊ ❊ ❊

هجرت قريتي بعد أن علت الأطباق الهوائية أسطح بيوتها، واغتال الأسفلت ممراتها الزراعية، وصرت أبحث عن ملامح ذلك الوجه الأليف، ذي التجاعيد المحببة والآسرة في ملامح العجائز العابرات..

❊ ❊ ❊

ابتعد، وإلا سأنادي الشرطة!

صرخت العجوز التي اعتدت رؤيتها في حيّنا، تتوكأ عصاها وأتانها تسبقها.. أقبلت عليها، وقلبي يخفق بشدة.. كانت تجلس على الرصيف وتشدّ لجام دابتها، التي تتململ مستعجلة العودة إلى البيت، فتحدثها العجوز كما لو كانت تدرك ما تقول؛ تترجاها أن تصبر قليلاً حتى تستريح، تحرك الأتان رأسها في غضب طفل مدلل، كأنما تحثها على النهوض، تغمغم المرأة وهي تستوي واقفة: «الله، يا ابنتي.. ما بكِ؟». دنوت منها أكثر مدججاً بشوق نصف عقد، كأنما أدنو من جدتي، التي رحلت قبل خمسة عشر عاماً، وندت عنها صرخة..

تجمهر بعض المارة، ولامني أحدهم معتقداً أنني أفكر في سرقة ما يجود به عليها الناس.. ابتعدت دون أن أنبس بكلمة، وأحسست بدمعة ساخنة ومالحة تغازل شفتي.

(*) قاص وروائي من المغرب.

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات
تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان
دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦
الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

استمداد علم التفسير..

إدريس بحوت(*)
bouhoutcommunication@yahoo.fr

المقدمة الثانية من التحرير والتنوير أنموذجاً

مقدمة:

قد يتبادر إلى الذهن بمجرد سماع «الاستمداد» أن التفسير مفتقر أشد الافتقار إلى غيره، وهذا وهمٌ واضح، وغلط فادح؛ لا يقول به عالم مسفر ولا طالب مستبصر. وإنما الغرض حصول المراد من كلام رب العباد، كما قصد الرحمن وأراد، ليحصل به القصد وتتم الفائدة، ولتسكن إليه الأنفس وتطمئن به الأفئدة؛ ولأن النفس، شأنها كسائر المخلوقات، كلما ارتوت وزكت إيماناً وهدياً، ولَانَ صدرُ صاحبِها ولو كان صنديداً قوياً، وزاد المرء بذلك خشوعاً واطمئناناً ولو كان أكثر فسقاً وعصياً.. إذا تبين لك ذلك؛ زال الوقر الجالب للفقر، وعلمت أن التفسير هو رأس العلوم وأجّلها، وإن أبى الأعداء والخصوم.

(*) باحث في التواصل والدراسات الإسلامية المغرب.

ولعل الشـــيخ الطاهر بن عاشور أجمل ما أطنبنا فيـــه حين قـــال «فأما اســـتمداده من بعـــض العلوم الإسلامية، فذلك اســـتمداد لقصد تفصيل التفسير على وجه أتم من الإجمال، وهو أصل لما اســـتمد منه» التحرير والتنوير، المقدمة الثانية، ص٢٧، دار سحنون، تونس.. دون طبعة ولا تاريخ.

وبعد، فهذه قراءة وتأمّلات في المقدمة الثانية من «المقدمات العشـــر» التي دبج بها ابن عاشور تفسيره الموسوم بالتحرير والتنوير؛ أضعها بين القراء والمهتمين من باب نشر العلم، وتعميماً للفائدة.

فما المقصود بالاستمداد؟ وما العلوم التي يستمد منها علم التفســـير؟ وما موقع علمـــي الفقه والكلام من علوم الاســـتمداد؟ وما سر تحفظ ابن عاشور في عدّهما من الاستمداد خلافاً للسيوطي وغيره؟

أولاً: في مفهوم الاستمداد وشرطه

١. مفهوم الاستمداد: المدد: العون والغوث، والسين والتاء فيه للطلب. واصطلاحاً: يقصد به كل المعلومات السابق وجودها عن وجوده عند مدونيها والتي يحتاج إليها المفسر لبيان مراد الله تعالى.

٢. في شرط المدد/ الاســـتمداد: أن يكون خادماً للمعنى ومحتاجاً إليه؛ أما ما كان على سبيل الإفاضة والبيان والتوســـع والاســـتطراد، كما فعل الرازي في مفاتيح الغيب، فلا يعد مدداً.

ثانياً: علوم الاستمداد التي يحتاج إليها المفسر العربي

١. علوم اللغة: وتشـــمل معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم؛ ســـواء حصلت بالسجية والســـليقة أو بالتلقي والتعلم. وأهم هذه العلوم الخادمة لعلم التفســـير: علم النحو، علم الصرف، وعلم البلاغة.

٢. علما البيان والمعاني/ علم دلائل الإعجاز:

«ولعلمي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفســـير؛ لأنهما وســـيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية.. وإظهار وجه الإعجاز». وقد نص الزمخشـــري في ديباجة كشافه على أهمية هذين العلمين بقوله «علم التفســـير الذي لا يتم لتعاطيه وإحالة النظر فيه كل ذي علم، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن برز على أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرِّيَّة أحفظ، والواعظ وإن كان من حسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه؛ لا يتصدى منهم أحد لســـلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شـــيء من تلك الحقائق، إلا رجـــل قد برع في علمين مختصين بالقرآن، وهما علمـــا البيان والمعاني». وقال عند قوله ﴿وَالسَّـمَوَاتُ مَطْوِيَـاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] «وكم من آية من آيات التنزيل وحديث من حديث الرســـول، قد ضيم وسيم الخسف، بالتأويلات الغثة، والوجوه الرثة، لأن من تأولها ليس من هذا العلم في عير ولا نفير، ولا يعرف قبيلاً من دبير».

وقال الســـكاكي في مفتاحه: «إن الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقدس من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفســـير وهو فيها راجل»، ثم قال: «لا أعلم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ على المرء لمراد الله من كلامه، من علمي البيان والمعاني، ولا أعون على تأويل تعاطي تأويل متشـــابهاته، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأســـراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها واســـتلبت ماؤها ورونقها إن وقعت إلى من ليســـوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها في مآخذ مردودة، وحملوها على محامل غير مقصودة».

وفائدة ذلك كله أنه يورث ملكة علمية وذوقاً ســـليماً للمفســـر، شـــريطة اعتماده على ما صح عـــن العـــرب وكان مقطوعاً ببلوغه وانتقائه من الكلام المشهود له بالبلاغة عند العرب.

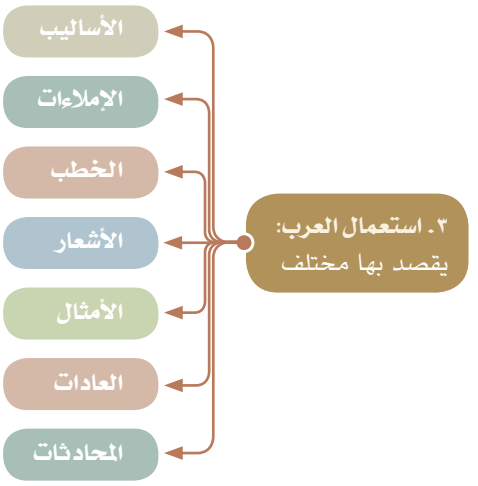

نماذج من الكلام المشهود له بالبلاغة عند العرب				
المعلقات السبع	الحماسة	نهج البلاغة	أدب المقامات	رسائل بديع الزمان

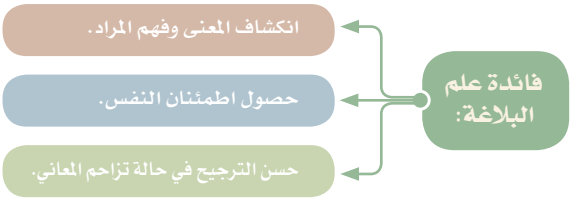

أمثلة وظيفية للبلاغة في فهم المراد القرآني:

١. ترجيح أحد الاحتمالين على الآخر:

كما في قوله تعالى: ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾ [الحجرات: ١١]. . هل العطف في الآية للبيان أو عطف خاص على عام؟ وهذا الإشكال يرفع بالرجوع إلى استعمال العرب، كقول زهير:

وما أدري وسوف إخال أدري
أقوم آلُ حصن أم نساء

٢. تحديد معنى الباء في قوله تعالى: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦].

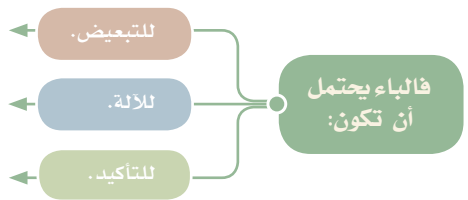

والمترجح أنها للتأكيد؛ لأن دخول الباء على المفعول يفيد التأكيد في استعمال العرب، وهي طريقة مسلوكة عندهم كما قال النابغة:

لك الخير إن وارت بك الأرض واحداً
وأصبح جد الناس يظلع عاثراً

وقول الأعشى:

فكلنا مغرم يهوى بصاحبه
قاص ودان ومحبول ومحتبل

٣. توقف عمر في كلمة قرآنية مع شيخ هذيل الذي حسم الأمر:

قال عمر وهو على المنبر ما تقولون في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧]، فقال شيخ من هذيل هي لغتنا: التخوف: التنقص. فقال له عمر هل تعرف العرب ذلك في كلامها؟ قال نعم، وأنشد قول الشاعر:

تخف الرحلُ منها تامكا[١] قَرِدا[٢]
كما تخوف عودُ النبعة السفَنُ[٣]

فقال عمر: عليكم بديوانكم لا تضلوا، هو شعر العرب فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم.

وعن ابن عباس قال: الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن رجعنا إلى ديوانهم فالتمسنا معرفة ذلك منه، حتى إنه كان كثيراً ما ينشد الشعر إذا سئل عن بعض حروف القرآن. ومن ذلك ما ذكره القرطبي حين سئل ابن عباس عن «السنة» في آية الكرسي فقال: النعاس وأنشد قول زهير:

لا سنة في طوال الليل تأخذه
ولا ينام ولا في أمره فَنَدُ

ونفسه ما فعله عكرمة حين سئل عن معنى الزنيم فقال: ولد الزنى وأنشد:

زنيم ليس يعرف من أبوه
بغي الأم ذو حسب لئيم

وقد كره هذا الإمام أحمد فقال: «ما يعجبني»، لكن هذه الكراهة مبررة إذا كان الغرض من الشعر إثبات صحة ألفاظ القرآن كما وقع لابن الراوندي مع ابن الأعرابي حين سأله: أتقول العرب لباس التقوى؟ فقال ابن الأعرابي: لا بأس لا

(١) التامك: السنام.
(٢) قَرِد: بفتح وكسر الراء، كثير القراد.
(٣) السَّفَن: المبرد.

بـــأس إذا نجى الله الناس فلا أنجى ذلك الرأس، هبك يا ابن الراوندي تنكر نبوة محمد، أفتنكر أن يكون فصيحاً عربياً؟

٤. ما أثر عن بعض السلف في فهم معنى بعض الآيات:

معنى الآثار:

ـ مـــا نقل عن النبي في بيان المراد القرآني، مثاله ما وقع لعـــدي بن حاتم في معنى الخيط الأبيض والخيط الأســـود، وهذا قليل «عن عائشـــة: ما كان رسول الله يفسر من القرآن إلا آيات معددات علمه إياهن جبريل».

ـ ما نقل عن الصحابة الذين شاهدوا التنزيل.

أمثلته:

بيان عائشة لما وهمه عروة بن الزبير من إباحة السعي بين الصفا والمروة انطلاقاً من قوله تعالى ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨].

فقالت عائشة: كلا، لو كما تقول لكانت «فلا جناح عليه أن يطوف بهما»؛ إنما نزلت هذه الآية في الأنصار.

نلاحظ أنها بينت:

أولاً: استعمال العرب.

ثانياً: مثار الشبهة الذي ظاهره رفع الشبهة.

ومثله تفســـير المغضـــوب عليهـــم باليهـــود، والضالين بالنصارى.

وكذا تفسير «ذرني ومن خلقت وحيداً» بالوليد بن المغيرة؛ وكون المـــراد من قوله تعالـــى: أفرأيت الذي كفـــر بآياتنا.. بالعاصي بن وائل السهمي؛ وبيان المرأتين اللتين تظاهرتا على الرســـول: حفصة وعائشة؛ قال ابن عباس: مكثت سنين أريد أن أســـال عمر عن المرأتين اللتين تظاهرتا على الرســـول ما يمنعني إلا مهابته، ثم سألته فقال: حفصة وعائشة.

٥. إجمـاع الأمة على تفسـير معنى، مثـل إجماعهم على:

أن المراد بـ «الكلالـــة» الأخت للأم. وإجماعهم على أن المراد بالصلاة في سورة الجمعة صلاة الجمعة.

٦. أخبار العرب:

يســـتعان بها على فهم القصص القرآنـــي المذكور إجمالاً للاعتبار، كما في قوله تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ [النحل: ٩٢]، وقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤].

٧. أسباب النزول:

فائدة معرفة أسباب كثيرة، منها:

– دفع التوهم والتأويل غير المقصود، ومثاله ما في قصة عمر مع قدامة حين شـــرب الخمـــر وأراد عمر أن يقيم عليه الحـــد، فتأول قولـــه تعالى: «ليس على الذيـــن آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعمـــوا إذا ما اتقوا..»، فرد عليه ابن عباس تأويله هذا قائلاً: إن هذه الآيات أنزلت عذراً للماضين وحجة علـــى الباقين؛ فعذر الماضين بأنهـــم لقوا الله قبل أن تحرّم عليهم الخمر، وحجة الباقين لأن الله يقول: «إنما الخمر والميســـر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان»، فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا فإن الله قد نهى أن يشرب الخمر. قال عمر: صدقت.

٨. أصول الفقه:

رجح فيه ما ذهب إليه الغزالي لوجهين:

– لأن فيه مســـائل كثيرة من استعمالات العرب وأهملها أهل اللغة، مثل مفهوم المخالفة وفحوى الخطاب.

– لكونه يضبط قواعد الاســـتنباط التي تســـاعد المفسر على استنباط المعاني الشرعية من الآي.

٩. علم الكلام وعلم الفقه:

لقد تحفظ الشـــيخ الطاهر بن عاشـــور في عدّهما من العلوم الخادمة للتفســـير، خلافاً لعبد الحكيم والألوسي في عدّ علـــم الكلام من جملة مـــا يتوقف عليه علم التفســـير؛ والسيوطي في عد علم الفقه كذلك؛ منتقداً إياهم بما يلي:

– إن علم الكلام لا يحتاج فيه لإثبات كلام الله، لأن كلام الله ثابت عند السلف قبل.

– لا أثر له في التفسير.

– إن علم الكلام وعلم الفقه متأخران عن علم التفسير.

– إن علم الفقه فرع عن علم التفسير.

– لا يحتاج لهما إلا المفســـر المتبحر؛ والمفســـر المتوســـع يحتـــاج لكل العلوم علـــى مذهب البيضـــاوي القائل «لا يليق لتعاطيـــه، والتصدي للتكلم فيه، إلا من برع في العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها وفي الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها».

نخلص مما ســـبق إلى أن علم التفســـير هو رأس العلوم الإسلامية، وأن اســـتمداده من علوم شتى غايته بلوغ الكمال في الفهم السديد من مراد الرب المجيد، تفادياً للعجز البشري في الفهم السقيم المؤدي لفصل الحبل عن الوريد.

غزة.. وحصار الوهن

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

(١)

رحلة ليست كبقية الرحلات، لا من حيث الوجهة أو الهدف، ولا من حيث الأشـــواق والمشاعر؛ هكذا هي الحياة، فبعد طول انتظـــار كانت الوجهة إلى غزة في أكنـــاف بيت المقدس، وكان الهدف تجسيد الأخوة الإيمانية؛ نصرة لأهلنا المرابطين هناك، والإسهام في كســـر الحصار الجائر الذي تواطأت عليه القوى الدولية والإقليمية لعدة سنوات، فعانت منه هذه المدينة المرابطة أيما معاناة!

هذه الأرض كانت أرضاً للرباط على مرِّ العصور، وكان أئمة الإسلام يرابطون فيها، وها هو ذا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «فكانت غزة وعســـقلان وعكا.. كانت ثغوراً.. وكان الصالحون يأتون الثغور لأجل الجهاد والمرابطة في ســـبيل الله تعالى، فإن المرابطة في ســـبيل الله تعالى أفضل من الإقامة بمكة والمدينة ما أعلم في ذلـــك خلافاً، فكان صالحو المؤمنين من الســـلف يرابطون في هذه الأماكن؛ كالأوزاعي وإسحاق الفزاري ومخلد بن الحسين وإبراهيم بن أدهم وعبد الله بن المبارك..»[1].

ذهبنا إلى غزة وكان وهج المشاعر يهز القلوب هزاً، وأشواق الحب تحدونا في مسيرنا إلى تلك الأرض المباركة، وكلما اقتربنا من معبر رفح ازدادت الأشـــواق، وتسارعت الأنفاس، وكنت أرى أصحابي يغالبون دموعهم. أعيننا تتطلع إلى غزة، وقلوبنا تهفو هناك حيث المسجد الأقصى مسرى الحبيب المصطفى ﷺ.

يا الله... أحقاً سنزور أرض الرباط والعِزة..؟!

(١) مختصر الفتاوى المصرية: (٢/ ٦٠).

منذ أن عزمت على هذه الرحلة كنت أتأمل الهدف: (كسر الحصار)، فقلت في نفسي: إنَّ أبطال غزة لا يضرهم الحصار وتكالب الأمم عليهم، بل سيزيدهم قوة وثباتاً، ومَن كان مع الله – عز وجل – فإنَّه ناصره ومعينه، قال جل شأنه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠ – ٢١]، وقد تأملت حديث الطائفة المنصورة الذي قال فيه النبي ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك). فوجدت أنَّ لتلك الأرض المقدسة نصيباً وافراً من هذا الحديث، ففي بعض رواياته سئل رسول الله ﷺ: وأين هم؟ فقال: (ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس)[1].

ولهذا؛ فإنني في الحقيقة لم آت لكسر الحصار عن غزة، وإنما يمّمت هناك محاولاً كسر الحصار عن نفسي، إنه حصار الوهن والعجز، وحصار القعود وحب الدنيا، لقد كبَّلنا الوهن من كل مكان، وجلَّلنا من الأخمص إلى الناصية؛ وهن سياسي وإعلامي، وعجز اجتماعي وثقافي، لقد أنهكتنا ثقافة الهزيمة والتطبيع والاستسلام، وأحاطتنا من ورائنا وأمامنا في أكثر الميادين، حتى استمرأ بعضنا العجز والخذلان!

(٢)

وصلنا – بحمد الله تعالى – إلى غزة الشموخ والعزة، وأول ما يستثيرك في هذه الأرض المقدسة أنَّ عبق الشهادة يعمر ذلك الشريط الممتد على طرف البحر المتوسط، ومعاني البطولة والرجولة شامخة في كل الميادين، حتى إنني لم أزر أحداً إلا يقولون لي هذا البيت استشهد فيه شهيد أو شهيدان أو ثلاثة، بل زرت بيت العالم المجاهد نزار ريان – رحمه الله تعالى – وأخبروني أنه لقي الله هو وزوجاته الأربع ومن كان حاضراً من أبنائه، فكان عدد من قضى نحبه في هذا البيت المبارك سبعة عشر شخصاً، رفع الله درجاتهم في منازل الشهداء، ولو كانت الشجاعة والبذل في سبيل الله تشترى لم أبرح منزلهم! أسأل الله – تعالى – أن يرفع درجاتهم في جنات النعيم.

ولا تكاد تجد أسرة في قطاع غزة إلا وفيها أسير أو أكثر ما زالوا أو قد مروا على سجون الاحتلال، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال، وإذا كان العدو الصهيوني يهدف إلى ترويض الشعب وكسر إرادته بكثرة القتل والاعتقال والهدم؛ فإن المحن وأنفاس الجهاد وآيات آل عمران والأنفال تربي المجتمع على الإصرار والثبات، ولهذا نجد أن أهل غزة لا تزيدهم الجراحات والتضحيات إلا عِزة وأنفة.

ومن المواقف التي استصغرت نفسي عندها: أنني رأيت طفلاً في العاشرة من عمره فقلت له: في أي صف تدرس؟ قال: في الصف الرابع. فقلت له مشجعاً أريد أن أعلي همته: ستصبح طبيباً أو مهندساً إذا كبرت بإذن الله؟ فقال بكل عفوية: ما يهم! فلما رأى الاستغراب في وجهي قال: بدي أستشهد!

فقل لي بربك: شعب بهذا الإصرار والأنفة والشموخ أتراه ينكسر؟!

شعب أطفاله رجال، ورجاله جبال، هل سيقبل مشاريع بيع الأرض والتفريط في الحقوق؟!

وأذكر أنني رأيت أحد الأبطال الذين أصيبوا بإعاقة دائمة جراء القصف اليهودي العشوائي على غزة، فأردت أن أصبِّره وأبشره بفضل الله عليه، وإذا به يتلو قول الحق – تبارك وتعالى –: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ثم رأيت دموعه تتساقط، فقلت

(١) أخرجه: أحمد رقم (٢٢٣٢٠). والطبراني في الكبير، رقم (٧٦٤٣)، وحديث الطائفة المنصورة له روايات كثيرة، وعده جمع من أهل العلم من المتواتر، انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٦٩)، وقطف الأزهار المتناثرة من الأخبار المتواترة، رقم (٨١).

له: لعلَّ قدميك سبقتاك إلى الجنة فاصبر واحتسب. فقال: والله ما بكيت عليها، لكنني أبكي لأنني لم أُتخذ من الشهداء؛ فالشهادة اصطفاء! ثم أخذ يوصيني حتى استحييت من نفسي!

ولا تظنن أنَّ هذه القمم السامقة وأنَّ هذه التضحيات لخواص الناس، لا والله! فعامة الناس عندهم من الحمية والغيرة والإقبال على العطاء ما يعجز القلم عن بيانه، وقد زرت محطة صغيرة لتحلية المياه تحت الإنشاء، وفيها عمال يشتغلون فيها، فسلّمت عليهم ودار بيني وبينهم حديث جانبي عابر، فاستأذن أحدهم بالانصراف، فطلب منه صاحبه الانتظار قليلاً، فاعتذر؛ لأنه سيذهب لقضاء بعض حاجات أهله قبل أن يذهب إلى الرباط على ثغور المدينة!

ومن المشاهد التي لا تخطئها العين في غزة: مشاهد المنازل والمؤسسات المدمرة، وهي تدل على صلف وجبروت العدو الصهيوني من جهة، وعلى حجم التضحية والمعاناة التي يعانيها الشعب من جهة ثانية، وعلى صلابته وقوة إرادته واستعصائه على الترويض.

لقد أدركت أنَّ التضحية والشجاعة ليست خطبة تصدح بها المنابر، ولا قصيدة يتغنى بها الشعراء، ولا دروساً يتزين بها الداعية أمام الناس؛ بل هي موقف تسمو به النفس، وسجية تحلق في ظلال العزيمة والعطاء، بلا تكلف أو تصنع. وأحسب أنَّ من أسرار شموخ أولئك الأبطال: أنَّ قادتهم يسابقون إخوانهم في مقدمة الصفوف، فشموخ أحمد ياسين وعبد العزيز الرنتيسي ونزار ريان ومحمود صيام.. وغيرهم كثير – رحمهم الله أجمعين –؛ كان من أعظم دروس التأسي في التضحية والإقدام.

ولهذا قلت لإخواني في هذه الزيارة: إنني ما جئت إليكم معلماً أو ناصحاً، معاذ الله، بل جئتكم متعلماً، أتربى على أيديكم، لعلي أقتبس من نور العزة شعلة من ضياء؛ لكن هيهات هيهات أن ينجح من يتطلب في الماء جذوة نار!

وقديماً كنت أسمع من بعض الدعاة: أنَّ الأمة إذا نهضت من كبوتها، واستيقظت من غفلتها؛ تحررت القدس، فلما دخلت غزة ورأيت مساجدها ومرابطيها وأبناءها البررة، أيقنت أنَّه إذا نهضت فلسطين نهضت الأمة!

(٣)

لقد صليت في عدد من المساجد في قطاع غزة، وسرَّني جداً إقبال الشباب على المساجد وحضور الجماعات والعناية بحفظ القرآن العظيم، ولا شك أنَّ هذا من أعظم العدة على النصر، قال الله – تعالى –: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [**الأنفال**: ٤٥] ، ولهذا كانت وصية الله – تعالى – لنبيه ﷺ أن يجاهد مخالفيه بالقرآن، فهو العُدَّة والزاد، قال تعالى ﴿ **وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾ [**الفرقان**: ٥٢]، وتأمل قول النبي ﷺ: (إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم)[١]، ولهذا كان أبو الدرداء – رضي الله عنه – يقول لأصحابه قبل القتال: (عمل صالح قبل الغزو؛ فإنكم إنما تقاتلون بأعمالكم)[٢].

إنَّ معركة فلسطين هي (معركة المساجد)، ابتداء بالمسجد الأقصى المبارك قلب الصراع مع العدو الصهيوني، مروراً بالمساجد التي درج اليهود على قصفها واستباحتها وتدنيسها، وكلما تعلقت القلوب بالمساجد وتعفّرت الوجوه بترابها ذلاً وإخباتاً لربها – سبحانه وتعالى –؛ تحقق موعود الله بالنصر والتمكين. والنفوس إنما تزكو وتشرف بعملها، وليس بمجرد بقائها في الأرض المقدسة، ولهذا لما كتب أبو الدرداء إلى سلمان الفارسي – رضي الله عنهما – أن هلمَّ إلى الأرض المقدسة، كتب إليه سلمان: (إنَّ الأرض المقدسة لا تُقدِّس أحداً وإنَّما يقدس الإنسانَ عملُه)[٣].

إنَّ الترف والتعلق بالدنيا من أعظم العوائق التي تقيّد المجتمع وتجعل أبناءه أرقاماً هامشية لا قدر لها من موازين الأمم، ولا قيمة لها في ميادين الصراع. أما إذا سمت النفوس بإيمانها وتعلقت بكتاب ربها وتخلصت من أثقال الدنيا؛ رأيت أثر ذلك في سرعة الإقبال والتسابق على العطاء، قال رسول الله ﷺ: (من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه)[٤].

أسأل الله – تعالى – أن يستخدمنا لنصرة دينه، وأن يرزقنا الصلاة في المسجد الأقصى مطهراً من دنس اليهود.

---

(١) أخرجه: النسائي في السنن الكبرى، كتاب الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف (٤/٣٠٥)، رقم (٤٣٧٢).

(٢) أخرجه: ابن المبارك في كتاب الجهاد، رقم (٥)، وبوَّب له البخاري في كتاب الجهاد في صحيحه، فقال: (باب عمل صالح قبل القتال، وقال أبو الدرداء: إنما تقاتلون بأعمالكم) (٦/٢٤).

(٣) أخرجه: مالك في الموطأ (٢/٢٣٥)، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٤/٦٩)، وانظر: كشف الخفاء (١/١٢٦).

(٤) أخرجه: مسلم في كتاب الجهاد، رقم (١٨٨٩).

مجلة

البيان

www.albayan.co.uk

تفاعل معنا إلكترونياً

YouTube

Available on the iPhone App Store

موقع البيان الإلكتروني
يطلق نافذته الإندونيسية

أفضل تطبيق "مفكرة" إسلامي على "آب ستور"
باللغتين العربية والإنجليزية

مجلة البيان

Al-Bayan Digital Calendar

Available on the iPhone App Store

www.albayan.co.uk